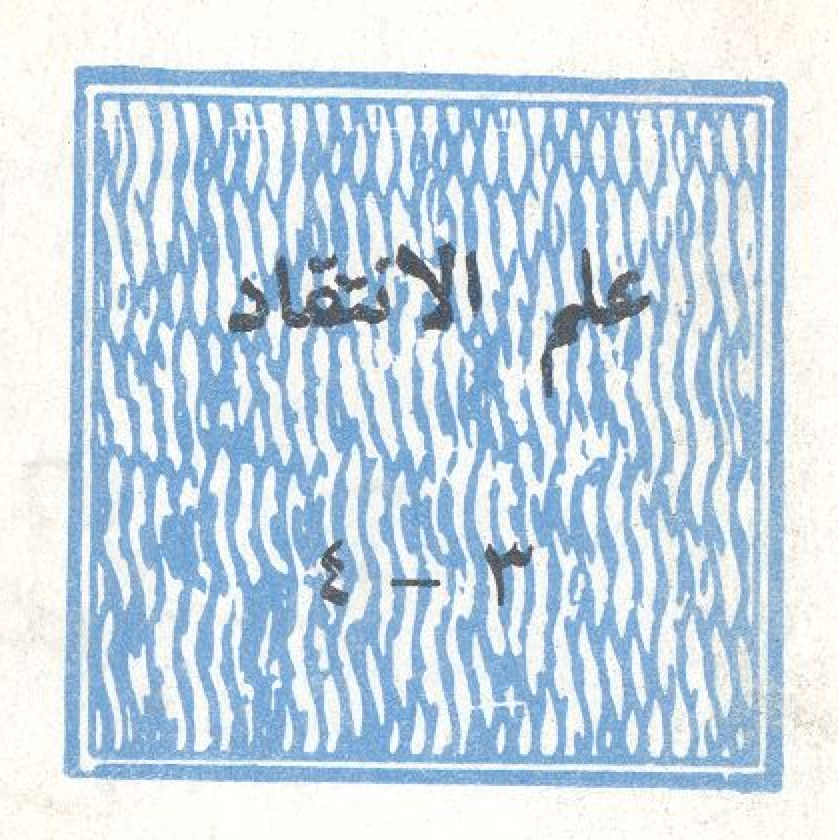
المكتبة الجامعيّة



ريمون طحّان

دنيز بيطار طحّان

أسس البحوث الجامعيّة اللغويّة والأدبيّة



دار الكتاب اللبناني - بيروت

اهداءات ٢٠٠٢

ا/مصطفى جمعه

اسكندرية

علم الانتقاد

٣ — ٤

المكتبة الجامعية

أسس البحوث الجامعية اللغوية والأدبية

ريمون طحّان
دكتور دولة في الآداب من جامعة باريس
رئيس قسم اللغات والآداب
كلية التربية II – الجامعة اللبنانية

دنيز بيطار طحّان
دكتورة دولة من جامعة باريس
استاذة في كلية التربية
الجامعة اللبنانية

منشورات
دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة



جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار الكتاب اللبناني   مكتبة المدرسة

طباعة - نشر - توزيع

الادارة العامة

الصنائع - مقابل مدخل الاذاعة اللبنانية
هاتف: ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠ - ٣٤٩٢١٩
ص.ب: ٣١٧٦ - تلكس: LE٢٢٨٦٥
برقياً: كتالبان - بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٩٨٥

— أسس البحوث الجامعية اللغوية والأدبية —

المقدّمة

كتب الكثيرون في البحوث اللغوية والأدبية ، وقد تختلف طريقتنا عن طرائقهم ، فهم يستحضرون المعطيات الخارجية ، ويدونونها بدون مستمسكات ، بينما تستوفي دراستنا هذه ، شروط الطريقة التجريبية والاستطلاع الميداني . انطلقنا من واقع هذا اللون من الأدب الذي نسميه **أدب البحوث الجامعية اللغوية والأدبية** . وعدنا الى هذا النوع من التمرين الجامعي الذي مارسه كل منّا ، خمس مرات في حياته الأكاديمية ، ومَثَلَ كل مرة ، أمام اللجان الفاحصة أو المناقشة ، ليذود عنه ، في كبريات جامعات العالم . ثم التمسنا ما قررناه في تعليمنا مادة البحوث نظرياً وعملياً ، حين باشرنا عملنا في جامعة دمشق ، وحين وضعنا أولى محاولاتنا في أصول البحوث باللغة الفرنسية ، وأخذنا نترقب الظروف لوضع مؤلف بهذا الموضوع في اللغة العربية .

وعندما تولينا مهمات التوجيه ، وقمنا بعمل اجرائي ، معظمه باللغة العربية ، في مدرسة الآداب العليا والجامعة اليسوعية والجامعة اللبنانية ، سجلنا ملاحظاتنا وأحكامنا بخصوص البحوث

التي اشرفنا عليها مباشرة ، أو التي ساهمنا في إخراجها الى حيّز الوجود. ورصدنا الصفات المتوفرة فيها ، واعتبرناها معطيات صالحة في كل استقصاء ، يسعى الى فهم أصول البحوث فهماً أعمق ، والى إماطة اللثام عن ماهيتها.

لا شك في أن الباحثين لم ينتظروا صدور مؤلفات في تاريخ البحوث وأسسها وفنونها ومناهجها وطرق تجديدها... ليقوموا بعملهم ، بل كانوا يحصرون جهودهم في التنفيذ والاجراء ، محاولين النزوع الى الكمال . ولا شك في أن البحث شيء والكلام عليه شيء آخر ، ولذا كان علينا من أجل إظهار الخلاف النوعي القائم بين البحث بذاته وبين الكشف عن ذاته ، أن نلتمس أولاً بحوث الدارسين المرشحين لنيل الألقاب الجامعية ، وهي تتألف من أصول ومقاربات — مطارحات ومنهجيات ومجموعة من المبادئ والمفاهيم التي تتحكم بها ، والتي تحدد تصور الدارس لبحثه واخراجه على شكل المقال الذي صدر فيه آنئذ ، وأن نستخلص البنية التي يقوم عليها البحث ، وأن نستنتج الفكرة الرئيسية التي تحزم بعقال فكري وحدة تصميمه . وأن نعتمد ثانياً التعليقات على البحوث المذكورة أعلاه ، ومداخلاتنا التي اتخذت أشكالاً متنوعة كمراجعات الدارسين وتوجيههم وارشادهم وما أصدرناه من تقارير ، لا يزال بعضه دفيناً في محفوظات الجهات المختصة ، وبعضه الآخر أخذ شكله العلني بجلسات المناقشة أو بأشكال أخرى.

ونودّ أن نشير الى **حديث** بحثنا الذي يشكل سبقاً متواضعاً ،

اذا انتقلنا به من تجربة شخصية طويلة الى **كتابة تأسيسية** ، تعترف بقيام البحوث ، وتسلم بامكان العلم بها . وهي لا تخترع بل تعود الى البحوث بالذات ، وتعلق على ما ورد في ثناياها من مسلمات ، وترتب المصطلحات التي تحرك ضمنها الباحث ، وتحدد مفاهيم دراسته ، وتصنفها في حقول معانيها المفهومية .

وتنتقل الكتابة التأسيسية من الحالات الفردية الى الحالات العامة ، ومن المسائل الشخصية الى المسائل المجردة والقابلة للتعميم ، وتصوغ مقالها بقالب التعليم الجاف والتقنية الباردة والتنظير الصارم ، ويصبح مقالنا ، في ضوء ما تقدم ، وصفياً وتقويمياً وتقييمياً .

— **هو وصفي** ، اذ نخالف فيه هؤلاء الذين يصدرون التعليمات ويوجهون الارشادات ، دون سند أو مستمسك ، وقد اعتمدنا نحن أكثر من ثلاثمائة بحث ، كان لنا يدٌ فيها ، وظهّرنا على السطح المبادئ التي كانت مضمرة فيها ، وأفصحنا عمّا كان دفيناً في تقاريرنا ، وأوضحنا ما جاء في مداخلاتنا العامة الشفوية ، وكشفنا مصادرنا التي نظمناها في مدونة مغلقة ، اثبتناها بعد خاتمة مقالنا .

— **هو تقويمي** ، اذ يُصحح ما اعوجّ ويعدل ما التوى . وبما أن التقويم يعتمد الوصفية المحايدة ، فتّشنا في آن واحد عن المفاهيم السالبة والموجبة التي تتحكم بتلك البحوث وبما ينشأ عنها من ذيول ومداخلات . ولاحظنا أن عدد الإشارات السالبة يفوق عدد الإشارات الموجبة ، فحاولنا ، ونحن نقوّم ، تحويل الإشارات

السالبة الى إشارات موجبة ، بعملية رياضية معروفة ، وانتقلت ملاحظاتنا وتحذيراتنا واضواؤنا الحمراء من (لا يجوز) الى أضواء خضراء واغراءات وتوصيات تنادي (بما يجب أن يكون).

— **هو تقييمي** ، اذ يهدف منح رتبة علمية ودرجة جامعية عليا. ورائد الباحث نموذج أعلى ، يطمح اليه دون أن يصله ، وشأن البحث شأن كل علم ، يقع نموذجه الأعلى في حدّ الاعجاز ، ويسعى كل ما دونه الى التشبه به. وشأن المقيّم التزود بمعايير موضوعية ومحك صائب ومقياس ثابت ، وقد كشفنا ، بصورة واعية أو لا شعورية ، المعايير التي استندنا اليها في لفظ أحكامنا التي تنطلق من الواقع العملي ، والتي كانت وليدة المشاهدة المضبوطة والتجريب المحكم.

أما أبواب مقالنا فهي تماشي مسيرة البحث وتساير مراحل تصنيعه الرئيسية الثلاث :

— **الباب الأول أو مرحلة التأهب والاطلاع** ، وفيه اللسان والزمان والمكان ، الأعمال المكتبية والدراسات الأكاديمية وبحوث الشهادات الجامعية العليا ، الأطراف المتداخلة ، النص الأصل والمقاربات — المطارحات.

— **الباب الثاني أو مرحلة الاجراء والتنفيذ** ، وفيه القراءة الاستطلاعية وتصور البحث الموقت ، التقميش والتجزيز ، تنظيم مادة الجرد ، كتابة المحتوى بشكل أولي ، مخطوط الرسالة جاهز.

— **الباب الثالث أو مرحلة نيل اللقب وزمن المقالات** ، وفيه النقلة النوعية التي تحوّل مقولات فكر المرشح الى مقالات شفوية وكتابية ، مقالات اللجنة المناقشة وعمليات الروز ، مغزى التقييم النهائي .

عسى أن يكون مقالنا جديداً في نمطه ، وظيفياً في أثره ، مفيداً في مردوده ، والله وراء القصد .

* * *

الباب الأول

مرحلة التأهب والاطلاع

مدخل

لا بدّ لنا من أن نُزوِّدَ الباحث بمعلومات مفيدة ، تتعلق بالتأهب والاطلاع الضروريين لكل من يود مواجهة قضايا بحوث الشهادات الجامعية العليا. ولا بدّ لنا ، في بدء الطريق ، من أن نشير ان البحث الذي يُكتب أو المؤلف الذي يُنشر ، يشغل حيّزاً مكانياً زمانياً ، أردنا أن نعيّنه في لبنان ، وفي العشرين سنة المنصرمة .

ونذكر بالخير الطلائع العلمية من رجالات اللغة والأدب الذين يعملون في لبنان ، ونسجل بالاكبار وعظيم التقدير فضلهم في الحث على كل جديد. وقد قامت نخبة ممتازة منهم بعمليات الاشراف على بحوث الشهادات الجامعية ، وراعت ظروف الباحثين في هذه الفترة العصيبة ، ووجهت دراساتهم الوجهة الصحيحة ، وقدرت العدة التي يجلبونها معهم ، ووظفتها في بحوث أخذت تلتمس النص الأصل ، وتعالجه بمقاربة (approche) أو مطارحة مناسبة .

لا شك في أن لغتنا العربية هي ذخيرة فكر أصيل ونبراس نَشَر نور العلم والمعرفة على جزء كبير من الكون ، وبدّد دياجير العصور

الوسطى ، ولكن حاضرنا مرير ، ولا يجوز لنا أن نحرم من حق الحصول على حصتنا من أدوات التواصل والبحث التي استنبطتها الأمم كافة ، والتي تنقل الينا العلوم المتقدمة والبحوث اللغوية والأدبية المتطورة. وبما أننا ندأب دوماً ، ونبحث عن صيغ جديدة ، نعبر بواسطتها عن ديناميكية عصرنا ، رأينا أن اللغة العربية لا تعيش بمعزل عن غيرها من اللغات ، فدفعنا الباحثين على صوغ دراساتهم بقالب عربي ، وعلى ترويض التعبير بالاستعمال والمران ، وعلى جعل الشكل يطابق تمام المطابقة المضمون ، مما يحقق نفعاً أكيداً ، ويبدد غوغائية التفكير وضبابية التعبير ، ويحاول البلوغ بلغة البحث العربي شفاف الكريستال.

ونشجع حملة اليراع وأصحاب القرطاس على الكتابة في عصر غزاه السمعي البصري ، وأخذ الصدأ يأكل الأقلام ، وبخاصة أن العالم العربي بأمس الحاجة الى دراسات متنوعة ، متعددة ، متشعبة المواضيع . ولا نرفع راية الحضارة العربية عالياً ، ولا نكسب معارك القضاء على التخلف الفكري ، ولا نبني مداميك الثقافة إلا بلغة عربية تنتج أدباً ، يخرج على معظم ما ألفناه . وهناك تنازع بين الانتاج المكتبي التجاري والانتاج الجامعي الرصين ، وبين المقالة الصحفية السطحية والمقالة العلمية العميقة ، وبين البحث التقليدي الرخيص والبحث الحديث القيّم ، وبين بضاعات سوق الورّاقين والصناعات الحديثة التي يعيشها عالمنا اليوم .

وتكثر الكتب الطامحة في بلوغ ما بلغته البحوث الأجنبية ، وقد

نصل الى المستوى الرفيع بالتفاعل معها وبأقلمة ما نجد فيها من مفيد ، والدنيا أخذ وعطاء ، لا انكماش وانطواء. ولنا الحق أن نطمح وأن نسعى الى بلوغ حدّ الكمال والتمام ، وأن نخرج البحوث من دائرة الكلام الفارغ ، وأن نتبع خطة جديدة تؤمن للقارئ العربي عدداً ضخماً من الأفكار الايجابية والبناءة ، ومن الاستنتاجات المكثفة المستمدة من أحدث النظريات.

وننادي ببحوث جامعية لها قيمة خاصة ، ونؤكد على ضرورة إعادة النظر في مادة الدراسات الجامعية ، ونطرح قضايا البحوث ، بشكل يمهد الطريق لتأسيس أبحاث ، تتبنى منهجيات عصرية ، وتتصف بالموضوعية والابتكار والتحديث والتجديد . ولا يجيء هذا النوع من الأبحاث إلا ثمرة المعاناة الجدية والاجتهاد المتواصل والكد الدؤوب .

وننتقي تلامذة نوكل اليهم أمر البحوث ، ونتوسم فيهم النزاهة والعدالة والأمانة ، ونأمل أن يكونوا من الذين ينفتحون على الحوار البناء ، لكي ينفذوا الإرشادات ، ومن الذين يتمتعون بصفات انسانية سامية كالصبر والأناة وصفاء الرؤية والموضوعية ، لئلا يقعوا في شرك التأثر والانفعال والايحاء. ونود أن يتابعوا تحصيلهم ، وأن يجهدوا فكرهم ويحركوه ، لكي يكون جوّاباً ومجدّداً ، وأن يكتسبوا المران والدراية والخبرة الواسعة ، لكي ينقلوا ما يطلعون عليه نظرياً الى الحقل العملي. ونأمل أن يكونوا ، في المستقبل ، الرعيل الأول ، صاحب باكورة أبحاث ، لم تقبل بالقوالب المحنطة

وبالمواضيع التقليدية ، بل تمهد طريق التحديث لباحثين آخرين سيدفعون بالدراسات اللغوية والأدبية قدماً الى الأمام ، وسيذودون عن قضاياها بكل ما أوتوا من القوة ، ولأرباب نهضة علمية يرفعون شعارها ويحملون لواءها ، ولحملة شهادات يجدون فيها وسيلة من وسائل ارتقاء سلم الكمال .

ورائد الصفوة المختارة من الباحثين الحقيقة العارية ، وتسعى تلك النخبة الى كشف الحقيقة بالتفكير الشخصي والفلسفة الذاتية والتعقل والتبصر والمنطق ، وتتحرى عنها في النص الأصل الذي تدرسه ، وتحلله ، وتتعرف على معالمه البارزة ولونه الأصيل ، وتكشف ميكانيكية عمله بالاجتهاد النيّر ، وتستعين للدراسة النصوصية ، بمقاربة أو بمطارحة ملائمة — وكلنا ينتقي في بحوثه من المقاربات والمطارحات ما يراه مناسباً — وقد تؤمن للبحث الأصالة والانتاجية المرتفعة والمردود العالي والنتائج الهامة ، وقد تتيح للباحث الانتقال من طَوْر اصطياد المعلومات التي يعثر عليها القارئ في أي كتاب من الكتب الذي عالج الموضوع عينه ، والتي أصبحت متوفرة وبكثرة بواسطة الآلة الالكترونية ، الى طور يحلل الباحث فيه المعلومات ، ويستنطقها ، لكي تخبره الخبر الصحيح على واقعه ، ولكي تعطيه صورة بارزة عن الحقيقة .

وقد فصلنا جميع هذه الأمور بشروح ايضاحية في هذا الباب الأول ، وأدرجنا مواده في فصول أربعة :

الفصل الأول : اللسان والزمان والمكان .

الفصل الثاني : الأعمال المكتبية والدراسات الأكاديمية وبحوث الشهادات الجامعية العليا .

الفصل الثالث : الأطراف المتداخلة .

الفصل الرابع : الحقيقة والمقاربات — المطارحات .

* * *

الفصل الأول

اللسان والزمان والمكان

يخضع العلم لوسائل التبادل والتواصل ، ويحمل البحث رسالة انسانية مشرقة ، ويتعلم من يمارسه السعي الى الحقيقة والاخلاص للعلم والانفتاح على غيره من الدارسين والباحثين. وكان من الطبيعي أن يتأثر البحث المكتوب في اللغة العربية بالبحوث الأجنبية ، وأن يتلون بلون معيّن ، وقد حدث ذلك في لبنان وفي فترة محددة ، عشناها من الداخل. ونبدي رأينا بجوانب ثلاثة منها تهم الباحث ، وهي اللسان والزمان والمكان.

* **اللسان** : وهب الغرب نفسه للعلم وافتداه بالغالي والنفيس ، وماثل علماءنا القدامى في الصبر والدأب والتضحية ، فكان له ما أراد ، وكان للعالم على يده هذه المدنية التي لم تشهدها الأرض من قبل. قهر الغرب التاريخ ، وأرغمه على الشهادة له بالصبر الصابر والكدح الدائب والفناء في الجلائل ، فدان له

البعيد ، وذلّ له العصي ، ودخل المحال في مجال الامكان . ومن المعلوم أن المجتمع النامي يستورد مقومات تجديده من المجتمع المتقدّم ، وان العالم العربي بأمس الحاجة الى دراسات متنوعة ، متعددة المناحي ، مختلفة في أسسها ، رصينة في منهجياتها ، متشعبة في اتجاهاتها . ولا يعاب علينا ، اذا تأثرنا بالبحوث الاجنبية وبالمنهجيات الحديثة التي تجلبها معها ، لا سيما أن العلم مشاع ، لا يعرف حدود العرق والجنس والقوم ، وانه من حق العالم العربي أن يبتغي الوصول الى بحوث تتصف بالموضوعية والعلمية والتحديث والروحية الجديدة ، وتُكتب خاصة باللسان العربي .

ومع احترامنا لما انتجه السلف الصالح ومفاخرتنا به ، ننوي ، نحن معشر عرب القرن العشرين ، النهوض بجميع دراساتنا الى مستوى البحوث التي تنتجها الأمم الراقية ، لنتمكن من خدمة العلم ، ومن السير مع قافلة التقدم والرقي . ولئن حسبنا البحّاثة في عالمنا العربي ، على مستوى واحد مع رصفائه الأجانب ، فهم يفوقونه بما توافر لديهم من علم متراكم ، ومن خبرات في البحوث متواترة ، اذ أن المؤلفات الموضوعة في الأسس والمصطلح والبحوث الجيدة المتداولة هي حصيلة جهود السلف ، وقد يضيف اليها الخلف بعض الأنماط والنماذج الجديدة ، من خلال تجربته الخاصة ، التي تمثل مرحلة معينة من التفكير والسلوك ، عند الجماعة ، التي تدأب دوماً على التفتيش عن صيغ جديدة ، تعبر بواسطتها عن واقعها .

أوكل الى الباحثين الجامعيين أمر ألسنة البحوث ، بلغة عربية

سلسة ، يفهمها القارئ العربي ، بدون مشقة وعناء . ولكن اللغة العربية كانت في سبات عميق ، لا تستجيب لداعٍ خافت أو لدعوة مهموسة ، وبدت ضعيفة الابانة ، عاجزة الأداء . بيد أن اللغة ، في عصر التواصل ، لا تعيش بمعزل عن غيرها من اللغات ، فكان من الطبيعي أن تكون اللغة العربية عرضة للتأثر ، الذي غزاها ، وهي في عقر دارها . وشعر الباحثون بضرورة جعل اللغة العربية تلائم مقتضيات العصر ، واتخذوا اجراءات سريعة لسد الثلم وتدارك النقص ، متأثرين في دراساتهم بالابحاث الأجنبية وبالأسس والمنهجيات الحديثة المستوردة . وبدا التأثر ، في البحوث الجامعية اللغوية والأدبية الناطقة باللسان العربي ، والمجددة على طريقة الغرب ، مبهماً لانقطاعه عمّا تقدّمه ، وغامضاً لوجود الحلقات المفقودة التي تربط الطريف بالتليد ، لا سيما أن الدراسات وقف من ناحية المضمون والنماذج العلمية على الغرب وذيول لها ، وأنها من ناحية الشكل كانت تسعى الى ايجاد تعبير عربي أو وعاء يحتويها .

ويتوقف على البحث الجامعي النهوض بالدراسات اللغوية والأدبية ، لا سيما أن الجامعات ، في العالم العربي ، مراكز معدة للدراسات ، ولتخريج الباحثين الأصيلين القادرين على القيام بمهامهم خير قيام . وشاء القدر أن نكون من المشرفين على الأبحاث الجامعية ، وأن نقضي السنين الطوال ، نوجه أعمال الطلاب الجامعيين ، ونرشدهم الى ما يقوم به الغرب ، ونوكل اليهم أمر تجديد دراساتهم العربية وترسيخها على أقوى الدعائم .

ومن خلال تعاملنا مع فئتين من الطلاب (طلاب أقسام اللغات الاجنبية وطلاب قسم اللغة العربية) تبيّن لنا أن البحث المعاصر يحتاج الى الاطلاع على الدراسات الحديثة والتقنيات المتطورة، فكان البحث المكتوب باللغة الأجنبية ينحو نحو الجودة، ولكن الضعف الألسني البادي والمستشري اليوم في طلاب أقسام اللغات الأجنبية أفقد البحث قوته، لانقطاع الطلاب عن معين اللغة والحياة، وعن مراكز البحوث والمكتبات الغربية، وبقيت الدراسات المكتوبة باللغات الأجنبية، في جميع أحوالها، طيّ الكتمان والنسيان. وقد كلفنا طلاب الدراسات العربية بأن يعودوا، وهم يخطون الخطوة الأولى في بحوثهم، الى الأسس والمنهجيات والخطط التكتيكية والعمليات الاستراتيجية التي أخذ بها العالم المتقدم، وعادوا بالفعل الى المراجع الأجنبية، وسعوا الى الإفادة منها، والى اقتباس خطة العمل، والى انتقاء مجموعة من المبادئ والقواعد، والى اصطفاء القوانين والنواميس، فاطلعوا على بعض البحوث المكتوبة في لغات مختلفة والمستمدة من ثقافات شتّى، وأخذوا عنها، وبدأت الدراسات العربية تخطو خطوات جريئة في طريق النماء والتعريب، وبخاصة أن توسل اللسان العربي، من العوامل المشجعة التي تجدد التعبير، وتروض بعض الشيء عباراته وقوالبه.

وضمّن طلاب اللغة العربية بحوثهم كثيراً من الخبرة والتجربة والقراءات الواسعة، وساروا في بحوثهم على طريقة (رويدَ الشِعر يغبُّ) وهم يكتبون بلغتهم الأم، وأخذت البحوث تتأثل، وترسخ

جذورها في اللغة العربية ، ويتوضع فيها شيء من عصارات الفكر العالمي. ومن هنا كان سعينا الى جعل الدراسات العربية تلائم مقتضيات العصر وترقى الى مستواه. ولئن لم تبلغ البحوث حدّ الكمال ، فهي تسعى الى تدارك النقص ، والى خلق نشاط تجديدي يبعث فيها الحياة. ان الأبحاث العربية اليوم ، في بدء نهضة مباركة ، والباحثين العرب في بدء عمل عظيم ، والمؤسسات العلمية الأكاديمية تؤيد حركات التجديد التي تتألسن بالعربية ، والتي تخدم المثقف العربي ، أستاذاً وباحثاً ومؤلفاً ، كما أن تأثيل الأبحاث أو محاولة بلوغها مرحلة النضج ، قد يدفعها صوب خطة علمية رشيدة ، توصلها الى مستوى مرموق ، يجعلها تضاهي به الدراسات التي تتم في جامعات العالم المتطورة.

** **الزمان** : تتحدد الفترة الزمنية التي نحن بصددها بالسنوات الواقعة بين ١٩٦٤ — ١٩٨٤ والتي لمسنا فيها أن البحوث المكتوبة باللغة العربية أخذت تتحسن تحسناً ملموساً. وما كانت حركة التجديد التي ظهرت خلال الفترة المذكورة إلا بوادر مباركة تركت أثرها الطيّب ، في البحوث الجامعية اللغوية والأدبية. ويظن البعض أن ثمة تراجعاً في مستوى الدراسات الأكاديمية في لبنان ، بالفترة الأخيرة (١٩٧٥ — ١٩٨٤) بسبب الأحداث الأليمة التي نعيشها ، وندلي بشهادتنا ، انطلاقاً من ثمرة تجربتنا وخبرتنا ومراننا في الاشراف على البحوث الحديثة ، المكتوبة باللغة العربية ، ونقول ان الخط البياني الذي يرسم تطور البحوث العام ، في العشرين سنة

الأخيرة وحتى في فترة الأحداث ، يتصاعد ويتجه دون انقطاع نحو الأعلى لا الأسفل ، واننا ، في حال وقوفنا عن كثب على حركة الأبحاث في العالم ، نشاهد أن خط لبنان البياني يتراكب وخط تطور البحوث العالمية ، ويسايرها في حركتها المتصاعدة.

هناك مؤشرات أخرى تؤكد ما ذهبنا اليه ، كمعامل النوعية. ولا يقاس البحث بعدد صفحاته ، لأن العلم الحق يتحرّى عن النوعية ، ولا يعير كبير اهتمامه للكمية ، ولأن الجودة والرداءة لا تتحدّدان بعدد الصفحات ، وما تتجلى الجودة الا بالأسس التي يتبعها الباحث ، وبالأهداف التي يتوخاها وبكيفية الوصول اليها ، وبالحصول على نتائج مقنعة. وقد تبين حتى الكمية القليلة توجه البحوث الوجهة الصحيحة ، وما البحث إلا رياضة ذهنية وريادة عقلية ، تجعلان من الدراسة قضية ، لها مبادئها وأسسها ومنهجياتها الفريدة.

*** **المكان** : لم يكن من البيئة العربية ما يساعد على تحديث البحوث التي كادت أن تكون على نغمة واحدة في موضوعاتها وأساليبها ومقارباتها وتلوينها ومسحتها وسمتها ... وانتخبنا لبنان إقامة لنا ، أو كأن لبنان اختارنا ، لأسباب متعددة منها :

— لبنان جابه التحديات ، وتصدّى للمؤامرات ، واستطاع ، بالرغم من الضغوط الأجنبية التي خضع لها ، ان يتابع رسالته المشرقة ، ضمن المجموعة العربية ، فرفض الفرنسة ، وتخلص من الانتداب ، وحصل على استقلاله في عام ١٩٤٧ ، وأسهم في

رفع صرح الجامعة العربية ، وشارك في مؤتمرات متعددة ، ليؤكد على طابعه العربي .

— ولبنان انتزع الشعلة من يد الغرب ، وأمدَّ العالم العربي بنورها ، اذ لم يكن في البيئة العربية ما يساعد على تبديد دياجير الظلمات ، فكان لا بدَّ من نور ينير الأذهان ، ويرقى بها الى مستوى المجاري الفكرية العالمية ، وقد جاء القبس الأول من الرابطة القلمية التي أمدت لبنان بالفتيل ، فاشتعل ثم انتشر نوره في مختلف ارجاء العالم العربي .

— ولبنان يشكل حلقة الوصل بين الغرب والشرق العربي ، ويحاول ، بالرغم من ظروفه الصعبة والقاسية التي يعانيها اليوم ، أن يقوم بدور الوسيط ، فيتم فيه التفاعل بين الأدب العربي والآداب الأجنبية (الفرنسية والانكليزية والاميركية والألمانية والايطالية والاسبانية والروسية ...) بسبب موقعه الجغرافي الذي يتيح له الانفتاح على العالم الخارجي والثقافات المختلفة والحضارات المتنوعة .

— ولبنان يعمل على الخروج من نطاق الأدب الواحد ، ويغرس في أعماق بقعته الجغرافية الطيبة بذور الآداب العالمية ، وقد قام في الماضي ، ولا يزال يقوم اليوم بدور فعّال ، لإخراج الأدب العربي من انطوائه وعزلته ، دون أن يقع في الافراط أو التفريط ، إذ يرتوي من أصالة مناهل الأدب العربي ، دون أن يعزف في حالة الظمأ عن روافد الآداب الأجنبية . ومن المعلوم أن الانطواء يؤدي

الى الركود والجمود والتحجّر، وان فرط الانفتاح يُفضي الى الذوبان في بوتقة أممية، لا هوية لها.

— فلبنان هذا تقيم على أراضيه مؤسسات جامعية، هي خير شاهد على نهضته العلمية والأدبية المباركة. وتمثل تلك المؤسسات طاقة العرب على الانفتاح وقدرتهم على استيعاب ما تفرزه الحضارات العالمية والجامعات المتطورة. وتشكل تلك المؤسسات لوحة حيّة من جامعات ومعاهد ومدارس عليا متعددة الجنسيات، يؤمها طلاب من جميع الأديان والأوطان والاعراق والأمم والأقوام والأقطار والأمصار، يجتمعون في بيروت، ثم يتفرقون، وهم يؤمنون بالصيرورة والتغير والتطور والتقدم والازدهار.

وكانت مسألة تجديد الدراسات اللغوية والأدبية مطروحة، حين حللنا في بيروت، وتأكدنا ان هذا التجديد لا يتحقق إلا في لبنان وفي عاصمته بيروت، نافذة الشرق ومركز الحضارات العريقة. وأخذنا نبحث عن هؤلاء الذين يريدون أن ينصرفوا كلياً الى العلم الذي لا يضيّق الحصار على الفكر المبدع، ونفتش عن الذين يعزفون عن الاهتمام بالشؤون السياسية، ليتوجهوا نحو الثقافة التي ترضي طموحات كل من يخلص للعلم المجرّد، وحاولنا إقامة التعاون الوثيق بين الباحثين الذين ينتمون الى مختلف حقول العلم، مما يتطلب تخطيطاً دقيقاً وتنظيماً محكماً، يجمع بين كفاءات مختلفة ومجالات شتى، تتعاون لتحقيق غايات تقدم العلوم. وساهمنا بزرع بذور التجديد في لبنان، وما قمنا به بالتعاون مع الباحثين اللبنانيين

مثلاً حياً ، لما يستطيع ابناء لبنان المخلصون أن يقدموا للعلم من تجديد ، يمتص رحيق أزاهير البحوث العربية بعامة والأجنبية بخاصة ، ويحولها الى دراسات يرضى بها الفكر الجامعي المتعمق. وقد لقيت هذه الجهود ارتياحاً عاماً ، لدى جميع ابناء الأقطار العربية على اختلاف موطنهم .

* * *

الفصل الثاني

الأعمال المكتبية والدراسات الأكاديمية وبحوث الشهادات الجامعية العليا

ميّز القدامى عدداً كبيراً من الوظائف التي يقوم بها المهتمون بشؤون اللغة والأدب، ووجدوا أن الراوي ينقل أقوال الآخرين ضمن شروط معينة، وأن الناسخ أو المدوّن ينسخ النصوص المكتوبة، أو يسجل الأقوال التي تملى عليه، بدون زيادة أو نقصان، وأن المصنف يجمع في أصناف أو مصنفات النصوص المتشابهة والمتجانسة في موضوعاتها، وأن المفسر ينكب على النص الأصل وعلى ما يسميه البعض تجاوزاً المصدر، ليجعله مفهوماً، ويضع له الحواشي والهوامش والشروح والتفاسير والتعليقات والتقارير والذيول... وقد أضاف المحدثون الى هذه الوظائف المعروفة وظائف أخرى كثيرة، لا حاجة لذكرها، لأننا سوف نعثر عليها، أثناء عرضنا الأعمال المكتبية والدراسات الجامعية وبحوث الشهادات العليا، وأثناء تعريفنا الذين يقومون بها.

* **الأعمال المكتبية** : إن الدراسات الجامعية من العمليات العلمية الدقيقة والشاقة ، والتي تتطلب كفاءات معينة ، ونباشر باستثناء ما ليس منها ، عن طريقة الحذف ، وندرج في هذا الشطب الأعمال المكتبية التي تقع في عداد النشاطات الكتابية الروتينية والتي تُدفع الى مأجورين ، ينفذونها لقاء بضع مئات من الليرات أو من الدراهم. وتحمل الأعباء المكتبية إشارات سالبة ، ولا تنتقل من جدول الأعمال المكتبية الى جدول الدراسات الأكاديمية أو بحوث الشهادات إلا بصورة استثنائية ، وذلك حين تتحول إشاراتها من سالبة الى اشارات علمية موجبة ، وسنُبيّن هذا التحول في حينه. ومن أهم الأعمال المكتبية :

— القواميس والمعاجم (وصاحبها القاموسي والمعجمي).
— الموسوعات (وصاحبها الموسوعي).
— عمليات التوثيق والبيبليوغرافيا (وصاحبها الموثّق).
— الترجمة الوثائقية (وصاحبها الناقل أو مترجم الوثايق).
— الكتب المدرسية والأمالي الجامعية (وصاحبها المؤلف أو واضع كذا).

القواميس والمعاجم : إن العلاقة وثيقة بين مكنونات الفكر الخفية وبين ألسنتها بالتعبير اللغوي الذي يظهر تلك المكنونات على السطح. ولئلا تبقى الأشياء المادية والمعاني المجردة والمفاهيم العميقة لمعات عارية وومضات هاربة ، نلتمس لها أوعية اللغة ، ونلبسها

شكل الكلمات والمفردات والمعجمات. ويتألف تاريخ القواميس والمعاجم العربية من مجموعة من المحطات، تبدأ من المحاولة الأولى التي قام بها الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ — ١٧٠ هـ) في **كتاب العين**، ويجرف قطار هذا المحطة معه **التهذيب والصحاح والمخصص والجمهرة والمقاييس**، ويتوقف في محطة **لسان العرب** الهامة مع ابن منظور (٦٣٠ — ٨٧١هـ) ويتابع سيره لينقل الينا **المعجم الوسيط** والقواميس العامة والمتخصصة، والمعاجم العربية المرتبة أبجدياً أو ألفبائياً، بموجب مقاييسها وجذورها أو بموجب مفرداتها، دون اعتبار مقاييسها وأصولها واشتقاقها، أو باتباعها ترتيبات أخرى. وهناك شحنات من القواميس الثنائية والثلاثية والمتعددة اللغات، وكلها زاد يلزمنا، ويسدّ بمجموعه حاجة القارئ العربي الذي يجد فيه القسط الأوفر من حاجاته ومتطلباته، وكلها عمل إجرائي لا يصلح كبحث جامعي، ولا يخوّل صاحبه حمل لقب أكاديمي.

وقد تدخل المعاجم والقواميس المفهومية في عداد الأعمال الجامعية، وذلك ضمن شروط. ونعلم أن الدراسات والأبحاث تحتاج الى اصطلاحات تقنية متخصصة، وأن واضعي المعاجم العربية الأوائل لم يعترفوا بجدارة المصطلحات الشائعة في عصورهم، وقدرة ارتفاعها الى المستوى اللغوي الكلاسيكي، فأهملوا ذكرها ولم يضمّوها الى معاجمهم، ولكن بعضهم سعى إلى جمعها في مسارد خاصة، تراوحت شروحاتها بين التطويل

والتقصير، والإسهاب والاختصار. وقد عانى الدارس الكثير من صعوبة البحث عن الاصطلاحات، ووجد شيئاً منها في المعاجم الخاصة بفروع العلم والمعرفة أو المتخصصة بمختلف النشاطات البشرية. ولا ندخل هذه المعاجم في عداد بحوث الشهادات الجامعية العليا، لأنها لا تتبع فلسفة علمية، وتكتفي بجمع الاصطلاحات من مسارد علمية قديمة وحديثة، وبترتيبها بموجب حروف الألفباء أو الأبجدية.

إن بعض الشعوب البدائية استطاع أن يجمع أسماء الأشياء المحسوسة والمفاهيم المجردة، وأن يدرجها في تصانيف تحت نحوَ التنظيم المنطقي، وهي البادرة الأولى لما نسميه المعاجم المفهومية. وليست الاصطلاحات الخاصة بعلم معين أو بحقل من المعرفة كيس كلمات أو جعبة مفردات، نستطيع أن نغترف منها الاصطلاحات اغترافاً، وأن نعالج المفردات الواحدة تلو الأخرى، بصورة اعتباطية. إن الاصطلاحات تؤلف مجموعة من المفاهيم المنظمة، ننطلق منها لرسم لوحة متكاملة لقضية محدودة المعالم وبارزة الملامح. وإن جمع كل ما يتعلق بحقل البحث المفهومي وترتيبه في جداول يجعلان من عناصر البحث مجموعة متماسكة، قابلة للتصنيف، ويقوم العقل باستبعاد العناصر الدخيلة والأقوال النافلة التي لا تؤثر في الموضوع. ومن المعلوم أن التصنيف الحق أو الحقل المفهومي المتراص لا يستبقي إلا العناصر الفعّالة التي تؤثر بشدة في سياق الموضوع وتقدمه، وان العثور على بنية معجم الموضوع، وعلى مختلف حقوله، وتصنيفها في مجموعات متماسكة، هما إشارتان

لإيجاد بنى دلالية تضم مجموعات من الأشياء ومن المفاهيم في طائفة معينة. وأما هذا النوع من البنى المفهومية، فنجده في مداخل البحوث الجامعية أو في نهايتها. ولا يهمنا موقعه، بل مغزاه، فاللغة العربية أداة للانتاج العصري ووسيلة تعبير في حقول التخصص الأدبي والعلمي والفني والتقني، ولذا ينبغي أن ننظر الى مشكلة الاصطلاحات والحقول المفهومية على أنها مشكلة علم ولغة، ونتوق أن نجد الاصطلاحات والحقول المفهومية في البحوث الجامعية، ونقبلها على أنها تؤلف جزءاً من الدراسة الأكاديمية وبشرط أن تتوفر فيها رصانة علوم السيميوتيكا والسيميولوجيا.

تتبنّى بحوث الرياضيات الحديثة والهندسة العصرية والألسنية طريقة الموضوعات والمسلّمات، وتقوم بتحديد اصطلاحاتها وحقولها المفهومية في الشق الأول منها، وهو الشق النظري أو التنظيري. ويحتاج كل علم الى نظام أساسي مغلق، والى مصطلح يعرف طبيعة الموضوع، ويحدد غاياته وأهدافه، وينظم قوانينه والأصول الخاصة به، ويدقق في مدى صحة تفريعاته وتقسيماته وتصنيفاته، ويضم شتات الوقائع والأحداث المبعثرة هنا وهناك، في وحدة متكاملة، تشدها الاصطلاحات والموضوعات والمسلمات، وتوثقها علاقات حقولها المفهومية. ويتعامل الباحث ثم القارئ مع هذه العدة التنظيرية، ومع جملة من المفاهيم، صيغت صياغة واضحة ودقيقة، وكلها تشكل حجر الزاوية في بناء البحث الحديث، ويرتفع عليها شق البحث النظري أي نصفه الأول، ولا يتشكل

الشق الثاني إلا من تطبيق التعريفات. ونقبل هذا النوع من الدراسات التي تدخل في عداد البحوث الجامعية وتؤلف جزءاً هاماً منها.

إن بحثاً جامعياً كاملاً في المفاهيم والاصطلاحات ممكن، بالرغم من قيام صعوبات متعددة، تحول دون تحقيقه في اللغات والآداب. ويعوّل هذا النوع من البحث على اصطلاحات وتحديدات وتعريفات وموضوعات تنظمها الحقول المفهومية، ويعتمد التكميم والإحصاء والتصنيف والتبويب، ويتوسل علم الدلالة والسيميوتيكا والسيميولوجيا، ويدرس مشاكل الدال والمدلول وعلاقة المسميات بمراكز الاهتمام وبقرائن المعنى ومعاملات التواتر. ويأتي هذا النمط من البحوث نتيجة التدقيق والتمحيص والاستنتاج، ويعرض الحقائق بإيجاز، ويبني نظريات متماسكة، بواسطة ضم شتات المعطيات والأحداث والوقائع في لوحات عامة، وثبوت موجزة ومسارد خاصة وجداول شاملة، تسدّ ثغرة إعلامية هامة، وتصبح مرجعاً موثوقاً به، جمّ الفائدة، الى أن يتيسّر للباحث الذي عمل، وكأنه جهاز الكتروني، أن يسلم المعطيات الى الآلة، وأن يدفعها الى الأجهزة الالكترونية. ويدخل هذا النوع من البحوث وهذا النمط من الدراسات في زمرة البحوث الجامعية، ويؤهل صاحبه نيل الشهادات الأكاديمية العالية، وقد منحنا لمن قام بأمثالها، على حق ولتوفر الشروط، ألقاباً جامعية.

الموسوعات: الأدب الموسوعي إطار مرن لمعالجة الموضوعات

العامة. وهو يمتاز بالشمولية في المادة، والوضوح في العرض، وابتغاء الفائدة التثقيفية. وترق النظرة الشمولية وطريقة جمع المعلومات وتوثيقها وتناولها من زاوية تاريخها الطبيعي الى ماضٍ سحيق. ولا ينحصر الأدب الموسوعي بموضوع ضيّق أو متخصّص، لأنه لا يتوجه الى فئة معينة من القراء، بل يسعى الى الوصول الى العامة، ويقدم لها المعلومات الأدبية والعلمية، بطريقة مبسطة وسهلة. ولكل عمل موسوعي، بالنسبة الى موقف الباحث منه، شيء من الحسنات والسيئات.

ومن حسنات الموسوعات انها الصلة بين كتب التراث وإنتاج عصرنا الحاضر، فهي تساعد الذين يعالجون أمور التراث على الاكتفاء بما ورد فيها، عوضاً من أن يحاولوا عبثاً الرجوع الى مئات المؤلفات وعشرات المصنفات أو المخطوطات النادرة، المخزونة في كبريات مكتبات العالم وغير المتيسر لهم الوصول اليها. انها تستجلي القديم، وتقوم بمسح ما تقدمها من موسوعات عربية وأجنبية، وتنقل بدقة المعارف والمعلومات التي تتوافر فيها أمانة النقل وحرفية الشرح والتفسير، فيجد فيها الدارس المعلومات الأساسية التي تفتح له باب البحث المتخصص، وتُرغّبه في المتابعة والاستقصاء وطلب الاستزادة. إنها تنقل الينا معارف عامة، وتزودنا بمعلومات موجزة وملخصة، فيأخذ منها الباحث، وهي في متناول كل راغب في العلم، بمقدار يكتفي به. إنها تتحلى عادة بصفات جمالية، ويتوافق فيها نظم المعنى ونظم المبنى، والمضمون والشكل، فتؤثر على مطالعها برونقها الأدبي.

ومن مساوئ الموسوعات أنها تكتظ ، عن طريقة العرض والسرد والبسط ، بمعلومات عامة ، غير متخصصة ، كما أنها تدخلنا في متاهات الحشو والاستطراد والمطمطة ، فلا تخلو من الغموض والسطحية ، وقلما تنفذ الى لباب الموضوعات التي تعالجها .

لا شك في أن الموسوعات أداة عمل ضرورية ، وعدة أوليّة ، لها قيمتها بالنسبة الى من يباشر بالبحث ، ولكنها تُصنف اليوم مع المراجع العامة ، غير المتخصصة ، التي لا يذكرها الجامعي في جداوله البيبليوغرافية. ويعود الباحث الى المراجع المتخصصة في علوم اللغة والأدب ، وإلى ما يعاونها من العلوم الموصلة أو المساعدة. ولا تصلح صناعة الموسوعات بحدّ ذاتها لنيل لقب أكاديمي ، ولكن المواضيع التي يثيرها الأدب الموسوعي ، كدراسة تقنية صنع الموسوعات ، أو كمتابعة الحركة الموسوعية في فترة زمنية محددة ، أو كمعالجة كاتب موسوعي شهير ، مقبولة في الأبحاث الجامعية وصالحة لنيل لقب أكاديمي .

عمليات التوثيق والبيبليوغرافيا : نصنف في هذه العمليات الجداول البيبليوغرافية والفهارس العامة والفهرس المدروس أو المنسق .

من السهل تصنيف مجموعة من المؤلفات ، بصورة عشوائية ووضع **جداول بيبليوغرافية** تقريبية ، ونقل ما تتضمنه مسارد الغير على عواهنها ، مما يؤدي الى تضخيم واكتظاظ لا فائدة منها ، ولذا

نسقط ، من هذا النوع من الجداول ، الثبوت الهشة التي لا يؤخذ بها ، لنبرز المسارد التي تصنف المعلومات والمسائل التي نقصدها . إن الجداول البيبليوغرافية الجيدة أداة عمل فعّالة ، وهي تحث من يرجع اليها على المتابعة والاستقصاء ، ولكنها لا تدخل في عداد الأبحاث الجامعية التي تفضي بصاحبها الى نيل مؤهل علمي.

من الصعب حصر وتعداد مواد **الفهارس العامة** ، وقد نجد فيها أعلام الأشخاص والأماكن والبلدان والأعراق والأجناس والقبائل والطوائف والآيات القرآنية والحديث النبوي وأبيات الشعر... قد تسد الفهارس العامة ثغرة إعلامية ، وقد تعيد القارئ الى الصفحة التي تزوده بالمعلومات الكافية عن العَلَم والوافية عن المكان مثلاً ، وقد تتيح للقارئ المتعمق الانطلاق منها للقيام بأبحاث متخصصة ، أوَليس هدف كل بحث إثارة همم الدارسين ! ولكِن ما الفائدة من هذه العدّة التوثيقية التي تذيّل الابحاث الهزيلة ، لتزيد من عدد صفحاتها ، وهي لا تصلح لنيل شهادة جامعية ، ولو تناولت كموضوع لها **كتاب الأغاني** ، وذلك لوجود فرز آلي نلجأ اليوم اليه .

يشكل **الفهرس المدروس** أداة فعّالة في البحث الجامعي ، وقد يكتفي البعض بمطالعته ، مستغنياً عن متابعة الموضوع في المتون. ويشير الفهرس المنسّق الى شح الدراسات حول الموضوع الذي نعالجه أو الى وفرتها ، ويحدد المستمسكات المادية التي نلتمسها ، ومنها المراجع وما تتضمن من خامات مفتتة ومبعثرة ، نرتبها ونحولها الى خطوط البحث الأساسية . ويضع الفهرس المدروس حواجز

للبحث لا يجوز أن يتخطاها ، ويوضح المشكلات التي تطرحها الدراسة ، ولا يسوق عناوين مراجع بالية ويسكت عن مؤلفات حديثة قيمة ، إن عربية أو أجنبية ! ويضيف واضعه التعليقات ، بخصوص كيفية استخدامه مراجعه ، فنتبين منها سعة معرفته بموضوعه ، وقد يُكتفى به استثنائياً لمنح المؤهلات الجامعية .

تكمن أهمية عمليات التوثيق والبيبليوغرافيا في قيمة المعلومات وحداثة المنهجيات المتبعة في وضعها . وتسوق الجداول البيبليوغرافية والفهارس العامة بضاعة قديمة ، في عصر ، أصبح التوثيق علماً ، قد وضعت فيه مصنفات في اللغات الأجنبية ، يسهل الرجوع اليها ، للتعرف على قواعد علمية ثابتة ومنهجيات تستمد قوامها من الفرز الآلي والميكانوغرافيا . وقد يستعصي أمر وضع الفهارس المدروسة أو المنسقة على الآلة المتطورة ، وقد يكتفي صاحبها بنظم المعنى الذي يزود القارئ بكمية كبيرة من المعطيات ، وبعدد وافر من الأحداث والوقائع المنسقة والمبوبة والمحلّلة ، لدرجة أنها تبين معالم البحث الأساسية ، وكأنها لا تحتاج الى نظم المبنى ، ولذا يرى معظم الباحثين في عصر الالكترون والمعلوماتية أنها تقوم مقام البحث المستفيض ، مما يبرر منح من يقوم بها المؤهل الجامعي .

الترجمة الوثائقية : الترجمة رمز من رموز الحضارة الحديثة ، وميزة من ميزات عالم اليوم المتحضر ، ووسيلة لانفتاح الوجدان ولانسانية الفكر . وكان النقل من العوامل المشجعة على تحديث اللغة العربية وترويضها ، عساها تقدم الى الشرق عصارات الفكر

العالمي ، وتنقل الى دنيا العرب محصولاً ضخماً من الانتاج الأجنبي الذي يساعدنا في نهضتنا العلمية . والترجمة على أنواع ثلاثة : الترجمة الوثائقية العامة ، والترجمة الوثائقية المتخصصة ، والترجمة التي تحاول نقل الروائع الأدبية الأجنبية .

تنقل **الترجمة الوثائقية العامة** المعلومات الموسوعية ، وتزودنا بمعارف قيمة عن أحوال العالم التجارية ومنجزات الأمم التقنية واختراعات الشعوب والنشاطات الفكرية والأدبية والفنية والعلمية . ويتمرس الناقل المبتدئ على النصوص الوثائقية ، ويراعي في ترجمتها قواعد معروفة ، منها أن يعرف اللغتين اللتين ينقل منها واليها ، وأن يلمّ بالفروق القائمة بينهما ، وأن يفهم معنى النص الأصلي فهماً جيداً ، وأن يستعين بالوسائل المعروفة ، وهي تحليل المفردات والتعابير والتراكيب والجمل ، ودراستها دراسة دقيقة ، بهدف الوصول الى فهم النص فهماً كاملاً ، ثم نقله حرفياً الى اللغة المراد ترجمته اليها .

ويقيّد الأدب الوثائقي العام المترجم بالأمانة وبحرفية النص . وتنتقل بهذا الأدب المعلومات كاملة ، وتضفي الحرفية على النصوص المنقولة صبغة البابلية العالمية ، ويتسربل النص بحلة عجمية ذات صبغة عالمية . وتحوّل البابلية العالمية عملية الترجمة من عملية انسانية ابداعية الى عملية آلية ميكانيكية ، قد تستطيع أن تقوم بها الآلة المترجمة الضخمة ، أو تدفع الى كتّاب يتعلقون بحرفية النص ويأبون اختبار بديهيات فكرهم الصافي وامكانيات عبقرية اللغة التي

ينقلون اليها. ويكتفي نقل الأدب الوثائقي العام بمنهجية دنيا، مهما حاولت أن ترتقي لا تصل الى مستوى البكالوريا والحلقة الأولى من التعليم الجامعي. وبما أن النص الأصلي شفّاف، ومعلوماته واضحة، وإشاراته الدلالية عامة، يفهمها غير المتخصص، ونظم لفظه ومبناه يعود الى معرفة لغة صحفية، تنقل المعلومات برمتها، دون مشقة وصعوبة وعناء، نُصنِّف هذا النوع من النقل مع العمليات الروتينية المأجورة، ولا مكان لها لا من قريب ولا من بعيد في الدراسات والبحوث الجامعية.

أراد عالمنا الاطلاع على تطور علوم الطب والهندسة والبيطرة وعلوم الطبيعة والزراعة والدفاع... كما أرادت البحوث الجامعية اللغوية والأدبية **نقل النصوص الوثائقية المتخصصة** التي تهتم بتقنيات علوم الصوت والفونولوجيا والألسنية والمعاني والدلالة والسيميولوجيا والسميوتيكا والنقد الحديث وتحليل النصوص المعرفي... ووجدت أنه يستحيل نقل محتوى النصوص المتخصصة بكامله، وتكشفت حقيقة الترجمة، مما جعلنا نصنفها مع العمليات الألسنية النسبية، ونعتمد لتقييمها وحدات حسابية دلالية، ونثير حينئذ قضايا التكميم والإحصاء (مقدار الوحدات الدلالية القابلة للنقل، ومقدار الوحدات الدلالية غير القابلة للنقل) لاسيما ان هناك نصوصاً توغل في تخصصها، وقد يصعب نقل النذر اليسير منها الى اللغة العربية. ان نقل هذا النوع من النصوص مقبول في البحوث الجامعية، ويؤهل صاحبه الحصول

على لقب علمي ، بشروط معينة : ايجاد معجم للمصطلح وللمفردات الفنية والتقيد بمنهج خاص وقواعد وقوانين علمية ثابتة .

لا نتذوق الأدب الجميل الا بقراءة نصوصه في لغته الأصلية ، ومن الأفضل العودة الى الأصل ، بدلاً من اللجوء الى الترجمة . ولكن العدد الهائل من اللغات الأجنبية التي أنتجت **روائع خالدة** ، ومحدودية القوى الانسانية ظاهرتان تعوقان التعرف على الآداب في لغاتها الأصلية ، وكم من رائعة شاعت وانتشرت عن طريق الترجمة ، وما دام أن معظم الانكليز ، حين يستشهدون بالرباعيات يجهلون اللغة الفارسية ، وقد اكتفوا بقراءتها في ترجمة (Fitzgerald) ظنّاً منهم أن ذلك يوفر عليهم الاطلاع عليها ، كما أوردها الخيّام ، فليكن اطلاعهم هذا ، من قبيل خيانة ، لا بدَّ منها ، وهي أهون الشرين ، والأفضل أن نعرف روائع الآداب العالمية مترجمة من أن لا نعرفها قط .

ان نقل الروائع الادبية الأجنبية تستوجب منّا أن نترجم بتصرف ، لكي نؤدي رسالتنا على وجهها الأكمل ، وعلينا أن نتعرف على عبقرية اللغة التي ننقل اليها ، وندرك كنوزها ، ونكشف ما فيها من دفين ، ونختبر فيها مواطن الضعف والقوة ، ونرتفع الى ذروتها ، لنؤدي عملاً أدبياً رائعاً . فالترجمة بتصرف المعمول بها في الآثار الخالدة النثرية والشعرية تسمح للمترجم أن ينظر الى الجزء المراد ترجمته ، ليستخلص معناه في ذهنه ، ويعبّر عنه بالجملة الموافقة أو ببيت الشعر الملائم ، سواءً ساوت الفاظ ترجمته

مفردات النص الأصلي أم خالفتها. ان النقل ، في هذه الحال ، يتحول الى عملية ابداع ، ينسى القارئ بواسطتها ان القطعة المترجمة التي يقرأها هي منقولة ، فيحسّ بروح المنشئ تسري في القطعة المترجمة ، وكأن الناقل قد أضفى على القطعة رونقاً أدبياً ، يلائم روح النص الأصلي ، فتصبح الترجمة معنى ومبنى معادلة للأصل حسناً ورشاقة .

يتبين لنا مما تقدم أن **الترجمة الوثائقية العامة** التي ظهرت ، بضغوط الحاجة الاجتماعية الملحة ، لا تصلح لنيل ألقاب جامعية ، اذ أن للنص الاجنبي الشفّاف ما يقابله ، دون مشقة وعناء ، بالعربية . وان **الترجمة الوثائقية المتخصصة** التي نقلت الينا الفنون والعلوم المتطورة ، لها ما يسوغها في الدراسات الجامعية ، لأنها تحقق حاجات تقدم العلوم والآداب ، وقد تؤدّي الى وضع معاجم متخصصة في علم معين. وان **نقل الروائع الأجنبية** جاء متأخراً عن الحاجات اليومية وحقائق العلم ، اذ لم يكن للآداب ما كان للعلوم من حظوة في عين سواد الشعب ، ولم يكن هناك من النفعية التي تدعو الى الإقبال على نقلها . وقد شاركنا مكرهين في مناقشات رسائل واطروحات تناولت الترجمة الوثائقية العامة ، ولم يُقْدم أي باحث على القيام بترجمة رائعة أدبية ، وقد دفعنا عدداً من الباحثين صوب معالجة منهجيات الترجمة أو نقل المصطلح المتخصص ، وهي دراسات بمستوى الجامعة ، وقد لبوا الطلب وحصلوا على اللقب .

الكتب المدرسية والأمالي الجامعية : لا نثير قضية الكتب المدرسية حتّى المعدّة للصفوف الثانوية ، وذلك لأسباب يطول شرحها ، ونستبعدها من حقل دراستنا ، ولا نحتفظ إلا بالأمالي (النوطة) التي يضعها الأساتذة الجامعيون لطلّاب الإجازة باللغة العربية وآدابها . ان **الأمالي الجامعية** محور اهتمام الاصلاح التربوي والتطوير العلمي والتدريس الأكاديمي ، باعتبارها الركيزة الأساسية في العملية التعليمية ، فانتاج النوطة عمل مستمر في تطوره وتجدده ، يخضع في كل عام لإعادة النظر بقصد تجديده ، في ضوء التقدم الابيستمولوجي والمعطيات الفنية الحديثة ، كما أن هذا الانتاج يخضع للتعديلات اللازمة التي تأتي نتيجة تجربتها وتعقب وقعها ومردودها في انتاجية الطلّاب الجامعيين.

وقد تتخذ الأمالي الجامعية شكل فهرس مدروس أو منسّق ، يلتزم بجوهر المادة ، ويلقي ضوءاً كاشفاً على طبيعتها ، ويرسم خطوطها الأساسية ، وقد يسد ثغرة إعلامية وفراغاً كبيراً في الدراسات المتخصصة . وقد يُعلّم الطلاب الاعتماد على النفس ، والتعمق في الموضوع بالايماءات والإشارات التي وردت فيه ، ويحثهم على تتبع خطى الاستاذ ، وتقفي أثره ، والتماس القبس الذي ينير أمامهم الطريق ، فيطلبون الاستزادة ، ويتابعون البحث ، ويصلون الى الدراسة المتعمقة .

وقد يبني مقرر المادة درسه على مجموعة من المراجع ، ويتحرّى بها الأمانة ، وينسب الاقتباسات الى أصحابها ، ولكنه قلما يصل

الى آراء جديدة لم يأتِ بها أحدٌ من السالفين، ولذا لا يقطع الطريق على ما قاله العلم القديم الذي ينقل أقوال الإخباري على علاتها، وحجج النحوي على ضعفها. وقد ينحو المقرر المنحى التاريخي، ويسلك الطرق التقليدية، ويعيد كل ما ورد في مراجعه، ويحاول الوقوف على آراء جميع السالفين في مادة درسه، ويبوب ما قيل فيه، ويكرّره، ويفيد من جهود السلف، ولكنه لا يضيف اليها شيئاً يذكر. وقد يتألف درسه من مادتين: احداهما تعرض وتبسط وتزيد وتستطرد، والثانية تحاول أن تحلّل وتنظّر.

ان التنقيب واستخلاص المعلومات وتقديمها على شكل شرحات مع شيء من التحليل لا تكفي لوضع درس يلائم روح العصر، وقد يؤمن معظم هذه الأمور الرابوط أو الرجل الآلي، وعلينا أن نتبع فلسفة جديدة في معالجة موضوع درسنا، وان ننحو نحواً جديداً، وأن نبتعد عن الطرق التقليدية العقيمة، وان نتقيّد بمنهجية حديثة، تتلخص في ابتكار أساليب جديدة يتقبلها الفكر المعاصر، وفي إلباس المادة حلّة قشيبة يرضى بها طلاب عصرنا.

وقد ينطلق الأستاذ في درسه من موضوعية الدراسة النصوصية، ومن نظرية جديدة تتخطى بشمولها ما سبقها من نظريات، ويعالج المسائل المنهجية بدقة، ويستنتج منها القرارات والأحكام والمعايير الثابتة، ثم يبني الدراسة النصوصية على قواعد وقوانين ونواميس، لا مكان فيها للتردد والاحتمال، وتمثل حينئذ

المعايير المذكورة ، في حقل التطبيق ، الأسس الحقيقية التي تصلح في تحليل النصوص وتعليلها وايضاحها والتي نطبقها في التمثيل الحسي ، وكأن رائدنا الحقيقة العارية والبرهان المبني على المستمسكات .

وعندما نطبع النوطات والأمالي بطابعنا الشخصي ، لا نجزم بأن ما بلغناه هو الأكمل ، لكننا نقتنع بأننا سعينا وحاولنا واجتهدنا ، وقد تتحول النوطات والأمالي الى بحوث قيّمة ، قد تستوفي مواصفات البحث الجامعي الحق والى انتاج علمي يحصل عليه المدرسون المعيدون على درجة علمية ، أو ينشره أستاذ المادة في بحث أو مؤلف جامعي .

** **الدراسات الأكاديمية** : تؤمن الأعمال الجامعية بمختلف أشكالها نشاطات التدريس وحاجات البحث العلمي الجامعي . وقد يصعب إقامة حدود لها ، اذ تقع بين حدين : حد الأعمال المكتبية وحد بحوث الشهادات العليا .

يستحيل غالباً الكلام عن الدراسات الأكاديمية دون إثارة موضوع الأعمال المكتبية ، اذ تتكون حقول الدراسات الأكاديمية ، بفعل انسلاخ بعض الأعمال المكتبية والتحاقها بحقلها الجديد ، كما بيّناه سابقاً . وقد يكون الحد الفاصل بين الدراسات الأكاديمية والأعمال المكتبية واهياً ، وقد يحتدم النزاع ، حول أعمال صُنفت سابقاً مع الدراسات الأكاديمية الجليلة ، وهي ليست منهابشيء ، وحول أعمال لم تُصنف في حينه ، وتدرج اليوم في قائمة الدراسات

الأكاديمية الرصينة ، ويقوم بهذه الحركة التصحيحية البعد التاريخي الذي يعيد الأمور الى نصابها ، والذي يملي علينا ما يجب فعله من عمليات اعادة تصنيف واعادة اعتبار.

كما يستحيلُ أحياناً الكلام عن الدراسات الأكاديمية ، دون إثارة مشكلة بحوث الشهادات العليا ، وقد تعتبر الدراسات الأكاديمية نتيجة لبحوث الشهادات الجامعية ومداً لها. وقد يعيد الباحث النظر في أطروحته ، وقد ينشرها بصورة ميسرة ، فتفارق أصل وضعها ، وتتحول الى دراسة مبسطة ، يتهافت عليها عدد كبير من القرّاء ، وتصبح سلعة تجارية ومجموعة من الأقوال المبتذلة والضحلة والضعيفة والسطحية والرخصة. ولا يطالعها حينئذ الجامعي إلا في دراستها الأصلية ، ويستغني عنها في الكتاب المطبوع ، وكأنها مرقت معه من درجة البحث الى درجة العمل الجامعي المبتذل ، أو انحدرت الى دركة العمل المكتبي ، ونتفهم **هذا الأفول** ، لأن الاستاذ أو الباحث كسواه من الناس يعيش في عالم مادي لا يرحم ، ويتخبط مع ضرورات الحياة الكريمة ، ويسعى الى تأمين الكفاف... وقد يتشبث البعض بتقدم العلوم اللغوية والأدبية ، ويسعى الى توسيع آفاقها ، واستكمال شروط نموّها ، ويعود الى البحوث التي نال بواسطتها شهاداته العالية ، ويضفي عليها نضجه ودرايته وخبرته الطويلة في شؤون اللغة والأدب والنقد ، فلا تلقى دراساته المعدلة الا الانتشار المحدود الذي يقتصر على الحلقات الجامعية الضيقة وعلى القرّاء المتشددين ، ونفهم حينئذ **هذا الصعود**.

بحوث الشهادات العليا : البحث موضوع يعالجه الدارس ، ويتناول فيه أحد موضوعات اللغة والأدب ، أو يثير مشكلة من مشكلاتهما ، أو يأتي بفكرة حديثة أو بنظرية علمية جديدة ، لها مردودها على الحركة اللغوية والأدبية . وقد يتخذ البحث شكل دراسة ورسالة وبحث أو مبحث وأطروحة ، ونحتفظ حصراً ، في فئة بحوث الشهادات العليا ، بالدراسات التي نحصل بموجبها على الدرجات والمؤهلات العلمية **العليا** ، أي التي تتجاوز بدرجتها الإجازة الحرة أو التعليمية أو الليسانس **العالية** ، ونصنّف في نطاق الشهادات العليا : دبلوم الدراسات العليا ودبلوم الدراسات المتعمقة وشهادة الماجيستر والدكتوراه على مختلف مستوياتها ، لا سيما درجة الاستاذية ودكتوراه الدولة وهما الأسمى قدراً . ويقوم ببحوث الشهادات العليا شخص واحد يمثل ، أمام لجنة فاحصة ، أُوكل اليها من قبل مؤسسات علمية أكاديمية (الكلية — المعهد العالي — مراكز البحوث ...) أمور الاشراف على الدراسات ورعاية البحوث ومنح الألقاب الجامعية .

تتميز بحوث الشهادات العليا ، **من حيث الشكل** ، عن غيرها من الدراسات ، وتُصنف في المكتبات العامة والمتخصصة في باب معين يُعرف بباب الدراسات والرسائل والبحوث والأبحاث والمباحث والاطروحات الجامعية . ويختلف حجم البحث باختلاف مستوى الدرجة العلمية والمؤهل ، وقد لا يُعبر الحجم عن مستوى الدرجة ، فالمهم أن تأتي مادته متوافقة ومستلزمات الدراسات

الجامعية. ويكتسب بعضها، في جامعات معينة، وقبل جلسة المناقشة، صفات الكتاب المطبوع، أو قد يحتفظ بمواصفات المستمسك المستنسخ الموقت، أو قد ينشر ويصيبه ما يصيب غيره من الأعمال المكتبية.

ويثير بحث الشهادة العليا، **من حيث المضمون**، موضوعاً معيناً، ضمن مشكلة محددة، ويتميز عن سواه بنوعيته وبطريقته العلمية وبطبيعته الأصيلة وبسمته الخاصة، ويعالج مشكلة محدودة المعالم، دقيقة الحدود، واضحة الأبعاد. وتتألف المشكلة من مجموعة من القواعد والنواميس والقوانين الموضوعية والعلمية، ومن أحكام معلّلة تحتاج الى سعة في العلم والاطلاع والثقافة، والى براعة في التحليل والمقارنة والاستنباط، وهي تتخلص من ربقة الطرق القديمة ومن سيطرة الدراسات السطحية، وتصل الى شيء من التجريد والتعميم. وفي كل مرحلة من مراحل البحث، نبدأ دائماً بشيء له طبيعة النظرية، وذلك كالمشكلة أو الفرضية أو المسألة التي توجه دراستنا على نحو معين، والتي تحاول دعم المشكلة أو نقضها بواسطة البرهان والتمحيص والتدقيق، والتي توصل الى طمأنينة العقل وسلامة الاستنتاج. ويمتاز البحث بأنه فرضية نريد التثبت من صحتها أو من فسادها، وعلينا أن نأتي لها بالبينة، ملتمسين حكمنا عليها من المنطق الصائب والقناعة الشخصية.

نحاول تعريف البحوث التي تمنح العاملين فيها الشهادات العليا بواسطة صفاتها العامة التي نسوقها مقتضبة، قبل أن ننتقل في أمكنة أخرى الى توصيفها توصيفاً مسهباً:

— بحوث حديثة لا تقليدية : أمامنا دروب طويلة ومسالك وعرة ، تتطلب منا دراسات فنية ، واختصاصات ضيقة ، تقضي على القوالب المحنطة والدراسات التقليدية ، وتفسح في المجال أمام بحوث حديثة يتجلّى فيها دور من أدوار نمو التفكير العلمي ، في أحسن صوره وفي أبهى أشكاله . وعندما نحاول أن نجدّد ونحدّث ونثّور ، نلحظ أن علماء اليوم لا يلقون بنتائج أبحاثهم القاءً ، انما هم يتقيدون بمنهجيات علمية ، تتلخص في أن يتبع المتقدم لنيل الدرجة الجامعية فلسفة جديدة وحديثة ، تجعل من الموضوع الذي يعالجه قضية ، لها أصول خاصة بها ، وتعتمد على نواميس ومعايير ومقاييس تتمتع بدرجة عالية من الكلية والشمولية ، وتؤهل الباحث نيل اللقب ودخول ملاكات الجامعة والقيام بأعباء التعليم العالي على أكمل وجه .

— بحوث علمية لا صحفية : بحوث يستن أصحابها ، الذين يخلصون للعلم ويرون فيه هدفاً بحد ذاته ، قوانين حديثة ، ويرمون اغناء المكتبة العربية بمباحث قيّمة ودراسات متخصصة ورسائل علمية . وتتحلى هذه البحوث بروح التعمق والتوسع والشمول والتطور ، وتفسح في المجال أمام نظريات علمية تشحذ الأذهان ، وتكشف خلفيات واضعها الفكرية وتميط اللثام عن قدرته العلمية ، ولا يجوز أن يستوي فيها الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

— بحوث موضوعية لا طوباوية : بحوث تحدد ذاتها

بموضوعية ، وتتفحص المناهج والخصائص والمقومات والمعطيات ، في ضوء حظها من عاملي انسجام عناصرها المؤتلفة وشمولها ، اذ تبعد الموضوعية بالانتقاء والاصطفاء المعطيات التي لا تدخل في صلب البحث ، وتحتفظ فقط بالعناصر التي تعمل بشكل فعّال في تحركه وتقدمه. وتقضي الموضوعية على ميوعة الفكر وتزيل ضبابيته ، وقد نكتشف مناحي ختل المسألة التي نعالج وجوانب ضعفها ، حين نوغل في عملية صوغها ، فيتفهم فكرنا كيف يجب علينا أن نطرحها وكيف يجب علينا أن نحلّها . وتؤدي الموضوعية الى موقف نزيه وعادل ، فنبتعد عن الهوى ، ونتجرر من جميع أنواع المؤثرات الخارجية .

— بحوث متعمقة لا سطحية : قد نتخبط في دياجير ظلام الشروح والتفاسير والحواشي والتعليقات والتقارير والذيول ، وكأن غاية البحث سوق معلومات سطحية وافراغ محتويات كتب التراث ، وقد نحقق شيئاً من العمق ، حين نبتعد عن الخواطر وحين نتعمق بدراستنا ، متوسلين طرق الاستدلال العقلي والمعرفة بالعلل والأسباب والتقسيم والتبويب والتصنيف والتحليل والتركيب والتكميم والاحصاء ، وكلها وسائل تجذّر المعرفة البشرية ، وتسبر أعماق الحقائق العلمية .

— بحوث مبرمجة لا اعتباطية : نضع قوانين لها صفة النظرية ، ثم ننظم هذه القوانين في هيكل عملي نسميه برنامج البحث ، وهو الذي يساعدنا على انتخاب ما قد يكون له أهمية في نظرنا من بين

عدد لا يُحصى من الأمور ، والذي يوجهنا الى طريقة تجمع ، في وحدة متآلفة ، شتات الوقائع ومفردات الظواهر المبعثرة هنا وهناك ، وتفسر ما قد يقوم بين الوقائع والظواهر من روابط وعلاقات . ان البرنامج الصالح يستخلص القواعد العامة التي لا بدَّ من تحقيقها في كل قضية علمية ، كي تكون قضية مقبولة وصحيحة ، ويذكر طريقة معالجتها ومناقشتها ، ومن يتبع برنامجاً ضعيفاً ، يخلط بين التنظير والنظريات ، والطرائق والمناهج ، والمقاربة والآراء ، ويقع في الضحل والسطحي والسفساف.

— بحوث سامية لا سفلية : ان العلوم التي كانت بدائية وشبه غيبية تطورت اليوم وأخذت ترتقي وتسمو ، بعمل التفاعل وارتباط أجزاء المعرفة بعضها بالبعض الآخر. وقد تختلف البحوث في مواردها ومحتواها ، وقد تتنوع في مناهجها وطرائقها وأصولها ، بيد أنها تتقدم مجتمعة ، وقد يصل بعضها الى درجة السمو قبل بعضها الآخر. وقد تواكب البحوث اللغوية والأدبية الدراسات العلمية في تقدمها وفي سعيها الى التطوير والتجديد وبلوغ درجات عالية ومنزلة رفيعة بالنسبة الى مجمل الانتاج المعاصر.

— بحوث شخصية لا أصدائية إرجاعية : ليس البحث مؤلفاً يسوق معلومات عامة ، نعثر عليها بالكتب المطروحة للبيع ، في أسواق الورّاقين، أو بأدب متراكم يتألف من أكداس من الأوراق ، ويمثل هذا الانتاج التقليدي الأصداء والارجاع التي تنبعث من عصور تخلفنا المرير. ويبدأ البحث الحق بفلسفة الموضوع

أو بالتفلسف فيه ، وتطغي هذه الفلسفة على جلبة من الأصوات التي تنطلق من المراجع ومن الدارسين المؤيدين والمعارضين ، ويرتفع بواسطتها صوت صاحب البحث عالياً ، ونسمع نبرته الشخصية بصفاء ونقاء .

— بحوث مجانية لا مأجورة : مجاناً أخذنا ومجاناً نعطي ، لأن الضمير العلمي اليقظ لا يقوم ببحث علمي إلا اذا كان من ورائه توجيه نافع وخير مؤكد للناس عامة ، أو اذا كان صاحبه يقصد وجه الله ويبتغي نشر المعرفة بين الناس جميعاً وبالمجان . ويتوخّى الباحث الحقيقي خدمة العلم بالتواضع الجم والبعد عن الغرور ، ويبتغي الوصول الى المعرفة والحقيقة لاشباع نهمه وحبه الاطلاع . وقد يجري بعض من يدعون العلم والمعرفة ، وراء المنفعة المادية وجمع المال الجشع ، ويحاولون انتزاع النظريات من يدّ الغير ، لاستثمارها في تطبيقات عملية ، تدرّ عليهم الأرباح الطائلة . وقد يقف الباحث أمام أبواب توصد في وجهه ووراءها الحقيقة ، ويسكت على مضض ، ويأمل أن يرى هذه الأبواب مشرعة ، اذ لا يجوز أن نرى العلم حكراً على بعض المرتزقة ، والأسرار العلمية وقفاً على بعض **المباحث** أو بالأحرى على بعض التقارير السريّة التي تضعها جهات مشبوهة .

وتضمن هذه الصفات باجتماعها كلياً أو بتوفر معظمها سلامة بحوث الشهادات العليا . ويضيف اليها البعض شروطاً أخرى ، منها

أن تكون ملتزمة لا محايدة ، والاناء ينضح بما فيه ، وأن تكون حرّة لا مقيّدة ، والوجدان العلمي والاحساس العظيم بالمسؤولية والضمير المهني المبني على الادراك والمعرفة والمسؤولية أمور كفيلة بأن تسم البحوث بسمة الفكر الحر ، وأن تختمها بخاتم الأصالة ...

* * *

الفصل الثالث

الأطراف المتداخلة

أطراف ثلاثة تترابط بعلاقة وثيقة ، وتتداخل في عملية بحوث الشهادات العليا. الطرف الأول هو الباحث الذي يقصد إنتاج عمل علمي ، والطرف الثاني هو الأستاذ المشرف الذي يوجه البحث وأعمال الدارس ، وتقوم بين هذين الطرفين مشاركة كاملة ، إذ يضع الباحث نفسه من أستاذه المشرف في موقع الذي يلتمس المعونة من المرشد الحكيم ، ويترك الأستاذ الموجّه للباحث حريته الكاملة ، ولا يقيّده إلا بوجدانه وإحساسه بالمسؤولية تجاه من محّضه ثقته الغالية . والطرف الثالث هو البحث بالذات ، وتنصبّ فيه جهود المجرّب والموجّه ، وتتضافر مساعيهما لإنتاج دراسة يعتزّ بها كلاهما .

الباحث المنتج : يستعرض الباحث المواضيع التي يتوقع أن يعالج أحدها ، على أمل أن يستقر اختياره على موضوع معيّن ، من

ضمن اختصاصه وحقل اهتماماته. وينتقي الباحث موضوعه بتأثير عوامل معينة (موضوع عولج أثناء دراسته وأُعجب به— فكرة خطرت له من خلال مطالعته الكتب والمقالات العلمية أو من خلال مناقشاته الفكرة مع زملائه— الرغبة في التعقيب على إشارة، وجدها في مطالعة أبحاث الغير، واعتقد أنها قابلة بأن تترجم في بحث— الانضمام الى حلقة معينة يديرها أحد الأساتذة المتخصصين والرغبة بالمساهمة في بحوث تلك الحلقة بالذات...) ثم يراجع الباحث أحد الأساتذة الجامعيين المتخصصين وممّن لهم حق الإشراف، ويطلب منه أن يوافق على توجيه الموضوع الذي انتقاه. ويجتمع الدارس بأستاذه، لإقرار كيفية تنفيذ البحث وللتمتع بالقدر الكافي من الإشراف، ضمن أوقات مبرمجة، تنظمها روزنامة عمل، تحدد مواعيد اللقاءات. ويكون عادة البحث مرهوناً بزمن معين يُنجز في خلاله.

ومن المعلوم أن هناك شروطاً معينة، يجب أن تتوفر في الباحث، بعضها مادي ومالي، وبعضها الآخر علمي وثقافي وشخصي، ويعكس حينئذ خلفية الباحث الفكرية.

من الأفضل أن يتفرغ الباحث كلياً لا جزئياً لِعَمَلِه، وأن يقصرَ عليه كلّ جهوده وإمكاناته، لا سيما أنه تكفل القيام بنشاط، أُعدّ له الإعداد الكافي، ويتجاوب ورغباته، وتتردد أصداؤه في أعماقه، ويتناغم واهتماماته المستقبلية. وأن يسير في عمله وأن يستمر فيه، ثابت الخطى، بقصد الوصول الى الغاية والهدف. ويتأمن

التفرغ وشريكته المثابرة بوجود هيئات معينة تنفق المال الكافي على الباحث، لكي يكرس وقته لدراسته، ولكي يتمكن من شراء الأجهزة واللوازم والعدّة الضرورية لنشاطه.

ينشأ الباحث نشأة علمية خالصة، ويتربى على شروط تقنية يقتضيها كلّ بحث علمي، ومنها أن يعرف اللغات الأجنبية، لكي يقدر على مطالعة المراجع بلغاتها الأصلية؛ وأن يتذرع بالشك المنهجي الوقائي الاحترازي الذي يدفعه الى رفض الوقائع أحياناً لا لمجرد رفضها، بل لاتخاذ موقف هو من قبيل الحيطة والحذر، ممّا يجنبه إطلاق الأحكام المجانية الخالية من كلّ سند وإحالة؛ وأن يتمتع بقدرة فائقة على التجريد، للتعامل مع البحث والسيطرة عليه، ومقاربة ما تباعد من أجزائه، وربطها ببعضها البعض، ومعالجتها بالتدقيق والتحليل والتعليل الشخصي والشرح والإيضاح والاستقصاء، بقصد الوصول الى نواميس جازمة تقوم على البرهان وإلى أحكام موضوعية عامة، تصلح لكل أين وآن ولكل مكان وزمان؛ وأن يتحلى بالنقد الذاتي الذي يمكنه من إعادة النظر في مادته، ومن تصحيح ما يدوّن وما يكتب ومن إقامة الرقيب على المادة، لتقييمها من وجهة نظر الغير اليها.

تكتمل شخصية الباحث بفعل السن والخبرة والمران والنضوج الفكري؛ والباحث المكتمل الأوصاف يفكر بأصالة، وله فلسفته الذاتية التي تتوسل التعقل والتبصر والمنطق. وتتفتح الشخصية، عندما تحب الاطلاع، وتعكف على القراءة بشغف، وتدأب على

اكتساب المعارف، وتمتاز بالعقل الجدلي الضروري في معالجة شؤون الدراسات العليا، وببنيانية فكر قوية وبهيكلية عقلية متماسكة. ولا يتأثر الباحث الحق بالتزامه السياسي ولا بالإيديولوجيات، فهو يأكل منها وهي لا تأكل منه، وهو يفرفطها بلا أن ينفرط؛ وهو صاحب حوار، يبعده عن التزمت ويجعله يتحلى بروح إنسانية سمحاء. وعليه أن يؤمن بالنسبية، وكلما تعمّق في البحث العلمي تكشفت له محدودية قواه البشرية، ومن ظنّ أنه قد علم فقد جهل.

يستفيد الباحث الحكيم من تجاربه الجامعية السابقة، وقد يتجنب بفعلها الأحكام الموروثة أو العائدة الى كتب معروفة. وقد يحقق في أبحاثه تطوراً أكاديمياً ملحوظاً، ويفيد من عثراته الأولى وينجح الى حدّ كبير في تجديد أبحاثه، وإدراك قيمة علمه، فيتحلى بالترفع والكرامة، ويبتعد عن التمرغ بالتراب والزحف والانبطاح والاسترلام، وقد خلقنا المولى جميعاً بشراً سوياً.

المشرف المرشد: يقتصر دور الأستاذ المشرف في هذه المرحلة على أمور إجرائية، معظمها إدارية تنظيمية. يدرس المشرف ملف المتقدم، وقد يكون هذا من طلّابه القدماء، ويعرف الكثير عن سير دراسته، أو قد لا يعرفه ويطلب حينئذ منه كتابة نموذج دراسة يقدّمه اليه، ويتبين منه أسلوب المتقدم، وقدرته على التدقيق والاستقصاء. وللمشرف ملء الحق والحرية الكاملة بقبول الطالب في حلقة أبحاثه، تماماً كما كانت تجري الأمور في العصور الوسطى

بأوروبا وفي معظم عصور العالم الإسلامي ، عندما كان الأستاذ أو الشيخ ، لا يكتفي بعقد الحلقات ، بل كان يمنح أيضاً الشهادات الجامعية أو يجيز طلابه في تسنّم منابر التعليم العالي.

نعرف أن هناك فروقاً فاضحة وتفاوتاً بيّناً في مستويات المتقدمين ومكتسباتهم ، وأننا نفاضل ، لأسباب أصبحت معروفة ، بين طالبين متقدمين، أحدهما من جامعة أجنبية والثاني من جامعة وطنية ، وتكون المفاضلة لصالح الجامعة الأجنبية ، كما نفاضل بين طالبين متقدمين كليهما من جامعة وطنية ، أحدهما من قسم اللغة العربية وآدابها ، وثانيهما من قسم اللغة الأجنبية وآدابها ، وتكون المفاضلة اليوم لقسم اللغة العربية وآدابها ، نظراً لتدني مستوى اللغات الأجنبية.

نتخلّى عن المتقدم الذي أدخلناه في حلقات بحوثنا ، حين نلمس أنه ما أُعدّ لهذه المهمة ، وأن خلفياته الفكرية ضعيفة ، وأنه لا يشكل تلك النخبة المختارة الجديرة باهتمامنا. ونساعد الباحث المجدّ ونوجّهه نحو الأفضل ، ونتوسّم فيه قدرته على القيام بمغامرة البحث وقطع طريق محفوف بالأخطار ، ونرى أنه يصلح في أن يكون بطليعة العاملين المخلصين الذين أُنيط بهم أمر تطوير الدراسات اللغوية والأدبية وتركيزها على أسس علمية ، وأنه قادر على أن يمسك بزمام البحث ومتابعته ، متخطياً الصعاب ومخلصاً لخدمة العلم ، والعلم هو شيء من الدين.

ونحن معشر الأساتذة المشرفين، نتقبل جميع الدراسات، مهما تعددت مناحيها وتنوعت منهجياتها، ونوافق على الإشراف على باحثين يختلفون في خلفياتهم الفكرية وفي نزعاتهم العلمية، ونرى أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالجهود الطيبة التي تتبلور في السعي الحثيث الذي يبذله الطالب أو الباحث، لبلوغ درجة الاجتهاد التام، وهو حسب قول أبي حامد الغزالي: «أن يبذل (المرء) الوسع في الطلب، بحيث يحسّ من نفسه بالعجز عن مزيد الطلب». ولا يرتبط سموّ موضوع البحث بنوعيته، بل السمو منوط بسعي الباحث وباجتهاده.

البحث الانتاج: إننا نعيش في قرن، يحثنا كل ما يحيط بنا على اتباع طرائق جديدة في البحث، وعلى التقيّد بالمنهجيات الحديثة في الدراسة. ونعتمد، في عملنا التجديدي، مجموعة من الإرشادات هي بمثابة كتالوكات الأزياء وجورنالات الموضة التي تطالعها السيدة، قبل أن تفصل ثوبها، ونعتبرها نحن جزءاً من عدة الباحث التنظيرية، ونتبين منها كيف يجب علينا أن نقوم بالعمل التحضيري، وما هي الخطوات الصائبة التي يجب أن نقوم بها لتصنيع البحث. كما أنها ترشدنا إلى مستجدّات أو موضات أو «صرعات» عصرنا الحديث، وتطلعنا بالتفصيل عما يجب فعله، وتتحفنا بقواعد علمية ثابتة ومنهجيات متطورة تجعل من البحث علماً بأصول.

ونؤكد على أهمية اطلاعنا على هذا النوع من التنظير والإرشاد

اللذين سينقلان الباحث من حقل العمل التنظيري الى حقل العمل التطبيقي ، واللذين يسهمان في إلباس بحوثنا حلة قشيبة ، يتقبلها المحدثون. ولئلا نباشر ببحثنا ،ويخامرنا إحساس لا شعوري بأننا نفتقر الى منهجيات الدراسة الأصولية ، نستجلي تصورنا الأولي لدراستنا بواسطة هذا النوع من الكتالوكات. وقد وضع بعضها باللغات الأجنبية ثم نقلت الى اللغة العربية ، وقد وضع بعضها الآخر مباشرة باللغة العربية ، ونستعين أيضاً بعلم الانتقاد ، وهو علم موصل ومساعد يرفد الجزء الأكبر من البحث الحديث الذي يُعدّ على حق ، من مقالات النقد.

* **في الكتالوكات المترجمة** : دوّن الغربيون الطرائق والمنهجيات والأصول التي يتبعونها في بحوثهم ، وسجّلوها في مؤلفات عديدة ، تسوق التوصيات والإرشادات القيّمة. ولا شك في أننا بأشد الحاجة الى مطالعة هذه المراجع الأجنبية الموثوق بها ، والتي تحدد مجموعة من القوانين والمفاهيم التي يتقيّد بها الباحث. ولا شك في أن هذه الكتالوكات جزيلة الفائدة ، وهي تبين مدى الجهود التي بذلها أصحابها في عملهم ، وقد يطلع عليها طلاب أقسام اللغات الأجنبية بنصوصها الأصلية ، ويلتقطون منها معلوماتهم المنهجية. وبما أن بعضنا لا يتقن اللغات الأجنبية ، ويجهل طرائق البحث الحديث ، قام المترجمون بنقل المناهج المعمول بها في الغرب الى العالم العربي ، لكي يتسنى لمن يجهل اللغات الأجنبية الوقوف عليها.

قام المترجمون بعملهم هذا ، تحدوهم رغبة صادقة بالفوز بثروة

كامنة وبرصيد دفين، وقد آلوا على أنفسهم نشرهما على الملأ، لكي يعرفا الرواج اللائق بهما. وكان لهم الفضل في مراقبة ما وصل اليه العالم المتحضر، واليد الطولى في الدعوة الى الخروج على القديم وتقبل حركة التجديد. وما كانت الغاية من ترجمة هذه الكتالوكات إلا توطيد أركان البحوث العربية واطلاع الدارسين في العالم العربي على المنهجيات الحديثة وما فيها من مفيد وجديد. وقد رأينا من الضروري تثبيت عناوين بعضها:

— **مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي** — ترجمة د. أنيس فريحة — بيروت.

— **فن البحث العلمي** — تأليف د. أ. ب. بفردج — ترجمة زكريا فهمي.

....

** **في الكتالوكات العربية**: خصّص عدد من الباحثين العرب المعاصرين دراسات لعلم البحث، تبين، من ناحية أولى، حالة العلوم والآداب في وضعها الراهن، وتزودنا، من ناحية ثانية، بالإرشادات اللازمة لكتابة بحوثنا. وعلى من يودّ أن يلمّ بهذا اللون من الإنتاج والإرشاد أن يعود، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، الى المؤلفات الآتية:

— **مناهج البحث عند مفكري الاسلام**، دكتور علي سامي النشار، طبعة الاسكندرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٥.

— **المنطق الحديث ومناهج البحث**، دكتور محمود قاسم، المطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٦.

— **مناهج البحث العلمي**، دكتور عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، طبعة القاهرة، ١٩٦٣.

— **البحث العلمي في العالم العربي**، شارل مالك وغيره، بيروت لامط، هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأميركية، ١٩٥٦.

— **كيف تكتب بحثاً أو رسالةً**، أحمد شلبي، مكتبة النهضة بالقاهرة، ١٩٦٦.

— **منهج البحوث العلمية للطلاب الجامعيين**، ثريّا ملحس، بيروت، ١٩٧٣.

....

*** **في علم الانتقاد**: تعتمد البحوث معايير النقد المعاصر الذي يتيح لنا ولوج الحلقات الجامعية المتعطشة الى التحديث والتجديد. ومعلوم ما لمردود النقد المعاصر من فوائد جمة، نلحظ إسقاطاتها في البحث القيّم. ومعلوم أن الباحث الذي مارس النقد والانتقاد، في مستوى الجامعة، لم ينل منه مأربه ولم يتمكن منه، وما حصل منه لا يشكل إلا بدايات جنينية يستكملها الباحث مدى حياته. ولذا على الدارس مطالعة كتب النقد والدراسات المتقدمة

المخصصة لعلم الانتقاد التي ترصد، في هذا المضمار، حركة التجديد بخطواتها المتعثرة ثم بسيرها الحثيث نحو الحديث والجديد:

— **الدراسة الأدبية**، رئيف خوري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٤٥.

— **جدد وقدماء**، مارون عبود، بيروت، ١٩٥٤.

— **أصول النقد الأدبي**، أحمد الشايب، الطبعة الرابعة، مصر، ١٩٥٧.

— **أسس النقد الأدبي**، أحمد بدوي طبانة، الطبعة الثالثة، مصر، ١٩٦٤.

— **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، إحسان عبّاس، بيروت، ١٩٧١.

— **النقد الأدبي الحديث**، محمد غنيمي هلال، بيروت.

— **مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي (عرض، نقد واقتراح)**، شكري فيصل، بيروت، ١٩٧٨.

— **مصطلح الأدب الانتقادي المعاصر**، ريمون طحّان ودنيز طحّان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣— ١٩٨٤.

الفصل الرابع

النص الأصل والمقاربات — المطارحات

يقولون إن البحث يبتغي الحقيقة المجردة ، وانه يقصد إزالة ما علق بأهدابها من زيف ، وكشفها بنقائها وصفائها . ويقولون أيضاً ان البحث عن الحقيقة العلمية مطلوب ومرغوب فيه ، وان البحث عن الحقيقة العلمية يضبط مسلك من يفتش عنها ، ويجعله يحترز من الخطأ ، ويبتعد عن الضلال ، ويَخْرُج من الشك ، ويتوجه نحو الصواب ، ويصل إلى ثلج اليقين.

وطالما أن الحقيقة العلمية موجودة ، فلا خلاف يدور حول وجودها ، وتكون منطلقات الباحث سليمة ، لأنه لا يتابع أموراً متوهمة أو معدومة ، بل يعوّل على بعض صفات وخصائص الحقيقة العلمية ، ليصل إلى كشف شيء منها . وقد يدور الخلاف حول طرق كشف الحقيقة ، وينظر البعض في ما قام به السلف ، ويتحقق من صوابه ، ويقف عنده ، ويقبل به ... ويسعى البعض

الآخر إلى إماطة اللثام عما غمض في الحقيقة العلمية، ويتوخى فضح مناحي ما خفي منها، وإظهار أمر جديد يُزاد على صفاتها وخصائصها، وقد تلعب هذه الزيادة دوراً مساعداً وإيجابياً، إذ تتولى كشف ما أهمل من نواحيها، أو ما قلت العناية به، أو تؤمن شيئاً من الوضوح لما غمض...

ولما كان البحث يهدف استجلاء شيء من الحقيقة العلمية، لا الحقيقة العلمية الكاملة— ومن المعلوم أن الحقيقة العلمية هي بالفعل غنية إلى ما لا نهاية— علينا أن نقنع أننا لا نستطيع في بحث واحد أو في جميع بحوثنا استنفاد العلم، نظراً لقوانا الانسانية المحدودة. وبالرغم من عجزنا، نريد أن نوغل في طريق التفتيش، لا سيما أننا نعيش في عصر مشبع بالموضوعية، ومتوافرة فيه الوسائل المادية المساعدة، فنتسلح بتقنيات حديثة، نواجه بها صعوبات البحث، ونتأهب للتنقيب، ونسعى الى التفتيش عن الحقيقة.

ونقضي حياتنا، ونحن نبحث عن نظرية معاصرة قد توصلنا إلى شيء من الحقيقة، وقد أكَّد عصرنا على ضرورة التماس النص الأصل الذي يتأثر بشروحات واجتهادات متأصلة في تجربتنا الفردية، ومتجذرة في ميل فكرنا. وليس من المهم أن يجمع أحدهم مثلاً من مواد معينة أدلة على محاولته كشف حقيقة علمية، وقد يكون بمقدور باحث آخر أن يجمع بالطريقة عينها أدلة تتناقض في نتائجها وما توصل غيره اليه، فالمهم خلفية صاحب البحث الفكرية التي تتسلح بالموضوعية وبقوى داخلية، تختلف باختلاف

الأفراد ، وتسعى إلى أن تذلل صعوبات الكشف والى أن تصل إلى الحل ، ونسمي هذه الخلفية المقاربة أو المطارحة التي تتوسل اليوم النص الأصل.

النص الأصل : يقولون بخصوص التاريخ ، إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها ، وإذا لم يلتمس المؤرخ الأصول ، حاد عن جادة الصواب ، ونقول ، بخصوص اللغة والأدب ، إذا لم نلجأ إلى النص الأصل والمدونة المغلقة ، دخلنا في متاهات تنأى بنا عن البحث الحديث. وتعتبر المادة الأصل أساساً ثابتاً للبحث ، ولها حق الأولوية ، إذ تمثل تلك المعاناة الحقّة التي توضعت فيها جهود اللغوي الأديب أو الشاعر. وتتحول المادة الأصل، في البحث الحديث، الى مدونة مغلقة تتألف من إنتاج أصيل، ونضمن مثلاً المدونة عينات من الشعر الحديث ، تمثل خير تمثيل القصيدة العربية بواقعها ، أو ندرج فيها مؤلفات لغوي معروف...

البحث الحديث بحث نصوصي ، يبدأ بالنص الأصل وينتهي به. والبحث الحديث يعتمد منهج تحليل المدونة تحليلاً معرفياً. ونباشر بتحديد المدونة المغلقة بوضوح ، ونلتمسها بهدف تعميق فهمها ، واستنطاقها استنطاقاً علمياً. ونعني بالتحليل المعرفي استقراء المدونة المغلقة أو النص الأصل ، والتعرف على المبادئ التي تتحكم ببنيته ، ووصف معالمه ومقوماته ، بإخضاعه لعلوم موضوعية ، وتحليله لاستنتاج نقاطه الإيجابية والهامة ، ولاستنباط خصائصه المميزة. إن التحليل المعرفي يحدد وجهة البحث الصحيحة ، ومن

يعالج المدونة المغلقة ، وتحركه هموم بعيدة عن حقل التحليل النصوصي المعرفي أو خارجة عن نطاقه ، يطرح أسئلة تلوح في الأفق البعيد ، فيسعى وراء سراب ، ويقوم بتحليل خارجي ، قيمته محدودة .

لا شك في أنه لا يمكننا أن نفسر النص الأصل إلا بعد أن نتعرف على ما يحيط به من ظروف ومن ملابسات ، ولا شك في أن الأثر اللغوي أو الأدبي يعبّر ، بصورة غير مباشرة ، عن أحداث خارجية كالأسباب الظرفية الاجتماعية والأطر التاريخية الجغرافية وظروف المنتج الحياتية ، ولكن التحليل المعرفي يتحرر من أطر الزمان والمكان وينعتق من تفسيرات مدينة لأشياء عابرة ، ولخيارات مهزوزة ، ولتفسيرات تتعارض وشروحاً أخرى ، وتؤدي إلى تحاليل مترجرجة ، والى مواقف اعتباطية ، وإلى أهواء ونزوات وليدة الساعة .

قد يربط المفسر المدونة بالمواقف الحياتية والظروف المعاشية ، ويقرنها بحياة الكاتب أو بعدة تاريخ الأدب . لا شك في أن هذه العدة الخارجية تؤلف مرحلة من مراحل تاريخ الكشف ، وانها تسعى الى تحري الأسباب والأغراض التي تتدخل في العمل اللغوي والصنيع الأدبي ، ولكنها لا تستطيع أن تكشف الأسباب الداخلية والأعراض التي تشكل مقومات الرائعة الأدبية أو الصنيع اللغوي . وقد يتذرع المفسر بسلاح التحليل الخارجي الميكانيكي ، وبمقاييس عفّى عنها الزمن ، كالذوق ووحدة الموضوع وضروب الأدب

وأنماطه ، وبقواعد حكم العقل والطبيعة ، وبمبادئ تاريخ الأدب ، ويلوذ بالشروط المحيطة بالنص الأصل (المناسبة ، الوسط الاجتماعي والتاريخي ، البيئة الجغرافية . . .) . أو قد يُخضع المفسر المدونة لتأثراته ، ويعود إلى صورة يكونها لنفسه عن صاحب نصه أو مدونته ، والى خاطرة راودت مخيلته ، ولذكرى داعبت خياله ، ولمعطيات آنية ظرفية تنبع من ذاتيته . ولا نعثر حينئذ في التفسير إلا على طريقة تفكير الدارس بالمادة الأصل ، وقد نتعرف بواسطتها ، في أحسن الأحوال ، على المواقف الخاصة التي تبناها غيرنا من الدارسين ، تجاه المدونة .

وعلينا أن نعلم أن الحقائق الهامة والمتحكمة بالنص الأصل هي ضامرة فيه ، وعلينا أن نقطع العلاقات التي تشده إلى اعتبارات ، لا قيمة لها ، وأن نفك ارتباطه بالتفاصيل التي تتعلق بحياة الكاتب وبيئته ومحيطه ، وأن نعزف عن التحليل الإيحائي ، وأن نتمسك بالموضوعية وبالتحليل النصوصي المعرفي الذي يقصي عن النص الأصل ما ليس منه ، ويبلور ما هو منه بصيغة علمية ، ويربط شتاته الفرضية ، ويسبر أغواره ، ويصل إلى قاعه .

إن الذين أوصوا بالعودة إلى النص الأصل هم كثر ، وقد بيّنوا بأقوالهم المأثورة ، التي ننقل بعضها عن كبار منظري دراسة النصوص الأجانب ، المراحل التي اجتازتها تلك القضية الهامة :

— النص الأصل كائن مستقل ، قابل للتحليل والاستنطاق (Blinkberger)

— على الدراسات الأدبية أن تهتم بالآثار فقط
(Wellek et Warren)

— لا نحسب إلا حساب الأثر والنص (Blanchot)

— نضع الأثر في وسط مشاغلنا (Todorov)

— علينا أن نقيم علاقة بيننا وبين الأثر بالذات (Poulet)

— علينا أن نتفهم الأثر بواقعه وبحاضره (Roger)

— النص هو موضوع علمي ، وموضوع وحيد ، جدير باهتمامنا
(Kristeva)

— علينا أن نتعامل مع الآثار الفريدة ومع ما فيها من واقع شكلي (Rousset)

— يهدف التحليل الأدبي إلى معالجة بنية الأثر أو المؤلف أو النص على أنه وحدة قائمة بذاتها (Foucault)

* ومسألة دراسة النص الأصل ، ومعالجته بالتحليل المعرفي والنقد الداخلي قضية شائكة ، وهي لم توجه حتى الآن الوجهة الصحيحة ، وبخاصة في العالم العربي . إن النص الأصل هو الوحيد الذي يتيح لنا البحث عن حقيقة ، أدلتها حاضرة فيها ، وواقعها ماثل في ذاتها ، لا عن أشياء غائبة عنها . ولا يكفي لمعالجة المدونة المغلقة أن نعرفها معرفة سطحية ، وأن نتحسسها بشكل غامض أو إيحائي ، بل علينا أن نرى فيها شكلاً من أشكال عالم الأشياء الحسيّة

التي تخضع للدراسة العلمية وللتحليل المعرفي. وهذا النوع من البحث أصبح في مرحلة ما قبل الدراسات العليا من صميم التعليم الأكاديمي، وقد احتل مكانة مرموقة في الممارسات والنشاطات الجامعية، حتى أنه اجتاح الحيّز الذي كان مخصصاً لما يُسمى تاريخ الأدب، وحياة صاحب النص، والمشكلات الاجتماعية والسيكولوجية الخارجية...

ولا يجوز اليوم للباحث أن يسترسل في شرح شروط النص الأصل المحيطة والخارجية، وأن يتخذ له مواقف اعتباطية، تبعده عن الموضوعية، وقد تؤدي إلى أحكام لا سند داخلي لها، فتكون عرضة لخيارات الدارسين غير الواعية ولأذواق الباحثين المزاجية. وقد دأب المحدثون على انتهاج طرائق جديدة في تحليل النص الأصل وفهمه، متوسلين النقد الداخلي، والتحليل النصوصي المعرفي الذي يستنطق ويستجوب وينظر في المحتوى، ويتعمق في فهم العناصر المكونة، ويحللها إلى أجزائها، ويبين أسسها البنيانية. إن التماس النصوص الأصل واستنطاقها يؤلفان إذاً المنطلق الوحيد للدراسة الرصينة، ولكل تحليل رزين، ولكل تفسير علمي مقنع، وأن البحث في النصوص الأصيلة والصنيع الفريد والعمل اللغوي العلمي، وكشف قوانين هيكليات الآثار المذكورة ودقائق بناها، ورصد ميزاتها هي أمور تؤدي إلى تصنيفها تصنيفاً صارماً، وإلى استخلاص أنظمة، تساعدنا على كشف شيء من حقيقة علمية، تمهد الطريق لمن يئسوا من إيجاد حلّ لبحثهم. ويحق حينئذ للباحث

أن يأخذ بالتحليل النصوصي المعرفي ، لما له من ميزات ومن خصائص علمية ، وأن يَعْزِف عن التعقيبات والاستطرادات والتواريخ الطبيعية والقضايا الخارجية العديمة القيمة .

المقاربات — المطارحات : نظراً للاتناهي فهم النص الأصل ، إننا نتصدّى له بواسطة المقاربة — المطارحة . ويألف العقل البشري المقاربة (approche) وهي طريقة عيش ، يميل إليها الانسان بعطف خاص ، ونمط حياة نابع من طبيعته . ويظهر هذا الميل ، وكأنه دفق ينطلق من أعماق النفس ، ويجعلنا نواجه شؤون الحياة والعمل والعلم ، بحدب خاص ، يشبه حدب الآباء على الأبناء . وتختلف المطارحة (problématique) بعض الشيء عن المقاربة ، إذ تتألف من قيود علمية مقبولة ومتعارف عليها ، ومن مجموعة من الخطط الفكرية التي توجّه البحث والتي تسيّر النص الأصل ، والتي تساعد في فهم عناصر النص وتحليلها إلى أجزائها وإعادة تركيبها . وإذا بدا للباحث أن المطارحة التي أخذ بها لا تصلح للبناء الذي يريد أن يقيمه عليها ، نقضها ، وبحث في المطارحات المتعددة الممكنة عن مطارحة بديلة ، يقيم عليها الأسس الثابتة والهيكلية المتماسكة والعمارة المتينة .

ويميل الباحث الى المقاربة ويطمئن اليها ، وكأنها من طبيعته ومن غريزته ، وكأنها لا شعورية . ويأخذ بالمطارحة التي تزوده بأنماط علمية وبنماذج جديدة يفذلك بها النص الأصل ، وكأنها من العلم المكتسب ، وكأنها واعية . وتصبح المقاربة والمطارحة كلتاهما

طبيعة ثانية للباحث، وخلفية لفكره، وتقيمان صلة حتمية ووثيقة بين البحث والباحث، الذي يعيش موضوعه من الداخل، ويسلط عليه الضوء من خلال منظار معيّن. وما يجب أن نعترف به هو أن مفعول المقاربة والمطارحة متماثل، ولذا نعتبرهما عملياً أداة واحدة، ولا مانع من أن تحلّ إحداهما محل الأخرى. والمقاربة — المطارحة تنبع من ذاتيتنا، وتسيطر على الموضوع، وتوجهه وتوجهنا، وتحدد مسلكنا، وتصبح الكل بالكل، وهي التي تؤلف العرض التوحيدي الذي يجعل البحث متماسكاً، فلا نبنيه على خاطرة عابرة، تشعل ناراً من الهشيم، لا تلبث أن تخبو، بل تبث فيه حرارة مستمرة، تدفئ الحقيقة، وتمدّها بشيء من اللهب والإشراق.

إن جميع المقاربات والمطارحات مقبولة، وان لكل واحدة منها نفعاً محققاً، يتلاءم وجوهر البحث، وكل من يتسلح بواحدة منها يعتمد على ركيزة فكرية، تجعله يمضي في عمله واثقاً من نفسه. ومن الطبيعي أن يزداد عدد المقاربات — المطارحات، بدون أن تلغي أية منها ما تقدّمها، وقد يندثر بعضها، ويحفظه التاريخ في سجله للذكرى والعبرة. وقد يتجدّد بعضها الآخر أو يبعث بأشكال تختلف عن صورها القديمة مع احتفاظها ببعض الثوابت التي لا تنال منها الانقلابات المتسارعة. وقد يولّد خط التاريخ مقاربات جديدة ومطارحات حديثة... والمقاربات — المطارحات طبقات متتالية من ميول غريزية ومن محاولات علمية يخلف بعضها بعضاً.

يشعر العاملون في حقول البحث بحاجة ملحة الى المقاربة أو إلى

المطارحة التي تسد فراغاً علمياً هاماً، ومن يتفحّص طبيعة المقاربة يجد أن الباحث قد يأخذ بأحدث المقاربات أو قد لا يزال يتشبث بالمقاربات التقليدية، والهام في الأمر أن البحث بمقاربته اعتباراً من صفحته الأولى، وأن المقاربة تؤلف أساساً يبني عليها الباحث نظرية، ويكوّن منها جملة عصبية واحدة. ومن المقاربات — المطارحات على سبيل المثال لا على سبيل الحصر:

١ — المقاربة التاريخية.

٢ — المقاربة الوصفية.

٣ — المقاربة المواضيعية.

٤ — المقاربة المقارنة.

٥ — المقاربة البنيانية.

٦ — المقاربة الصناعية.

٧ — المقاربة التكميمية الإحصائية.

٨ — المقاربات الأخرى.

١ — **المقاربة التاريخية**: لا شك في أن التاريخ يفيد في معرفة الشيء، ولا شك في أن المقاربة التاريخية ليست ببعيدة عن فكر المرء والقارئ والباحث. ويسلك غالباً المقاربة التاريخية الباحث المتمرن في مطلع حياته الجامعية، ويعدّها دعامة كبرى في تركيز الموضوع، فالتمسك بخط التاريخ والتدرج عليه واجتياز محطاته بانتظام، عوامل تزيل الاضطراب، كما أن التمسك بخط التاريخ

يعتبر على تواضع ظاهره دعامة كبرى في ترتيب عناصر الموضوع وتنسيقها. وقد أجمعت الآراء، بعد اختبار طويل، على أفضلية الترتيب التأريخي والتقيّد بالتسلسل الزمني.

ومن المقاربات التاريخية الراكدة (statiques) المقاربة العادية المبتذلة والمقاربة التاريخوية (historiciste, historisante) ومقاربة حتمية التاريخ. (le déterminisme)

وتتناول المقاربة المبتذلة النص الأصل على أنه نتاج فترة تاريخية معينة، فيفتش فيه الدارس المؤرخ عن إسقاطات تلك الفترة التاريخية، وينقّب في سطح معيّن، مدعياً أنه يصعب عليه فهم الآثار اللغوية والأدبية، بصرف النظر عن أصولها التاريخية وجذورها القديمة، ويقوم بمسح سطحي، يطول عدداً معيناً من القضايا الجزئية التي تتعلق ببعض الأعلام والأئمة أو ببعض الوقائع اللغوية والأدبية، ويبلور مادة بحثه بمواصفات بدائية، وكأنها معادلة رياضية من الدرجة الأولى.

لا شك في أن علاقة ذات طرف واحد تربط النص الأصل بمجموعة النصوص التي أنتجتها فترة زمنية معينة، وأننا تعودنا على أن نضم الأثر الى الفترة الزمنية التي أُنتج فيها، وعلى أن نجعله ملكاً شرعياً ونهائياً لها، ولا شك في أننا نقرن النص بتاريخ معيّن، فيصطبغ بلون معظم آثار تلك الفترة التاريخية. وقد نميل الى اعتبار آثار فترة معينة كمجموعة واحدة، فنجنح ونأخذ بالمقاربة

التاريخوية ، وننزلق الى ضم هذا التراكم العجيب من الآثار والأشتات المجتمعات والشروح والتفاسير والتعليقات ، في وحدة تسرف في التنقيب والتفتيش.

وتستعين **المقاربة التاريخوية** بعدة توثيقية تقميشية ثقيلة ، تتألف من آثار وأحداث ووثائق وشروط ، ويقع الذي يأخذ بهذه المقاربة في شرك التطويل والإسهاب والاستطراد ، وقد يلجأ إلى إقحام أشياء عامة وبديهية ، وقد يعدها من المقومات الضرورية ، وقد يستل الاقتباسات الطويلة من متونها ، ويرزح تحت وزر السرد المملّ ، ويدخل القارئ في دهاليز الشروح المجتزأة والتفسير التقريبي والتلخيص الجانبي ، ويشركه في عملية تفريغ الجزازات الجاهزة والدواليب المتعاقبة والجوارير القلاّبة ، وينوء الباحث وننوء معه تحت عدة توثيقية تثقل كاهلنا. والمقاربة الحتمية ليست ببعيدة عن المقاربة التاريخوية ، وهي تفلسف ، كما سنراه ، بعض عوامل التاريخ والبيئة.

وتنطلق **المقاربة الحتمية** ، وقد صنعها الفرنسي (Taine) وأثبتها في مؤلفه **تاريخ الأدب الانكليزي** ، من مقولة تبيّن أن الأدب يرضخ لثلاثة عناصر (العرق والبيئة والزمن). وأمّا العرق ، فيُقصد به مجموعة الاستعدادات الفطرية التي يرثها المرء ، بواسطة الدم ، مع جميع أفراد عرقه ، وإذا درسنا عرقاً وجدنا فيه خصائص معينة تطبع بطابعها آثاره العقلية والفلسفية والأدبية ، مهما اختلفت أوساط العرق الواحد ، وتنوعت نظم الحكم ، وتباينت المدنيات.

وتعتبر الحتمية أن العرق هو أقوى العوامل الثلاثة التي تحدد تماثل الإنتاج الفكري. وأما البيئة فهي مجموعة الأحوال التي يخضع لها العرق، ومن هذه الأحوال ما هو دائم وثابت كحالة الإقليم والمناخ، ومنها ما هو متغيّر مثل حركة الفكر والفن والاختراعات. وأما الزمن فالمقصود به هو أن لكل عصر أحداثه الخاصة وظروفه التي تؤثر في إنتاج الأدباء الذين يُعتبرون مرآة عصرهم، مهما اختلف أدبهم، وتنوّعت ثمار قرائحهم. ومعنى هذا أن الأديب ثمرة حتمية لهذه القوانين الثلاثة، وكما أن الطبيعة لا تعرف القوانين الفردية، كذلك تحكم الأديب قوانين عامة، ملزمة.

تعمل قوانين (Taine) الثلاثة عملها على شكل حتمي، في كل عرق من الأعراق، ويستمد منها الأديب مقوماته، وهو لا يستطيع أن يتخلص من قبضتها، لأنه فرد من أبناء قومه، يخضع للمؤثرات التي تعمل فيهم. وأخذت الدراسات، تتأثر بالحتمية، وتضخم دور الكاتب، وتعدّه من صنّاع التاريخ ومن محاوره الأساسية.

وقد نتساهل مع هذا التضخيم الذي يتبعه البعض في كتابة السيرة والترجمة، ولكن إحلال الأديب في منزلة صانع التاريخ واعتباره من محاور البيئة ومن أركان الزمن مغالطة تأتي نتيجة للقول المأثور: لكل زمن رجاله. وقد يصلح القول في دراسة الروّاد والملوك والحكّام والسياسيين والقوّاد والعظماء...

ويجوز ربط صاحب اللغة أو الأدب بالبيئة، ومن الواضح أن

لكل بيئة طابعاً خاصاً. وقد يشترك المنتج مع أقرانه في الخضوع لقوانين البيئة، فهو يشترك فعلاً معهم بالكفاءة اللغوية، ولكنه يختلف عنهم على الأقل بتصرفه باللغة وبالتالي بصناعة الكتابة. ولا تصح المقاربة التي تحاول دراسة البيئة السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والفكرية والعلمية والتي تركز على علاقات واهية كالصحافة والإذاعة والتعليم والمكتبات ودور النشر وأسواق الورّاقين، أو تضيف اليها الوسط الجغرافي، والتي تعتبر إمام الأدب وشيخ اللغة إسقاطات مباشرة تثبت صيرورة المنتج. ولا يصح في الانسان مبدأ تحكم الوسط الجغرافي في نشوء الشجرة التي هي نتاج بيئتها، وفي الثمرة التي هي نتاج شجرتها، فالعبقرية خروج على قيود العرق وانفلات من أطر البيئة والزمن، والأديب الكبير ظاهرة فردية، والإمام اللغوي ظاهرة فريدة في نوعها. والمقاربة التي تتوخى وضع لوحات عن الحالة السياسية والاجتماعية والفكرية ووضع ثبوت وكشوف عن تاريخ الفتوحات والسلالات التي تعاقبت على حكم البلد تقع في درج الدراسات التاريخية لا الأبحاث اللغوية الأدبية، وقد تتحول حينئذ المقاربة من مقاربة راكدة الى مقاربة خاطئة وبعيدة عن موضوعية البحث اللغوي والأدبي.

ومن المقاربات التاريخية المتحركة والديناميكية المقاربة التاريخية التعاقبية والمقاربة المرجعية المقبولة في شؤون الدين ورصيفتها المقاربة الاجتهادية المقبولة في شؤون الدنيا، وثلاثتها ترقى بالبحث الى حلّ معادلة من الدرجة الثانية، وتعلل مقاييس بنيته وجوهر وجوده.

تدرج **المقاربة التاريخية المتحركة** النص الأصل في خط التعاقب وفي تركيبة تراعي إفرازات التأريخ ، وتستمد حينئذ النصوص الأصول قوتها من أبعاد مكانية زمانية متحولة ، مما يجعل البحث يتغيّر ويتجدّد دوماً مع الحياة . ويتلون الإنتاج القديم والحديث على حدّ سواء ، بلون عصرنا ، ونتوسل قوانين ومبادئ ، تحثنا على تفحص كل إنتاج ، بموجب المعايير السائدة في يومنا هذا ، ونُثبت عناصر الموضوع جميعها في كليات منهجية وفي نظريات حديثة ، تبين نشوء الموضوع وتسلسله على خط التعاقب ، مع إمكانية تجمع ما تشتت من عناصره ، في وحدة تتجدد ، وفق الزمن المتحول ، وواقع تطور العلم الصحيح . ويجري الموضوع التراثي مثلاً في حركة ديناميكية ، ويتعرف أثناء سيره على فنون الأدب ومواضيعه وقضاياه ، بكل أشكالها وألوانها وتياراتها ، ويعطي صورة حية عن ظواهر متغيرة ومتحولة ، تعمل زاخرة بالحياة وممتلئة بالنشاط . وتحرص المقاربة التاريخية المتحركة على ألا يركد النص الأصل ، وعلى ألا يرتهن لفترة زمنية معينة ، بل تسعى إلى أن يساير النص عصرنا ، وتضفي عليه روح الحداثة الصالحة لأن نقيس وقعه فينا وفي معاصرينا . ومن المعلوم أن النص الأصل لا يحتفظ بمعناه الأساسي ومغزاه العام إلا بفعل دلالته الثابتة المرتبطة ، من ناحية أولى ، بخط التعاصر ، وبفعل دلالته على خط التعاقب واستمراريتها ، من ناحية ثانية ، مع ما يقع فيها من التحوير ، وكلها تنتقل مع إفرازاتها الى نظام دلالي قائم حالياً .

تتمسك **المقاربة المرجعية** بمبدأ أن ما سبق أن قيل من الحق في شؤون الدين والعقيدة والإيمان انه حق لا مراء فيه ، ويظل أبداً كذلك ، إذ يشكل إرثاً أصيلاً من حقائق دامغة مركوزة في النفوس والطباع. والحق يظل حقاً ، وخاصة إذا أخبر به شاهد عدل كالرسول وصحبه والعلماء المعروفين والفقهاء البارزين. ويتحدد الإرث الديني المعرفي بما سبق وأخبر عن الحق كحديث النبي الذي تعامل معه السلف الصالح ، بواسطة حلقات الإسناد وبالمصادر الشفهية والمكتوبة التي عوَّل عليها الثقات الذين يتعلقون بالصدق ويتشبثون بالعدل . وتلجأ المقاربة المرجعية أولاً إلى التفسير للكشف عن باطن الحق في ظاهر ما تواتر عن الثقات وعن الأخبار التي نقلت عنهم ، وتستعين ثانياً بالتأويل الذي يوضح ويكمل بواسطة الحجاج العقلي والمنطقي ما غمض من حق ، يجب أن يظهر وأن يذهق الباطل. ويقلب التفسير والتأويل كلاهما وجوه الحقيقة ، للوصول الى الرأي المناسب ، الموحّد غالباً ضمن مجموعة الإرث الديني المعرفي الذي يعدّ أصلاً يُبنى عليه ومرجعاً يؤخذ به .

وأما في الشؤون غير الدينية وفي العلوم الدنيوية ، فالقصد من وجوب العودة الى النص الأصل نفض الغبار عن المستمسكات وعدم الأخذ بحرفية ظاهرها ، وتخليصها من يد الشرّاح والمقررين والمفسرين والمعلقين، وبخاصة المتأخرين منهم ، الذين شغلوا بالجدل والحجاج الفارغ ، والذين اكتفوا بالشروحات النافلة والتعليقات السطحية والخاطئة .

إن التمسك بمبدأ **المقاربة الاجتهادية** هو رفض تأويلات المقاربات التاريخية ومناهجها ومساريها ، مما يقتضي الاجتهاد ، لإعادة اكتشاف الحقيقة . وإذا تساوقت النصوص الأصول ، دون أي فراغ ، صحَّ تحليل المسألة من مرحلة نشوئها وارتقائها وازدهارها ونضجها ، ثم جمودها وذبولها واندثارها أو انبعاثها من جديد وتحديثها ، مع ذكر أسباب الجمود والنضج والبلوغ والتطور والذبول ... ولا مانع من الإفادة من تجارب الدارسين السابقين ومن ممارساتهم . وقد يقع فراغ أو فجوة في تماسك النصوص الأصول ، ويتكشف لنا حينئذ خلاف فكري واضح بين مقاربات علوم الطبيعة وعلوم اللغة والأدب . يتلافى المجرب في العلوم الطبيعية الفجوة بإعادة المشاهدة والاختبار والروز ، ولا ينفك عن ذلك حتى يتم له ما أراد ، ويسد الثلم ، ويحصل التساوق والتماسك . أما الباحث في اللغة والأدب ، البعيد عن المشاهدة العينية ، والواقف أمام فراغ حاصل في نصوصه الأصول ، فهو يضطر لعدم تواتر النصوص الأصول في ناحية من نواحي الموضوع ، إلى أن يجتهد لسد الفجوة ، ويلتمس وقع النص الأصل في ما بعده ، ويجرده نوعاً ما ويخلصه من خط التعاصر ، ليعامله مع نصوص أخرى تلتقي معه في خط التعاقب . ونوجز مراحل الاجتهاد بما يلي :

— يدحض الاجتهاد حكم التاريخ المثقل بوزر الماضي ، ويتهمه أنه يعطل صفاء النصوص الأصول وشفاف المعنى

الأساس، ولذا يسعى إلى أن يُحرره من آراء الشارحين والدارسين. ويلتمس الاجتهاد النصوص الأساسية، ويستنطقها استنطاقاً علمياً، ويسوق بخصوصها الشروح النظرية المعقولة والتفاسير العلمية المقنعة.

— يفك المجتهد رموز النصوص الأصول، وفق خبرته بموضوعه، وبموجب نظام يحدد قراءتها بعيون جديدة، ويسعى الى فهم معنى المعنى. (the meaning of meaning)

— ينطلق المجتهد من مسلمة أو من موضوعة مآلها أن النصوص الأصول بليغة بحدّ ذاتها، وكامنة فيها طبيعة المطارحة وحدودها ومنهجها ومصطلحها ومعاييرها. وتتلبس المعايير خاصة شكل مسلمات ثابتة يبنى عليها الحكم، دون أن تكون موضع بحث، بحدّ ذاتها. إن المجتهد يتحاشى التنظير السطحي والمنطق المهلهل، ويضبط معاييره، لكي تتخطّى بشمولها ما سبقها من معايير، ولكي تتمتع بصفة الشمول وبدرجة عالية من الفعاليّة في البحث والتطبيق.

والخلاصة أننا نأخذ بالمطارحات التاريخية المتحركة الديناميكية، لأن البحث، كما فهمه الأقدمون وكما يفهمه الآن بعض المحدثين، لا يتوافق مع ما نقصده الآن، وكانت المقاربات لا تتعرض لقضية واحدة من القضايا التي تُسيّر، في نظرنا، البحث أو بالأحرى العمل الأدبي الحق.

٢ــ **المقاربة الوصفية** : تتشكل المقاربة الوصفية من ميول فكرية تغرق في التعريف والتوصيف. وقد لا تصح هذه المقاربة في اللغة والأدب، اذ توجه البحث الى وجهة الوصف المسهب، وتتناسى حصة التنظير والنقد. وقد تصح في تحقيق المخطوطات ونشرها بصورة علمية، اذ تتوزع، في التحقيق، جهود الباحث مناصفة على وصف المخطوطات الخارجي وعلى نقد النص الداخلي. ومن المعلوم أن النقد المتعمق الداخلي لا يأتي أصلاً إلا بمرحلة تلي، في سلم التدرج العلمي، مرحلة الوصف والتوصيف.

يدعون ان **الآثار الأدبية واللغوية** لا يمكن فهمها حق الفهم، الا اذا عُرفت تفاصيل سيرة منتجها، ويقومون بما يسمى بترجمة حياته، ثم ينتقلون الى توصيف أهم مؤلفاته. ولا شك في أننا نريد أن نعرف شيئاً عن حياة العَلَم وعن انتاجه جملة ولربما عن منزلة مؤلف معين في انتاجه العام، ولكننا لا نعثر إلا على أوصاف سطحية. ومن يجهل الوصف الصحيح يصعب عليه تحليل الحياة والآثار.

ويرفع البعض شعار «الوصفية الجديدة أو الوصفية الاستقرائية التركيبية» ونبحث عبثاً عن أثرها في دراستهم، ولا نعثر إلا على أوصاف هزيلة: أئمة وشيوخ معرّفة بالعودة الى كتب التراث، وصف خارجي لمؤلفاتهم أو تلخيص توصيفي سمج... ونلحظ ان الطابع الوصفي السطحي أو التسطيحي يسيطر على فكر الدارس

الذي يقوم بمسح يتناول الكثير من الأحداث التي تتعلق ببعض السيرة وبتوصيف شيء من الآثار ، وبسرد ترجمات حياة الشيوخ والأئمة والاعلام ، وبتعداد اسماء مؤلفات ومصنفات وآثار لغوية وأدبية ، فتتغلب المسحة الوصفية على حساب التنظير والنقد. وكانت هذه المقاربة الوصفية المغلوطة سائدة ، في فترة تاريخية معينة ، امتدت حتى عام ١٩٥٠ ، وفي بحوث نيل الدكتوراه بالذات.

ولئن كانت المقاربة الوصفية بمفهومها الآنف الذكر تؤدي الى وضع مصنف بمعناه المعجمي ، ويتسم كل مصنف بطابع الوصف والنقل والاسهاب والدوران بالحلقة المفرغة ، ويعقد كل مصنف الأبواب للعصر والحياة والآثار ، ويستخدم ، في عصرنا الحديث ، البضاعات القديمة التي لا تزال وثيقة الصلة بالابحاث التقليدية التي لم تتخلص من ربقة القديم ، فهناك مقاربة وصفية عتيقة ، يأخذ بها المجرّب المحنّك الذي يسيطر على مادة بحثه ، والذي لا يغرق في خضم الوصف. وقد تصبح حينئذ هذه المقاربة العتيقة في الدراسات ذات الطرف الواحد التي تقصد معالجة آراء امام لغوي فقيه أو كاتب شهير أو شاعر ذائع الصيت ، والتي تجمع الآراء وتجملها وتبوبها وتقدمها ، على شكل لوحة شبيهة بتلك التي يمسحها النظر مسحاً شاملاً ، فيحتفظ هذا بالملامح البارزة فيها والخطوط الرئيسية والخصائص والميزات ، ويعيد تركيبها في بنية كلية ، توضح بجلاء أوضاع اللغة أو الأدب أو الشعر.

يبعدنا **تحقيق المخطوطات** عن المواضيع الجميلة ، ويخضعنا لتمرين وصفي شاق ولعمل نقدي صعب ، فنخفض للحق جناح الذل والطاعة . وكلنا يقرأ المخطوطات ويعود اليها ، ولكن القليل يقوم بتحقيق بعضها ، نظراً لما يحتاج هذا الموضوع من مران ودراية وخبرة طويلة وروح مثابرة ، تدقق وتصف وتشرح وتعلل وتفند وتفذلك . . .

هناك أكثر من ثلاثة ملايين مخطوطة عربية ، لا يزال معظمها مجهول المحتوى والمضمون ولم ينشر بعد . أمن المعقول أن يبقى هذا الجزء الكبير من التراث قابعاً في زوايا المكتبات العالمية والعربية ، نائماً في الكهوف ، وقد تبلورت فيه ، وبواسطة اللغة العربية ، حضارة كاملة ، لها تاريخها المجيد وجغرافيتها وفقهها الديني واللغوي وأدبها وعلم اجتماعها وجوانبها العلمية والتقنية !

لا شك في أن المسؤولية الجسيمة تقع على كاهلنا جميعاً ، وعلينا أن نصون أولاً المخطوطات وروائع التراث من التبعثر والتشتت والتبدد والضياع والتلف والسلب والنهب . ثم علينا ثانياً أن ننفض عن التراث الدفين غبار النسيان ، وأن نبرزه بصورته الكاملة ، وأن نطرحه في أسواق التداول ، لنبيّن الحضارة العربية بمداها الحقيقي ، ولنظهرها ضمن أطرها ، كاملة غير منقوصة . وعلينا ثالثاً أن نحث الحكومات العربية والاسلامية والمؤسسات الثقافية والهيئات الرسمية والافراد الميسورين أن يخصصوا شيئاً من الواردات العامة والثروات الخاصة ، في سبيل اقتناء الأجهزة والاعتدة التي تساعد على القيام

بعمليات توثيق المخطوطات وتحقيقها ونشرها . ولئلا نعطي صورة مهزوزة ومشوهة عن جوهر الفكر العربي ، علينا أن نهيئ الموثقين والمحققين الأكفاء ، والعناصر البشرية القادرة على بعث التراث وكشف سرّه وروعته ، وعلى نشر المخطوطات الاسلامية والعربية ، مما يتطلب أن نرسم سنن تخطيط دقيق وتنظيم محكم ، يجمع كفاءات مختلفة ، تقيم تعاوناً وثيقاً بين جميع الموثقين الذين يعملون في شتّى المجالات ، وتسعى لكي تفي علم التحقيق حقّه ، ولكي تحيط احاطة كاملة بشروط نشر المخطوطات .

وليس من المعقول أن نتجاهل ، في عصر التواصل والأخذ والعطاء والانفتاح العالمي ، ما تحتويه ألوف المخطوطات المكتوبة باللغة العربية ، والتي وضعها العلماء العرب والمسلمون ، وعلينا أن نكشف ما فيها من ثروة كامنة ، وأن ننشر ما فيها من علم ومعرفة ، لكي تعرف الرواج اللائق بها . وقد أصبح التحقيق من الأبحاث المشروعة في جميع مستويات الدراسات العليا ، ويتجه صوبه عادة من أمضى الحقب الطوال في المكتبات ، ومن يعمل في تحري النصوص ، فلا يصعب عليها أن يحيط إحاطة شاملة بأصول تحقيق المخطوطات العربية .

ويعود الباحث الى ما نشر من كتب التراث ، ويستقرئ منها القواعد ويستنتج منها المبادئ ، بيد أن معظم ما نشر لا يخضع لأصول وأحكام ونواميس وقوانين صارمة ، فيتوسل الباحث الكراريس ويعصر مقدمات الكتب المحققة حديثاً ، لعلَّ المعلومات

الضحلة ترشح منها ، ويطلع على مؤلفات عديدة تتناول أصول التوثيق والتحقيق ، ومنها من وضع نخبة من كبار المستشرقين والمحققين العرب ، ويستخلص من هذه ومن المؤلفات الأكثر أصالة ، قديمها وحديثها ، شرعة لنشر المخطوطات الاسلامية والعربية ، لكي يجيء تحقيقه شامل المحتوى .

ونوجز مراحل نشر المخطوطات :

— وصف المخطوطة الخارجي : ان علم الكوديولوجيا (codiologie) يهتم بدراسة المخطوطات ، ويعنى أصحابه عناية فائقة بالأصل ، ويضعون القواعد الأساسية ، ويصفون شكل المخطوطات الخارجي او قيافتها ، ثم يهتمون بمضمونها. ويتوسل المحققون بعض العلوم الموصلة أو المساعدة كعلم الباليوغرافيا (paléographie) وعلم الخطوط القديمة وعلم الورق والحبر والأختام والحلى التزيينية (papirologie) وعلم التأريخ (chronologie) . وعلم النقوش (épigraphie)

— العودة الى الأصل والتثبت من صحته أو العودة الى أقدم مخطوطة ، وهناك نسخة بخط واضعها ، ونسخة بخط مدوّن أو ناسخ ، ونسخة واحدة من أصل مفقود ، ونسخ متعددة عن أصل مفقود ، ووجوب الاطلاع حينئذ على جميع مخطوطات الأثر الواحد .

— وصف ظاهر النص وتحري الرواية أو النص والمجيء

باللفظ ، والتقيّد بشروط قبول الرواية المفردة ومعالجة الروايات المتناقضة والروايات المتوافقة ...

ويتناول الوصف ظاهرة هامة من ظواهر التحقيق العلمي ، ولا بدَّ لنا من أن نوجز المشكلات التي تكشف بعض جوانب التوثيق وبعض مكنونات التحقيق . ومن يُعالج ، أمر التوثيق يجمع المعلومات عن صاحب المخطوطة ، ويحدد هويته ، وهناك شخصيات متعددة يطلق عليها الاسم الواحد (الجرجاني مثلاً ، ويُزال اللبس الواقع من ترادف الاسماء) ثم يصف بيئته ووسطه ، ويصنف انتاجه .

ومن يهتم بالتحقيق يستمد أمثولته التي يعدّها للنشر من أكثر من مخطوطة واحدة ، ولا يجوز له أن يعود الى مخطوطة واحدة ، حين وجود عدة مخطوطات للأثر الواحد . ومن طرق الاقتناع والاقناع مقارنة المخطوطات ، للتثبت من صحة الأمثولة ، ولمقابلتها بالمخطوطات الاخرى . ويعالج المحقق أمثولته ، في ضوء علوم اللغة ، وهو يريد مادتها شافية وافية ، لا تتضمن إلا الرواية المدققة والملائمة للمقام ، ويعلق عليها بالحواشي ، ويتعقب المخطوطات المختلفة ، لعلّه يحصل ، ولو بشكل مقتر وشحيح ، على الروايات المتناقضة أو النصوص المخالفة . ولا يجوز أن نقوم بتحقيق عشوائي ، دون أن نفي المخطوطة حقها ، ودون أن نحيط إحاطة شاملة بشروط التحقيق السليم الذي أضحى من الأمور المنهجية التي تعارف عليها معظم المحققين الرصينين ، ونقاوم بشدة هؤلاء الذين ينشرون شيئاً من

التراث ، ولكن بصورة سيئة ، لأنهم يرسمون لنا صورة مهزوزة ومشوهة عن جوهر الفكر العربي .

٣ــ **المقاربة المواضيعية** : ان المواضيع هي من ثوابت الفكر ، وهي تتطابق وأذهان القوم ، وتتوافق وعقليات الشعوب وتصوراتها الخيالية ، وهي ترافقها في جميع مراحل تاريخها . ومن يتتبع مواضيع العصفور والسماء والأرض والبحر والشجرة والربيع ... والأفعى والتفاحة والخير والشر والخطيئة والتوبة والحياة والموت ... يلحظ أن الموضوع قطب يجذب الشاعر أو الكاتب ، ويشده اليه بوشائج متينة ، فيميل المؤلف الى الاهتمام بالمواضيع اللصيقة به والنابعة من أعماقه .

وتتحرى المقاربة المواضيعية عن المواضيع في التراث الانساني بعامة وفي الآثار الأدبية بخاصة . وتقوم باحصائها ، وتدرس تواترها وعلاقاتها يبعضها البعض ، وتحلل معناها ومغزاها ، لا سيما ان الانسانية بأجمعها تأثرت بها أو لا تزال تتأثر بها ، حتى ان البعض اعتبرها ميثولوجيا حديثة ، توغلت في نفوس أهل العصر وعقلياتهم .

وقد تساعد دراسة المواضيع ، أولاً ، في التعرف على ميول المؤلف ورغباته المكبوتة وأفكاره الفلسفية والدينية ونزعاته الخلقية وعواطفه الخفية ، وتؤلف حينئذ المواضيع وحدة عضوية ، وتصبح رموزاً من ثوابت فكره ، وتنغرس جذورها في أعماق نفسه ، ويلعب

كل عنصر من عناصر الموضوع وكل ذرة من ذراته دوراً هاماً في الحس الجمالي والخلق والإبداع. وتكشف المواضيع، ثانياً، عن الأسباب التي دفعت الكاتب الى انتقاء موضوع معين والى الالتزام به، إن مختاراً وإن منقاداً اليه بقوة لا تقاوم. وحين ينتقي الكاتب موضوعاً، فمعناه أنه يستبعد باقي المواضيع، والانتقاء هو انصياع، وهو أيضاً مؤشر يُفسّر بميل في النفس، ورغبات لا شعورية، اجتذبت الكاتب وسحرته. وما يتذرع الكاتب بالموضوع إلا ليكشف عن خفايا نفسه، وعن ميوله ورغباته، وعن مكنونات فكره. ويتنوع الموضوع، ثالثاً، تنوعاً عجيباً، ويظهر على شاشة لا تشغلها الأحداث المادية بمفردها، بل تظهر فيها شاعرية الكاتب التي تلف الأثر كأنشودة، لها ردّاتها وعوداتها، أو كسمفونيا يتلاعب العازف المجيد بتفاصيلها، ويدخل عليها تقاسيم من اختراعه واستنباطه. ان هذا التنوع يبيّن فرادة شخصية المؤلف الذي يتصرف بموضوعه، ويطبعه بطابعه الخاص، ويسمه بسمته الأصيلة، والشاعر أو الأديب الحق ظاهرة نادرة، يتلاعب بالموضوع، ويتسامى ويتعالى، ويتميز عن غيره ممن كتب وألف بالموضوع عينه، ليحتل مكانة خاصة ومنزلة فريدة.

وقد أجمع الباحثون على أن المواضيعية تزودهم بتمارين ضرورية تشحذ الأذهان، وبرياضة فكرية تفتح آفاقاً جديدة أمام تحليل مضمون الآثار والنصوص الأصول. وبينوا أنه، بالرغم من وجود هذا التلاعب وهذه التقاسيم والتغيرات والتلوينات في الموضوع

الواحد ، تخضع المواضيعية الى وحدة ضمنية ، لها قيمة كبيرة ، يكتشفها الباحث المستقصي الذي يحاول العثور على الثوابت لا على المتحولات . وقد تحتاج بالفعل بعض المعالجات المواضيعية المتطورة الى سعة في العلم والاطلاع والثقافة ، والى براعة في التحليل والمقارنة والاستنباط ، والى التصنيف المعقول والى شيء من التجريد والتعميم .

وقد نحمل على الذين يتوسلون المقاربة المواضيعية ويحولونها الى بحث تاريخي مبتذل ، فيتابعون مراحل الموضوع وما اعتوره من تغيّر وتبدّل بسرد مملّ ، لذا حرّم البعض دراسة تاريخ المواضيع ، بحجة أنها من مقومات الأدب الأساسية ، ومن مواده الخام المجردة من كل جمالية ومن كل صنعة ، وتهكم ، ودلّل بموضوع (البرغوث في أدب معين أو في الآداب العالمية) وسخر مما يستوجب هذا البحث من تعدادات مسهبة ، وشواهد أدبية ، واستطرادات يربطها ببعضها البعض تحليل مهلهل ، ورأى أنه من العبث تحويل المواضيع الموثقة حق الانتماء الى الدراسات الأدبية الراقية والانتساب اليها . وقد ندفع الآن معظم عمليات المواضيعية الى الآلة والميكانوغرافيا والالكترون ، وكنا أشبعنا المواضيعية بحثاً وتمحيصاً ، ثم جاء عصر الآلة وأفسدها ، وأفقدها تجريبياً مقوماتها .

٤ — **المقاربة المقارنة** : المقاربة المقارنة طريقة ألفها الفكر البشري واستعان بها ليقابل مجموعة أولى بمجموعة ثانية ، وليحدد المعايير والمقاييس التي تضبط الميزات والخصائص ونقاط التشاكل

والتشابه والتماثل والتوافق (وعكسها نقاط التخالف والتنافر والتغاير والتناقض) التي تقوم بين قضيتين أو بين نصين أصيلين. ويحصل التوازي المنهجي، حين تتناظر مجموعة مع مجموعة، وحين تتوازن في الفصل الواحد من البحث، الفكرة مع الفكرة، والفقرة مع الفقرة... ونهج المقارنة منهج علمي أصيل، قوامه التحليل العام لايجاد الجامع أو القاسم المشترك، ثم المقابلة لاستخراج أوجه الشبه أو الخلاف، وقياس درجة التلاؤم أو التنافر، وايضاحها، والانتقال، في نهاية الأمر، الى الاستقصاء والموازنة الكاملة واصدار الأحكام العامة. وتحتوي هذه المقاربة نوعين من المطارحات، الموازنة والمقارنة، وهما تختلفان بعض الشيء.

تُعتمد **الموازنة** في داخل الأدب القومي الواحد، وتُعتبر اللغة عنصراً هاماً في تحديد هوية الأدب القومي، فالكاتب الذي ينتج بالعربية، مهما كان جنسه يكون أدبه عربياً، والافريقي الذي ينتج بالفرنسية يُعدّ أدبه فرنسياً، واللبناني الذي ينتج بالانكليزية يُعدّ أدبه انكليزياً، وهكذا دواليك. ولا تتعدّى الموازنة نطاق الأدب الواحد، في حين أن ميدان الأدب المقارن (بكسر الراء) مترامي الاطراف، اذ يشمل باهتماماته أدبين مختلفين لغة أو أكثر من أدبين. ان الموازنات التي تقوم داخل أدب واحد، ينطق بلغة واحدة هي من حقل اختصاص الأدب القومي المحض، وهي أقل خصباً وأضيق مجالاً وأقل فائدة من الدراسات المقارنة، لكونها لا تشرح إلا تطور ملكات الشاعر أو الكاتب، بالنسبة الى من عاصره، أو تجاوزاً الى من سبقه من ابناء قومه وجلدته ولغته.

تُعتمد **المقارنة** لدراسة العلاقات التي تقوم بين أدب وطني معين ، كتب بلغة قومية معينة ، وبين أدب أو آداب غريبة عن تلك اللغة القومية ، أو بين نصين حدين ، أحدهما وطني والثاني اجنبي . وتهتم المقارنة بالصلات التي تقوم بين أدباء وكتاب وشعراء ، يتشابهون في لون انتاجهم ، ولكنهم يتباينون في اللغة والحضارة ، وينتمون الى أعراق وقوميات واثنيات ، قد تفصل بينها حدود جغرافية وسياسية . ولا يجوز أن نتخطى اطر الزمان والمكان والحضارات والأعراق والأجناس ، لئلا نقع في مقاربة ، ظاهرها سليم ، وداخلها عقيم ، وقد لا يرضى عنها التفكير القويم ، وقد توغّلت هذه المقاربة العقيمة في الدراسات العربية ، على أيدي شيوخ البحث ، أمثال طه حسين وشوقي ضيف اللذين وقفا من نصي Pierre Loti وجميل بثينة موقف المقارن الذي يتناسى عوامل الزمان والمكان والبيئة والحضارة . وقد صحّح الياس أبو شبكة ما نقترفه بحق البحوث المقارنة ، وحذّر بقوله المأثور ، منبهاً أن «الأدب المقارن علم بأصول قد يغرق فيه السبّاح الغرّ» .

ومن قواعد المقاربة المقارنة أن نضع النصين على خط الزمن ، وأن نجد ترابطاً بين النص الأول والنص الثاني ، وأن نتثبت من وجود التأثر والتأثير ، وان نتحقق ان احدهما هو المعير وثانيهما المستعير ، وأن الأول يقوم بدور الباث والثاني بدور المتلقي ، وان الأقدم هو الحاث والحافز ، والأجدّ هو المنفعل والمتأثّر .

ان المقاربة المقارنة تصلح في الدراسات الأدبية الحديثة ، وفي

البحوث اللغوية الجديدة ، وشأنها شأن كل بحث رصين : تقوية روح النقد في الباحث . وقد أسهمت المقارنات في وضع قواعد النقد ، وأثارت مشكلات المعنى والمبنى ، الشكل والمضمون ، وأهتمت بتقعيد الأحكام التاريخية والأحكام الوجدانية على حدّ سواء .

٥ — **المقاربة البنيانية** : اجتاحت البنيانية جميع حقول المعرفة ، واستعانت بمبادئها أبحاث الألسنية والبيولوجيا والاثنولوجيا والانتروبولوجيا والاقتصاد والحقوق والسيكولوجيا والتحليل النفساني وتاريخ الفن وعلوم الجمال والاجتماع والسياسة والتاريخ وعلم الانتقاد الحديث... والبنيانية هيكل نظري وتنظيري يعتمد نماذج الرياضيات وقواعد المنطق الصوري ، للوصول الى الحقائق العلمية ، ويتألف هيكلها من مجموعة من الحقائق والمبادئ والنواميس التي تسلط أضواءها على المادة ، لكشف تركيبها الظاهر أو المستتر، ولرصد تحركاتها ، من خلال استقرارها وتقلباتها ، ولإدراجها في ثبت ، يظهرها على شكل بنيان وعمارة . وتأخذ المقاربة البنيانية بمبادئ أربعة أساسية :

* المبدأ الأول : البنية تنظيم : البنية تنظيم متكامل ومترابط الأجزاء ، وقد يكون ظاهراً أو كامناً في الموجودات . وتتحقق البنية ، عندما تتضافر الاجزاء والعناصر المكونة ، بواسطة قيام علاقات ضمنية ووظيفية متشابكة ومعقدة ، لتؤلف مجتمعة كياناً أو كلية ، لها خواصها .

** المبدأ الثاني : البنية تنظيم له نماذجه : يؤثر كل تغيير يطرأ على عنصر من عناصر التنظيم ، في جميع أجزاء العنصر الواحد ، واستطراداً في باقي عناصر التنظيم وفي التنظيم بالذات . وتؤدي دراسة التنظيم الى اعتماد عدد من النماذج ، وعلينا ، للحكم على هذه النماذج وعلى قوتها ، أن نأخذ بعين الاعتبار أولاً أن عناصر التنظيم توجدها الطبيعة فطرياً ، أو يوجدها الانسان اعتمالاً ، وأنها من خواص تكوين الشيء ، وهي التي تؤلف كيانه ، وأنها تتمظهر على شكل نماذج ثابتة ومستقرة ، أو على شكل نماذج متغيرة وليدة التطور والتحول . وتقوم ثانياً تلك العناصر بحركات سريعة أو متسارعة ، ولكنها تستقر فترة قصيرة في وضع راهن ، وتتماسك وتنتظم وتشكل نماذج ، لها نوعية لا تشاركها فيها بنى أخرى . وتخضع ثالثاً تلك العناصر لأنظمة نابعة من صميمها ، وهي التي تمنحها ميزتي الهوية والكيان ، وهما معياران يصلحان لقياس قوة فعّالية النموذج ودرجة شموله . ومن المعلوم أن معياري الفعّالية والشمول يسقطان من الحساب النماذج الضعيفة والجزئية .

*** المبدأ الثالث : النماذج تختلف باختلاف العلوم ، ولكنها تؤدي الى اتباع منهج واحد فيها جميعاً : ان الانتاج الحضاري والثقافي والعلمي والأدبي يتميز بوجود تماسك داخلي ، وبوجود عدد من العلاقات الضرورية التي تشد عناصر الانتاج المختلفة الى بعضها البعض ، لتؤلف مجموعة متسلسلة ، ووحدة عضوية متدرجة ، تضع الانسان ، في بادئ الأمر ، في مرحلة التطور

العضوي والبيولوجي ، ثم تنقله الى المجتمع وتجعله يتأثر بالتاريخ الذي يخضع الفرد الى الأطر الاجتماعية والسياسية والفيزيائية والاقتصادية والدستورية والفلسفية والنفسية والفكرية والحضارية ... وتتألف هذه الهياكل المتسلسلة والهرمية من عناصر ، تربط المجموعة الصغرى بمجموعة أكبر منها ، وصولاً الى رأس الهرم ، مما يسمح للباحث بأن يلجأ الى منهج واحد قادرٍ على روز جميع حقول المعرفة ، فالنماذج البنيانية المجربة ، تتحلى بخصائص مرتفعة المردود ، وقابلة للتطبيق في موضوع واحد معيّن ، واستطراداً في جميع المواضيع .

*** المبدأ الرابع : المنهج الواحد يؤدي الى الشمولية والعالمية والى ايجاد الثابت لا العرضي : لا تنكر البنيانية على العلم القديم أنه كان يتوخّى ، في بعض الأحيان ، التعميم ، ولكنها ترى أنه كان يستشهد بظاهرة واحدة ، أو بمجتمع واحد يتطور في دارة مغلقة ، وتطرأ عليه بالتالي تحولات وتغيرات آنية وظرفية وعرضية بعيدة كل البعد عن شمولية النظرية البنيانية . ان العلم الحديث يبحث عن تعميم بمستوى عالمية الحقيقة العلمية ، ويستعيض عن الخاصيات الفردية بالنماذج الفعّالة ، وعن الكليات بالمبادئ والقوانين ، وعن التفتيت والفرادة والتجزئة بالبنيانية التي تتحلّى بصفة الشمول . ويميز الباحث ، في البنية المعبرة ، ما هو جوهري ، ويفصله عما هو عرضي ، ويضم الجوهري الى حقل بحثه ، فيغتني هذا بمعيار جديد من صنع الباحث بالذات ، ويكون للمعايير التي

يوجدها ليس صفة الجمع والتكامل والعالمية والشمول فقط ، بل صفة الكشف . ونقوم بكشوفات جديدة ، بشرط أن نتحدى المبادئ الجزئية ، وأن نقرن جهودنا بصفات عالية من التمرس والتمرن والتنبه والاحتراز ، وأن نبدي قوة نركزها على عمليات التنظير والتعميم والتجريد .

٦ــ **المقاربة الصناعية** : تستند بعض المقاربات في أحكامها إلى معطيات خارجية ، وتحمل النص الأصل أشياء قريبة من النقد الخارجي ، وتتناول مناحيه الاجتماعية والدينية والاقتصادية والفلسفية والسيكولوجية والتاريخية ومختلف النشاطات الانسانية . بينما توحي المقاربة الصناعية بدراسات قريبة من النقد الداخلي ، وتعود الى النصوص الأصول التي لا يقوم مقامها شيء آخر ، وتعالجها في ضوء صناعة الكتابة . ومن يراعِ هذا الأمر يطرح مشكلة الصنعة ، بطريقة مادية ، بعيدة عن الغَيبية . ان صناعة الكتابة تمنح الوجود بالفعل وبالقوة للأشياء المحايدة التي لا تبرز إلا بالصنيع الأدبي الذي يتحدّى الدهور ، أو بالأثر اللغوي الذي يتجسّد بشيء ملموس ومحسوس ، تتوضع فيه الصنعة ، فيشكل مستمسكاً من خلق المنتج . ولا ننزل صناعة الكتابة هذه المنزلة الجليلة إلا لأنها تبلور الفكرة ، وتدون الإشراقة ، وتسوقها الى حكم الأجيال المتعاقبة ، وتضفي عليها طابع الخلود .

وعلى ابباحث أن يختار أحد الأمرين إما أن يحسب الصنيع نعمة منزلة من عل ، وأنه ينبغي أن يتلقاها بالتالي كصانعها منفعلاً غير

فاعل ، ولا حاجة حينئذ لقيام بحثه ، وإما أن يرى في الصنيع شكلاً من أشكال عالم الأشياء الحسية والخاضعة بالتالي للدراسة العلمية البعيدة عن الغيبية . والإقرار بمبدأ الصنعة هو المعيار الصالح الذي يكشف لنا الشروط العامة التي نأخذ بها ، في معالجتنا الانتاج اللغوي والأدبي .

والنص الأصل أو الصنيع يحمل في طياته ، وفي آن واحد ، اشياء مفهومة وأخرى غامضة ، والعودة اليه ومطالعته بإمعان وبموجب شيفرة معينة ، قد تضيء لنا أنواره ، وتفكّ لنا أسراره . وبما أن النص المكتوب يحمل بصمة الكاتب وتوقيع الشاعر ، يتسنى للباحث متابعة مادة ، يمكنه أن يتفحصها ، وأن يجزم بأن لها نوعيتها وخواصها ، وأن يتعمق في ميكانيكية أداتها اللغوية ، وأن يقوم بسبر أغوار الصناعة ، وبتفهم الألفاظ وحسن النسج ودقة التركيب وعمق الرموز والصور البلاغية الى غير ذلك من وجوه المحسنات التي تتوسلها صناعة الكتابة ، لكي تفصح عن المعنى الكامل ، ولكي تبلغ غاية التمام .

ويسعى الباحث الى تحديد طبيعة الصناعة ، ويحلل صفاتها وعناصرها وجوهرها ، ويحدد مهمتها ، ويقتحم معنى النص المجرد والناجز والقاطع ، بموجب تحليل منهجي ، يتمثل الصنيع ، ويقوم بعرضه على شكل جديد ، ويهتم بشكله وبمضمونه ، ويقول فيه القول الفصل ، دون زيادة ولا نقصان . ومن المعلوم اننا لا نصدر

أحكاماً بحق الصنيع أو بالأحرى الصانع إلا بعد أن نتفحص الأشياء المادية والحسية التي ينتجها فعل يديه.

٧ــ **المقاربة التكميمية الاحصائية**: لا شك في أن هناك مقاربات متعددة، تطبقها الدراسات اللغوية والأدبية، ومنها المبتذلة، ومنها العلمية القيّمة التي تؤمن الاطلالات الفنيّة والانفتاحات الجديدة، لما فيها من قيود منهجية رياضية، ومن تعميم وتجريد، ومن نتائج حسابية مقنعة. ومن هذه المقاربات الشائعة اليوم المقاربة التكميمية الاحصائية التي تُعدّ من المنهجيات المتطورة، اذ أن محاور الدراسة تصبح معها واضحة المعالم، وعمليات التصنيف منطقية، والعينات المبوبة بيّنة، والتكميم الرياضي والاحصاءات دقيقة، والاستنتاجات مقنعة

لا شك في أن علينا أن نعتمد مقاربة تتلاءم وطبيعة بحثنا وتتوافق وتصورنا للظواهر، ويركن اليها فكرنا. وبعد اختيارنا المقاربة، علينا التقيّد بقواعدها وقطع مراحلها بانتظام، لنتبيّن مدى إفادتنا منها. ومن المعلوم أن مراحل المقاربة التكميمية الاحصائية هي الاستطلاع، جمع العينات، التكميم والاحصاء، الاستنطاق، التحقق من النتائج.

ترتكز بالواقع **مرحلة الاستطلاع** على استقراء التسجيلات الصوتية (في حالة الاستطلاعات الشفوية) أو استقراء النصوص الأصول أو المدونة المغلقة (في حالة التعامل مع النصوص المكتوبة)

وعلى ايجاد الخطة اللازمة لاجراء المسوح والقيام بها على وجهها الصحيح .

لا يتوخى العلم الحديث جمع كميات كبيرة من المعطيات ، بل يعتمد على عدد معين من العينات كالمدونة المغلقة مثلاً ، لبناء نظرية متماسكة ، غايتها ضم شتات المعطيات والأحداث ، وتصنيفها وتبويبها . ولا يجوز الاستئناس باللوحات التبويبية والتصنيفات القديمة التي لا تأتي بالبرهان القاطع ، لئلا نقع في خطأ فادح ، حين نظن ان مرحلة تاريخ المشكلة الطبيعي يؤدي الى كشوفات هامة ، فالبون شاسع بين جمع المعطيات ، كما وردت مصنفة ومبوّبة لدى الاقدمين ، وبين **جمع العينات** لدى المحدثين. وندرك ما للجمع والتصنيف والتبويب من شأن خطير. ونصنّف ونبوّب ، بصورة حديثة ، وبموجب معايير علوم عصرنا ، لنبيّن أنه لا يجوز لنا أن نقف على بوابات تخوم التنظير. وما العلم الحديث الا تكسونوميا أو تصنيف يؤدي الى اكسونوميا أي علم استخلاص النواميس والقوانين والقواعد والمبادئ التي نستنبطها من روز العينات والتكميم والاحصاء . ولا نستطيع أن نستنتج نظرية نذود عنها من حشد المعطيات ، اذ يتضمن صوغ النظرية التي توجه البحث قسطاً من التجريد والتعميم ، المبنيين على التبويب والتصنيف.

يستعين **التكميم والاحصاء** بالعلوم الموصلة أو المساعدة كمبادئ الرياضيات الأساسية والصالحة في اجراء الحسابات العملية ، والجبر ، والمنطق الصوري ، ونظرية المجموعات ، ونظرية الإعلام

والتواصل ، وعلم حساب الاحتمالات ... وتتوسل المقاربة التكميمية طرائق الاحصاء البحتة كالرقم والعدد والمعادلة والغراف والخط البياني والجدول والثبت واللائحة والعينة والنموذج الأعلى والنماذج الثانوية والمعدل العام والمؤشر والقرينة والتواتر وقرينة الترابط أو الانحراف عن الموسّط ... وعلينا ، قبل أن نقوم بالتكميم والاحصاء ، أن نطرح المشكلة اللغوية أو الأدبية على بساط البحث ، وأن نعرّف بوضوح الغاية التي دفعتنا الى اللجوء الى هذه المقاربة ، وأن ننطلق من مجموعة من التحديدات والتعريفات التي لا تدع مجالاً للشك ، والتي تتوافق وحقيقة الظاهرة الأدبية وواقع الظاهرة اللغوية . ومن المعلوم ان التعريف الواحد لا يؤدي إلا الى صوغ معيار واحد لا أكثر ، يلبي مقتضيات البحث ومتطلبات الدراسة . كما أن العينات تؤدي الى استخلاص نموذج أعلى تتوفر فيه عناصر المجموعة المؤلفة بكاملها ، والى استخلاص نماذج ثانوية محدودة العدد تؤمن صورة عن الظواهر الثانوية . ويتدخل التكميم والاحصاء لكشف الظاهرة اللغوية والأدبية ، بشرط أن يستعملا كأداة فقط في البحث ، ويجب أن تبقى الظاهرة ماثلة دوماً أمام عيني الباحث .

تَستنطق العلوم الطبيعية ، **بالتكميم والاحصاء** ، الظواهر الفيزيائية والفيزيولوجية والبيولوجية ، وتصل الى الحقائق العلمية الثابتة ، ولا يقوم الباحث باللغة والأدب بهاتين العمليتين إلا **لاستنطاق ميول** ، قد تؤدي الى **نتائج احتمالية** (probabilistes)

يصعب كشفها بطرائق أخرى ، ويصح القيام بالتكميم والاحصاء ، وهما وسيلتا ايضاح رياضيتان ، تلقيان بعض الأضواء على الكثير من أمور اللغة والأدب التي كان يكتنفها الغموض ، وتصلحان في استنطاق النصوص الأدبية وفي تقصي حقائق اللغة والألسنية .

وقد عوّل بعض من أراد استنطاق النصوص الأدبية على التواتر الذي يعتبر مؤشراً صالحاً في :

— تعيين تاريخ النص ،

— نسبة النص الى صاحبه الأصيل ،

— تحديد العلاقة القائمة بين الكاتب وبين معجم ألفاظه وصوره البيانية ،

— احصاء الصور البلاغية والبيانية ،

— احصاء القوافي ، وكشف رتابة مطالع الأبيات أو بالعكس تحديد التلاعب الضامر في أول احرف الأبيات وكشف اسماء الأعلام والتواريخ المستترة فيها .

ولئن طُبِّق معامل التواتر ليس فقط على أثر واحد لكاتب أو شاعر معيّن ، بل تعدّاه وطبق على مجموعة آثاره وحتى على انتاج عصره ، فهو لا يشكل معياراً صارماً ، وقد تُطرح بخصوصه أسئلة متعددة : متى يصح للباحث الأخذ بعامل التواتر؟ هل المفردة أو الصورة التي تتكرر في النص أربع مرات أو سبع مرات هي المعبّرة ؟

ما هو الرقم الذي يجب على معامل التواتر أن يتجاوزه ، ليكون المعامل صالحاً كأداة قياس؟ يتمظهر النص بشكل أو بلغة ، تتداخل مستوياتها ، لتؤلف مجتمعة هيكلية التعبير ، ومعامل التواتر معيار ضعيف ، قد يعجز عن قياس جميع أمور التعبير البالغة الخطورة .

وقد أعطى التواتر نتائج ايجابية في تقصي حقائق اللغة ، وكانت نتائجه مشجعة في الفونولوجيا (علم وظيفة الأصوات) التي رازت العينة المحدودة ، وأحصت العدد الصغير من الفونيمات الذي لا يتجاوز الاربعين ، والذي نعبّر به عن حاجاتنا وأفكارنا . وقد استهوت نتائج الفونولوجيا أفئدة الباحثين كافة . وقد نعالج بالتواتر وبمعايير احصائية اخرى شؤون المعجم الاشتقاقي ، وذلك بالعودة الى الأصل أو الجذر الثابت ثم بتوليده وتفريعه في عمليات الاشتقاق الرتيبة التي تبين بالرقم مردود الاشتقاق المحقق والكامن . وقد نقوم بعمليات احصائية هي بعمليات التوثيق ألصق ومن عمليات التصنيف أقرب ، عندما نصنف درجة شيوع المعجمات والاصطلاحات المتخصصة بالعلوم والفنون والآداب واللغات ، وعندما ندرس ميزات لغة معينة ونحدد عناصرها المؤلفة احصائياً . وقد علّقت السوق الاوروبية المشتركة (المجموعة الأوروبية) الآمال العريضة على ايجاد لغة حيّة في جميع مستوياتها حتى في مستواها المتخصص ، تهدف الى جعل جميع الاوروبيين ثنائيي اللغة (bilingues) بينما توخينا ، لسنين خلون ، الوصول الى هدف

متواضع ، وسعينا الى ايجاد قواعد للغة عربية أساسية ، مما يساعد على تيسير تعليمها ، وأوصينا بمراعاة عمليات دقيقة كالشيوع والاستعمال ، وكانتقاء النصوص ، وكالعودة الى الاحصاء وترتيب المفردات في جداول حسب قرينة الرتبة والتواتر والتوزيع والتوارد الى الخاطر...* .

وتُعتمد معايير الإحصاء في التعامل مع البنى الصرفية التي تحمل ميزات التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع ، ومع الحركات النحوية . وقد تهتم بأمور أكثر تعقيداً كدراسة قرابة اللغات ومدى تطابقها واللهجات التي تنحدر من أصل واحد ومدى انحرافها عن بعضها البعض ، وقد تزوّد اللغوي بمعطيات هامة تسهل أمور النقل الآلي والترجمة الآلية . ولئن قمنا بتكميم المفردات والمعجمات وبإحصاء ميزات البنى الصرفية والنحوية... واستنطقنا بعض أوجه التعبير ، وأعلنّا بعض النتائج المقنعة ، فالوقائع اللغوية حتى البسيطة تطرح أحياناً مشكلات يصعب علينا حلّها . وقد تختلف في تعيين حدود المفردة وفي تعريف معناها وما يعتريه من ترادف وتضاد ، وفي تعيين تخوم الوصلة والمقطع الجملي والجملة ، وقد لا نتمكن من دراسة اللعبة اللغوية المعقّدة ، ومن وصفها وصفاً تكميمياً ، لأنه **لا يوجد بالحقيقة ألسنية إحصائية بل مقاربة إحصائية ألسنية** تتيح لنا

---

* أنظر : **اللغة العربية وتحديات العصر** ، الفصل الرابع : القضاء على الازدواجية بالعربية الأساسية — السلسلة الجامعية ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٣ — ١٩٨٤ .

وضع نموذج احتمالي، يصلح في دراسات محدودة لا في كشف الخلفيات الفكرية والسيكولوجية والأسلوبية التي يغوص في أغوارها التعبير. وهناك إذاً تصوران للعلاقة القائمة بين الألسنية كطرف أول، والتكميم والإحصاء كطرف ثان. تصور أول يرى أن الألسنية تستعين بالتكميم والإحصاء، لتذود عن نظرياتها، وتصور ثانٍ يرى أن الألسنية تمثلت تمثلاً تاماً علوم الإحصاء، وأصبحت ألسنية إحصائية قائمة بذاتها.

يقوم الباحث، **وفق التصور الأول**، بدراسة الظواهر الألسنية، مستعيناً بتقنيات التكميم والإحصاء، ليدلل على ملامح لسانية، لا تظهر، بصورة جليّة، إلا بالطرائق التكميمية. ويكون الهدف من دراسة الظواهر الألسنية التعرف بدقة على سمة لغوية معينة، يتخذها الباحث منطلقاً لدراسته، وما العلوم التكميمية والإحصائية والجداول والأرقام والحسابات حينئذ إلا وسيلة فعّالة من وسائل التحري المتعددة. ونتبيّن من الدراسات التي نسجت على هذا المنوال أن التقنيات التكميمية الإحصائية القادرة على أن تساعد الألسني في أبحاثه هي محدودة العدد، وبسيطة غير معقدة، وقد تحلّ مشكلات السمات الألسنية التي تقتضي من الشاعر أو الكاتب انتقاءً واصطفاءً، إذ يجد هذا نفسه أمام خيارات متعددة تعبّر عن الفكرة الواحدة، فينتقي الطريقة الميّال إليها من عدة طرائق صالحة لأن يفصح بواسطتها عن غرضه، وهو يختار بموجب مقياس التعبير الذي يتجاذب أطرافه العمود والتحييد والانحراف. ولئن

قلّ، في هذا المجال، عدد العينات المبوبة، ولئن انكفأت الدراسة على نفسها، فالمقياس يبين لنا بوضوح فعاليّة أداة البحث، ويؤكد لنا أن العينة على محدوديتها، تمثّل لنا خير تمثيل واقع السمة اللغوية.

وقد يقع الألسني في الوهم، حين يدرس مجموعة كبرى من السمات، كحالة لسان في فترة تاريخية طويلة مضت وانقضت، وحين يوسّع دراسته، ليتناول بها، لا واقع السمة في أثر معين، بل في مجموعة كبيرة من الآثار، وعندها يكون الألسني أمام عينة واسعة، ويصعب عليه حتى استقصاء سمة واحدة، إذ أن اللسان يمثل التعبير الجمالي وجوانب الحضارة وإنتاجات البشر المختلفة، ويبلور حياة الفرد وخواطره ومشاعره وشؤون الشعوب والمجموعات الانسانية والثابت والمتحرك فيها. وكيف يحق له حينئذ بأن يعمم؟ ومهما يكن من الأمر، علينا أن نتحاشى خطر التعميم التجاوزي التوسعي. إن الوازع الذي يجنبنا التعميم التعسفي والاشتطاط المفرط هو حسّ عالم الألسنية السليم والمرهف، وهو الذي يوجهه الوجهة الصحيحة، وهو الذي يعلمه متى يجب اعتبار العينة معبرة ومتى يجب عليه رفضها، لأنها لا تمثل الواقع. ويعلم الألسني المكين في علمه والمتمرس على تقنيات البحث الحديث أن النتائج التي يتوصل إليها بالتكميم والاحصاء هي دوماً احتمالية، وليست أكيدة.

يقوم الباحث، **وفق التصور الثاني**، بدراسة الظواهر الألسنية، متخذاً كمحور لبحثه الرياضيات والتكميم والاحصاء تماماً كما يفعل من يهتم بالمصرف المالي ومن يكمم مؤشر الدخل

القومي. وتسير حينئذ الدراسات التي تتقيد بهذا النهج في ركاب الدراسات الاقتصادية والمالية والديموغرافية والبيولوجية... وإذا صنّفنا مثلاً مفردات اللغة العربية بموجب جداول الاشتقاق، وأردنا أن نعرف درجة شيوع واستعمال المشتقات، نحصل على التوزيع عينه وعلى التواتر نفسه اللذين يتوفران في توزيع الدخل القومي، بموجب حجم السكان وفئاته الاجتماعية، وفي تصنيف المتاجر والأسواق الشعبية، بموجب مراكز توزيعها ومدى إقبال الناس على شراء سلع معينة منها، وفي تبويب مدن القطر، بموجب عدد سكانها، وفي جدولة النبات والحيوان، بموجب الجنس والفرع والفصيل والصنف والزمرة... ولئن صحَّ التكميم في وصف الاشتقاق وصفاً خارجياً، فهو لا يصحّ في كشف السمات اللسانية الداخلية، ونكتشف حينئذ بالألسنية التي تتقيّد بهذا التصور مساوئ عديدة:

— إن الألسني الذي لم يتمرس على علوم الأعداد وعلى العمليات الرياضية والإحصائية المعقدة لا يستطيع أن يستنطق لوحده المجموعات الكبرى أو العينات الضخمة. وهلّا نطلب منه بأن يتفق مع أخصائيين من خارج علمه، فيوفق في تطبيق خطة استقصائية، والألسنيون أنفسهم بخلاف مع بعضهم البعض، وليس من السهل أن يتعاونوا مع أرباب الرياضيات والفيزياء والتكميم والإحصاء والبرمجة الآلية والهندسية الالكترونية!

— إن الدارسين الذين يتوسلون التكميم الرياضي، يتناسون،

وهم يشعرون بنشوة الأرقام والأعداد ، أن البحث يتوخى تحري أمور اللسان. ولا شك في أن أبحاثهم تراعي منهجيات لا يشق لها غبار ، وتمتاز بعلميتها و بمنطقها الصارم ، ولكنها لا تصل الى نتائج تفيد منها علوم اللغة إفادة عملية ، ولا تفتح مجالات جديدة أمام الدراسات الألسنية المتعمقة.

— يشك البعض في قيمة الألسنية التكميمية وفي صلاحية تطبيقها ، ويقول انه لا يجوز لنا أن نتشبث بالطرق الميكانيكية ، وأن نتجاهل مظاهر التعبير الجبرية التي يمكن أن نكشف جانباً منها بطرائق حديثة غير تكميمية كطرائق التواصل ووظائف اللغة الجاكبسونية ...

ولذا نوصي الألسني الذي يأخذ بالتصور الأول أو الثاني على حدّ سواء ، بأن يعتبر التكميم والإحصاء وسيلتين لا غير ، وبأن يعلم أن المدونة أو العينات تمثل تلك العملية التجميلية التي ترد الفروع الى أصولها والتي تختصر الظواهر والسمات بأقل عدد من الفروض الأولية ، وبأن عليه أن يستأنس بآراء الإحصائيين المكمين، وبأن يطرح عليهم أسئلة واضحة تتناول الوحدات التي يريد أن يكممها ، وبأن يتعاون معهم في سبيل إيجاد تعريفات لها ، ونماذج قياس فعّالة تتمتع بدرجة عالية من الموضوعية والكلية والشمولية ، وقد يتحول حينئذ العمل الألسني الى دراسة عميقة والى بحث علمي جدير بهذا الاسم.

ونتمنى أن تتوحد الاصطلاحات التي نستعملها في المقاربة

التكميمية الإحصائية ، والإجراءات العملية التي نقوم بها ، والمعايير التي نعتمدها ، لكي نتمكن من تبادل المعلومات الخاصة بالأبحاث القائمة ، ولكي نوثّق الصلات التي تربط الباحثين بعضهم البعض ، ولكي نتبادل الخبرات ونقارن النتائج التي نحصل عليها في مختلف مراكز التحليل والإحصاء اللغويين ، ولكي ننشر الطرائق الجديدة ونعممها ، دون أن نغلق النوافذ ، وأن نسدّ الطرق على الباحث الذي يودّ أن يضيف على المحصلة مقاييس خاصة به ، استنتجها من بحثه .

ونجرب عملياً الأعداد والأرقام ، ونختبر ميدانياً مقاربة التكميم والإحصاء ، لحل مشكلات ، بعضها يتوافق وتلك المقاربات ، وبعضها عصيّ على الإحصاء . ولكي تبقى المقاربة سليمة ، لا يجوز أن نكلفها بما لا تطيق حمله ، وعلينا أن نصرف النظر عن المشكلات التي لا تجد لها حلاًّ بالتكميم والإحصاء . ويجب أن يكون رائدنا التطبيق الألسني العملي ، فلا فائدة من تكميم تنفذه آلات الإحصاء الضخمة التي تقوم مقامنا بالعمليات الميكانيكية والتي لا نغذيها ببرنامج حيّ ، يفسح المجالات أمام التطبيق . وما القصد من هذا العمل التكميمي الإحصائي الألسني أو النصوصي إلا المساهمة في الأبحاث الألسنية بعامة وفي الألسنية التطبيقية بخاصة .

٨ــ **المقاربات الأخرى** : نعيش في عصر يحثنا كل ما يحيط بنا على الأخذ بمقاربات نابعة من ميولنا الغريزية أو بمطارحات ناتجة عن ميولنا المكتسبة ، وهي توجه بحثنا الوجهة المعينة ، وهي تحدد

موقفنا منه ، وتحدونا على التساؤل : هل سنعالج موضوعنا بسلوكنا مسلك المؤرخ في المقاربة التاريخية ، أو مسلك الوصاف الموضوعي في المقاربة الوصفية ، أو مسلك المقارن الموازن في المقاربة المقارنة ، أو مسلك المنتمي الى التيّار البنيانيّ في المطارحة البنيانية ، أو مسلك المنحاز الى الشكلية في المطارحة الصناعية ، أو مسلك عالم الرياضيات في المطارحة التكميمية الإحصائية ، أو مسلك عالم الدين واللاهوت والاجتماع والسياسة ... ، أو مسلك الضليع بعالم الأساطير والخرافات والخوارق..؟ ومن المعلوم أن هناك مقاربات متعددة يمكننا أن نسير في ركابها لوضع مقالة انتقادية ، وقد نسلك فيها سبل النقد التاريخي الاجتماعي ، أو التقليدي التفسيري ، أو التقريري الموضوعي ، أو الانفعالي الإيحائي ، أو الملتزم المقيّد ، أو المقارن العام ، أو المواضيعي المشكلي ، أو التجديدي البنياني ، أو النصوصي الصناعي ... وعلينا أن نتخذ من بحثنا موقفاً معيناً ، لكي نتمكن من صوغ الموضوع الذي نريد أن نشتغل به ، بالقالب المناسب .

وعدا المقاربات التي ذكرناها ، عثرنا ، بتعاملنا مع المرشحين لنيل ألقاب الشهادات العليا ، على مقاربات ثلاث ، نقف عندها لنتفحصها .

وقد تصح أولاً **المقاربة الاجتماعية** في دراسة أثر الأوقاف أو الحُبُس في بقعة جغرافية معينة وفي جماعات محددة . وقد أوصانا ابن خلدون ، في مقدمته ، بالنظر والتحقيق والتعليل والتقيّد بكيفية

وقوع الأحداث الاجتماعية ، للتوصل الى معرفة أسبابها . وقد بيّن علماء الاجتماع أن كل حدث مضى ، إنما هو مظهر لقوى اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية وعرقية ونفسية وغيرها ، تتضافر في إبرازه لحيّز الوجود. ولذا كان محتماً على الباحث المدقق ، إذا ما أراد فهم قيام الأوقاف والحبس أن يحيط علماً بهذه القوى ، فالأوقاف وليدة ظروف اجتماعية معينة ، وهي تتغير ، وفق تطور المؤسسات الاجتماعية ، وهي ليست توصيفات لمكتبات وتكايا ومدارس ومستوصفات ومستشفيات ومنشآت... ولا يجوز أن نكدّس في بحثنا عن أثر الحُبُس المعلومات البحتة الجغرافية والتاريخية والفقهية ، بل علينا أن ننظر في الأسباب والمسببات ، وأن ندرس العوامل السابقة وأثرها في اللاحقة ، وذلك بغية إظهار تطور الأوقاف والحبس...

وقد تنحو ثانياً الدراسات الدينية منحى الدراسات الدنيوية ، وقد يدرس أحدهم ظاهرة النبوة ، بدءاً بابن كمونة ومروراً بالمتنبي ووصولاً الى جبران خليل جبران. وقد يسير في طريق محفوف بالأخطار ، رائده الاخلاص للعلم ، والعمل على خدمته . **ومقاربة العلوم الروحانية** مقبولة ، لأن الدين من صميم الانسان ومن جبلته ، ولأن المرء يحذو حذو الخلف الصالح . ولا غروَ أن إنكار حقائق الدين أو النبوة يؤدي الى المروق وإلى الخروج عن طريق الحق وجادة الحجى...

وكلنا يعرف ثالثاً الشأو الذي بلغته الحركة الفقهية اللغوية

الإسلامية ، ولكن القليل منا يعلم الشيء اليسير عن الاجتهادات التي سجّلها النصارى واليهود الذين عاشوا في دار الاسلام ، والذين حاولوا تفسير الظواهر اللغوية بأدب كتب بالسريانية ، والكلدانية ، والعبرية تارة وبالعربية طوراً. ولئن لم تبلغ هذه الاجتهادات والمجاهدات شأو الحركة اللغوية الاسلامية ، فهي مسجلة في نصوص أصلية ، وقد تؤدي دراستها الى أبحاث تهتم بما قام به القدامى. وقد تربط **هذه المقاربة شبه المقارنة** مصير اللغة العربية بمصير اللغات السامية ، وقد يعالج من يأخذ بها ظواهر اللغات السامية ، في ضوء سنة النشوء والتطور.

وهكذا تبدو المقاربات والمطارحات ، بالرغم من تعدد وجوهها واختلاف جوانبها ، متعالية ، في وجودها ، على الزمن ، ومرنة يتتي كلّ منا ما يتلاءم منها وطبيعة بحثه...

* * *

يواجه عملياً الدارس بحثه ، ومعه عدّته التي تتألف من فكر ممعن ومعرفة عميقة واطلاع واسع. ويتصور بحثه من خلال الموضوع الذي سيعالجه ، ومن رؤية علمية وتجربة سابقة معينة ، ومن منظار فكرة أو مقاربة يتخيّل تمام انطباقها على موضوعه. ويتوسل طرائق الاستدلال المعروفة العامة والخاصة والتقنيات المتقدمة والمتطورة التي تعامل معها ، أثناء دراسته الجامعية أو ممارساته الخاصة. ويلتمس النصوص الأصل ، ويعيد قراءتها قراءة

متأنية ومستوعبة وبعيون جديدة ، فسرعان ما تتماسك عدّته ، ويتحدّى بها حينئذ النص الأصل الذي تتبلور فيه الشخصية أو القضية اللغوية أو الأدبية التي يتصدّى لها ، ويصبح النص الأصل المعين الذي لا ينضب لكل كلام حق ، والمنطلق الذي يعود اليه دوماً ، والسند الثابت الذي يبعده عن الغرض والهوى ، والذي يحرر عقله من جميع المؤثرات الطفيلية والطارئة والدخيلة ، والذي يُفرِغ ذهنه من جميع الأوهام غير الواعية.

الباب الثاني

مرحلة الإجراء والتنفيذ

مدخل

أدرجنا في الباب الأول إيماءات تتعلق بلغة البحث ، وحدّدنا له العربية ، وعالجنا مفهوم بحوث الشهادات الجامعية العليا ، ونحن على وشك انتقاء موضوعنا ، وسرنا في منعطفات المقاربات ــ المطارحات التي تعطف علينا ونعطف عليها ، ونميل اليها وتميل إلينا ، وسقنا بخصوصها إيضاحات وملاحظات مفيدة . ومن المعلوم أن التقيّد بها يدعم هيكلية الرسالة ، في حين أن التلكؤ أو التأخر بمراعاتها يجعل عمارة الرسالة وأسسها وركائزها مهزوزة وتركيبتها متداعية ، تنذر بالسقوط ، كلما حاولنا أن ندعمها ، أو أن نعمل فيها يد الإصلاح . ونتصور معالم المشروع على هدى من المبادئ السابقة ، ونباشر بتنفيذه ، فنجتاز مرحلة طويلة لها محطات معينة ، وتتسجل وقائع المشروع أو الرحلة في مئات الصفحات ، نعرّف فيها الكثير من أمهات المسائل التي لم يكن بدٌّ من إيضاحها ، لكي نتبين معالم الطريق وندرك وقائع تلك الرحلة الشيقة ، بواسطة جملة من

النظريات العامة ، فضلاً عن عدد كبير من التحاليل الصائبة والأحكام الموضوعية .

أولاً : نبدأ أساساً بقراءة المصادر والمراجع التي تتعلق ببحثنا ، وتقتصر مهمة تلك القراءة على اطلاعنا على فكرة عامة ، تمكننا من وضع التصور الضروري لإجراء المسوح ولوضع مخطط موقت ، قد يتيح لنا القيام في المستقبل بالدراسة التفصيلية الشاملة .

ثانياً : نجمع كل ما يتعلق بموضوعنا ، وندوّنه على جزازات أو فيش . إن عملية تقميش المعلومات والوقائع وتسجيلها بشكل موقت على جزازات تستغرق الكثير من الوقت ، إذ علينا أن نجمع مادة الجرد من مظانها ، وألا نوفر علينا العناء والمشقة ، دون أن نقع في الإفراط أو التفريط . ولئن كان تصورنا الباهت للموضوع لا يحول ، في معظم الحالات ، دون التقميش النهم ، فهو يجعلنا نتقيّد باتجاهات أساسية ، قد تكون غامضة بعض الشيء ، وتتوضح تدريجياً .

ثالثاً : بعد انتهائنا من التقميش ومن تثبيت مادته على فيش ، ننتقل الى مرحلة تنظيم ما اجتمع لدينا من وفير المعلومات ، المثبتة على عدد كبير من الجزازات المختلفة في حجومها والمتنوعة في ألوانها ، ثم نعمل في الجزازات ، تحقيقاً وتدقيقاً واستقصاءً ومنطقاً ، مقربين ما ابتعد ، ومثبتين ما انتثر في كل متجانس ، يؤلف عمارة مكينة . ومن المعلوم أن تنظيم مادة الجرد في مجموعة متماسكة وتبويبها

في مخطط وهمي ينسجم وتصورنا الأولي يؤمن لنا نظرة مسطحة (une vue plane) لمواد موضوعنا ومسحاً شاملاً ، يرينا الظاهرة التي ندرسها وهي تندرج في وحدة تامة المعنى ، مرتبطة الأجزاء ، متناسقة التقاسيم (فصل النظري عن العملي ، أحجام المقدمة والمتن والخاتمة) ويسجل خصائص الظاهرة ، ويحدد أبعادها ، ويبين مشكلاتها الأساسية والفرعية.

رابعاً : تشكل الجزازات المنظمة مضمون الرسالة ، ويتحول تصورنا الأولي الى تصميم شبه نهائي ، تبرز فيه الأقسام الرئيسية والأفكار العامة وما يتفرع عنها (عناوين الأبواب ، عناوين الفصول ، العناوين الثانوية ، الأفكار الهامة...) وندرج في الخانات المذكورة أهم محتويات البحث ، ونقوم بتمرين أكاديمي تطبيقي وبعمل جامعي إجرائي ، يتبلوران في كتابة البحث بشكل أولي ، فنسعى حينئذ عملياً الى عجم عود عدتنا العلمية ، والى استثمارها في صناعة الكتابة ، والى تطبيقها في مقال مغلق ، له أطره النوعية وصفاته المميزة.

خامساً : نقوم أخيراً بعمليات تتناول تعديل المضمون والمعنى وتنقيح الشكل والمبنى. وتوثّق نص الرسالة في ضوء تقنيات علوم التدوين الحديثة. وقد يعيد البعض كتابة الرسالة وتبييضها عدة مرات ، ويغربلها وينخلها ، قبل أن يلبسها شكل مخطوط جاهز وصالح لأن يُسلّم إلى الأستاذ المشرف.

أوجزنا المراحل التي نتقيد بها في استقصائنا ، ووضعنا ذلك في خطوات أساسية ، يجب أن نتابع تسلسلها في اجتيازنا المراحل والمحطات والمنازل ، كما يجب احترام الأضواء الخضراء والحمراء ، بغية الوصول الى الهدف المرسوم والشاطئ الأمين. وتدور إذاً مسألة تنفيذ البحث حول جوانب خمسة تنضوي تحت لوائها مختلف المسائل الفرعية. ولا بدّ لنا من أن نتناول هذه المسائل بشيء من التفصيل.

* * *

الفصل الأول

القراءة الاستطلاعية وتصور البحث الموقت

قد يقوم بعضنا ببحوث ميدانية وباستطلاعات عملية ، وقد يقابل العلماء والأدباء والشعراء ، ولكن من يكتب بحثاً لغوياً أو أدبياً يرجع عادة الى طائفة من الكتب والمؤلفات القديمة والحديثة ، المطبوعة والمخطوطة ، المودعة في المكتبات العامة التي تحوّلت اليوم الى منهل للعلوم والمعارف ، والى مراكز للقراءة والاطلاع ، والى معاهد للبحث الحرّ.

ونظراً لمحدودية امكانات الباحث المالية والمادية ، ونظراً لوجود فيض هائل من الانتاج المطبوع ، يتحتم على الباحث أن يرتاد المكتبات ، وهي الأمكنة الصالحة لمطالعة الانتاج اللغوي والأدبي ، وهي المختبرات المناسبة والورشات الملائمة للبحوث اللغوية والأدبية .

تؤمن لنا المكتبات امكانية الاطلاع على الانتاج العالمي ، لا سيا

في حقول اختصاصنا ، وتسدي لنا خدمات فعّالة ، اذ تشفي غليلنا بالعديد من الكتب والمؤلفات والمصنفات ، ولذا نقضي فيها القسط الأكبر من أوقاتنا ، محاولين التفتيش والتنقيب والتوثيق والدراسة والتأليف والترجمة ... وفي المكتبات وبالتعامل مع كتبها ، نتمرس على القراءة الناقدة التي تنظر في المؤلفات وفي ما تحتوي عليه من جديد ومن آراء مفيدة ، والتي ترى مدى التزام المؤلف بالمنهج الذي ذكره في مقدمته ، وما أخذه من غيره ، وما تقيّد به من أمانة علمية ، ثم ندرس قيمة الكتاب وأهميته بعامة ، ومدى إفادتنا منه في بحثنا بخاصة .

وللمكتبات أنواع مختلفة ، فمنها الوطنية أو القومية العامة والخاصة والبلدية والمدرسية والجامعية والمتخصصة . وما يهمنا من دور الكتب ، وفي هذا المقام ، نوعان : المكتبة الجامعية والمكتبة المتخصصة .

* **المكتبة الجامعية** : تعتبر الدراسات والبحوث جزءاً مكملاً للتعليم الجامعي ، والمكتبة الجامعية تُعرف مبدئياً على أنها مكتبة ملحقة بالجامعة أو باحدى كلياتها أو بمعاهد التعليم العالية . وتوفر المكتبة الجامعية التسهيلات للباحثين ، وتضع تحت تصرفهم معلومات ثمينة ، تتناول عدداً كبيراً من الموضوعات ، وتتيح للذين يؤمونها استكمال دراساتهم فيها وانجازها والحصول على الدرجات الجامعية العلمية الرفيعة .

* **المكتبة المتخصصة** : تعتبر البحوث المتخصصة عصب العلم الحديث ، والمكتبة المتخصصة تحشد رصيداً وافياً من الدراسات التي تهتم بموضوع واحد معين أو بزمرة من الموضوعات المتجانسة ، وهي بحكم تسميتها ووظيفتها تؤدي مهمة معينة وموجهة . وتوفر المكتبة المتخصصة وسائل البحث لاختصاصات ضيقة ، وتضع حدّاً لنوعية مجموعات مؤلفاتها الرئيسية وموضوعات الكتب التي تختزنها أو التي تنوي أن تقتنيها ، فتختار من الانتاج العالمي والاقليمي والمحلي ما يتفق فقط ومهمتها . ويستكمل فيها الدارس بحثه ، ويتابعه ، مستعيناً بالمصادر والمراجع التي تعالج اختصاصه الأساسي ، ومتوسلاً المجموعات العلمية والنقدية ، والمؤلفات القيّمة ، واطروحات الدكتوراه ورسائل الباحثين ودراسات الجامعيين ، والمقالات والكراسات والنشرات الدورية ، والتقارير العلمية المتخصصة التي تساهم بنصيبها الأكمل في مجال تقدم علم معين واختصاص محدد .

ولا بدّ لنا من اطلاع الباحثين على طريقة استخدام المكتبة الجامعية والمكتبة المتخصصة ، وهي مشكلة قد تحدّ من رواج البحوث الضحلة والمبتذلة التي نراها متداولة ، كما أنها تبيّن لنا قلة خبرة الدارس الغرّ الذي لا يحسن الإفادة من خدمات المكتبات . ان مسألة استخدام المكتبة تدعونا الى توجيه الطلاب ، اعتباراً من مرحلة دراستهم الثانوية ، نحو المطالعة الخلّاقة والعمل المكتبي . ويجب على كل دارس أن يعرف كيف يقرأ ، وأين يجد ما يقرأ ،

حين يدخل المكتبة ، ليتمكن من الاهتداء الى غرضه بيسر. ولكي نسهل عليه هذه الأمور نزوده ببعض المعلومات والإرشادات المتعلقة بقضايا المكتبة وعلاقاتها بالبحث.

الفَهرَسَة : يقوم الدارس بقراءة استطلاعية ، تتصل بموضوع بحثه ، ويبتغي توظيف تلك القراءة والانتفاع بها ، ويمكنه التعرف على المراجع المتخصصة من قراءة عنوان المرجع ومن إمعان النظر في مقدمته وخاتمته وفهارسه . وقد يتضح له من هذه المطالعة الخاطفة بعض مبادئ علوم المكتبة والتصنيف والتوثيق وبعض النظريات التقنية والفنية التي تُعدّ على حق مدخلاً وسبراً وتجربة ، والتي تكسب الدارس خبرة مكتبية ، قد توظف ، كما سنراه لاحقاً ، بالبيبليوغرافيا المدروسة أو بالفهرس المنسق.

والفهرَسَة أسلوب فني لتصنيف الكتب والمؤلفات المطبوعة والمخطوطات والدوريات أي المجلات والصحف. ونجد ، في جميع المكتبات ، فهارس منظمة بأسماء المؤلفين ، وقد نجد في بعض المكتبات فهارس بعناوين الكتب ، وقد نعثر في النادر منها على فهارس منظمة باسماء الموضوعات (علم الفقه ، علم التفسير ، علم الكلام ، علم الحديث ، علم الأصول ، علم التوحيد ، علم اللغة ، علم الصوت ، علم الصرف والتصريف ، علم النحو ، علم الألسنية ، علم النقد ...) . ونسميها الفهارس المواضيعية ، اذ تهتم بموضوع الكتاب ومادته ، وترشد الى أجزاء المؤلفات التي تعالج مواضيع معينة. ويمكن عادة لمن يبتغي مطالعة مؤلف أن يكشف

عنه في فهرس المؤلفين أو فهرس المواضيع ، وقد جاء تصنيف ديوي العشري والمتبع في الدول المتطورة ، ووفّق بين النوعين من الفهارس ، وقرّب بعض الشيء الشقة التي تفصل بينهما . وعلى كل ان جميع هذه الفهارس **وصفية** ، بمعنى أنها تعرّف الكتاب ، وتصفه على نحوٍ يميزه عن غيره من الكتب ويفرده عن سواه ، وذلك عن طريق إثبات معلومات بيبليوغرافية نجدها في البطاقة المخصصة له . ويحاول عالمنا المعاصر وضع فهارس **تحليلية** ، قد يُعهد أمرها الى مراكز التوثيق ، وهي التي سوف تخفف بعض الأعباء عن كاهل الباحث المثقل .

المصادر والمراجع : تمدنا المصادر والمراجع بمواد البحث الأولية على مختلف أنواعها ، ويتمّ بها تكوين البحث وانماؤه وتغذيته بالخامات والأفكار والآراء التي سوف يتجسد فيها .

يباشر الباحث بقراءة النصوص الأصل التي تنقل خامات البحث الأساسية ، بدون تحريف وتصحيف وتدليس وتزوير ، والتي نسميها اليوم المدونة المغلقة . ويقصد المحدثون **بالمصادر** المدونة المغلقة أو المادة التي يتألف منها معنى المعنى والنصوص الأساسية التي ننطلق منها لكتابة بحثنا الذي يتألف بالحقيقة من مجموعة من النصوص الأصيلة المدروسة التي تظهر قيمة البحث ، والتي تسوغ قيامه ، والتي تعمل على انتشاره في الأوساط الجامعية والعلمية .

يوزع المحدثون المراجع على زمرتين : **زمرة المراجع العامة وزمرة**

المراجع الخاصة. ونقصد بالمرجع العام المصنف الذي ينظم المعلومات المعروفة والذي يسوقها، بشكل سريع، الى المطالع، بحيث أن هذا يحصل على المعلومات بسهولة وبأقل وقت ممكن، بدون أن يضطر الى قراءة المرجع من أوله الى آخره. وتجتمع في المراجع العامة معلومات أولية، لها طبيعة المعلومات العامة والمبوبة، وتأتي، في مساردها ولوائحها: المعاجم اللغوية، الموسوعات العامة، دوائر المعارف، الفهارس والبيبليوغرافيات العامة، الحوليات، قواميس الاعلام والبلدان والمدن، كتب السير والتراجم والطبقات، وغيرها من مصنفات التراث العربي الموسوعي (تراجم الصحابة والتابعين وكتب الطبقات وكشف الظنون وهدية العارفين والفهرست ...) من المعلوم ان المراجع العامة تستقي مادتها من كتب تراثية متعددة سبقتها، وأنها تتوضع على خط التعاقب، وأنها ترفد من يشعر بنقص في ثقافته أو في معلوماته بمعارف عامة وبتعليقات وشروح وتفاسير، توضح ما يغمض من المادة الأصل، علماً بأنه لا يجوز لمادتها أن تشغل الكثير من صفحات البحث الحديث.

ونقصد بالمرجع الخاص التحاليل القيّمة التي تعالج المادة الأصل، والتي ترد في الرسائل الجامعية وفي الاطروحات الأكاديمية وفي البحوث الأصيلة وفي مقدمات الكتب والمخطوطات المحققة تحقيقاً علمياً. وقد يُصنّف البعض تجاوزاً، في هذه الزمرة، دوائر المعارف المواضيعية والمعاجم الخاصة بمصطلحات مسألة معينة

والشروط. والوثائق والمستندات الرسمية والمجلات المتخصصة في البحوث اللغوية والأدبية، وقد يضيف اليها «الأدب» الأدبي واللغوي المنقول من اللغات الأجنبية. لا شك في أن هذا النوع من التصانيف شبه المتخصصة والقريبة من حقل بحثنا يعالج طائفة كبيرة من المعلومات اللغوية والأدبية، ولكن لا يجوز لنا أن نغير على ما ورد فيها من «أدب» عربي أو «أدب» وضع بلغات أجنبية، لئلا ننزلق الى دركات الدراسات التقليدية والتي كانت تهتم بترجمة الأدباء والشعراء والفقهاء والنقّاد في مختلف العصور، أو التي كانت تروي الآثار الأدبية وتفسرها تفسيراً سطحياً. ولا شك في أن هذه المؤلفات تقع بين المنزلتين، منزلة المصادر ومنزلة المراجع العامة، وتنتمي الى فئة العلوم المتخصصة **النقلية**، وتساعد الدارس للتعمق في موضوعه، ولفهم المادة الأصل أو المدونة المغلقة، ولكن لا يجوز لنا أن نرتقي بما ورد فيها الى مصاف المدونة المغلقة أو الأصول، كما يقول القدامى، المعول عليها في البحوث الحديثة والتي يُحتجُّ بها اليوم في الدراسات الرصينة اللغوية والأدبية.

تصوّر البحث وعُدّته: ننطلق دوماً في بحثنا من **تصور غامض**، نسعى الى أن نحدد ملامحه ومعالمه في تصميم أولي، نثبته في مكان بارز من مكتبنا أو غرفة عملنا، ونقوم بتعديله لدى اقتضاء الحاجة ووفق الاتجاهات التي تتخذها دراستنا. ويردف هذا التصور **جدول موقت للمصادر والمراجع** التي ننوي اعتمادها في عملنا. ويضيف البعض على هاتين الأداتين الهامتين دفتر اليوميات

أو روزنامة العمل اليومي ، على غرار المقاول المتعهد الذي يراقب ورشة البناء (وهنا نراقب عملية عمارة البحث) والذي يحسب حساب ما عليه أن يقوم به يومياً ، ليسلم العمارة ، بموجب دفتر الشروط وضمن المهلة المحددة له.

يعود الباحث الى المصادر والمراجع والى النصوص الأصل والنصوص الفرع والى المدونة ، التي يحفظها البعض غيباً وعلى « ظهر قلب » والى المراجع الخاصة ، ليتعرف على ملامح بحثه ، بواسطة **بطاقة** ، تشبه الى حدٍّ ما بطاقة الهوية ، نخصصها لكل مؤلف نستعين به ، ونذكر في جزئها الأعلى : اسم المؤلف ، عنوان المؤلف ، مكان النشر ، دار النشر أو المطبعة ، تاريخ النشر ، عدد صفحات المؤلَف . وجميع هذه المعلومات مثبتة في فهارس المكتبات العامة التي توفر لنا أحياناً بعض المعلومات التحليلية ، ولكن قلّما نستفيد منها ، لأننا بصدد بحث موضوعي ، فعلينا أن نقيّم المؤلف الذي نستعين به ، وأن نوجز غرضه وحدوده وعلاقته بسواه من المراجع التي تعالج الموضوع عينه ، وأن نقوم بعملية تقييمية وظيفية ، معلقين بخاصة على ما أتى به من جديد في مادة بحثنا بالذات ومدى احتمالات استثماره وتسخيره في موضوعنا.

في ضوء تصورنا البحث وعلاقته بجدول المصادر والمراجع الموقت ، وفي ضوء التقييمات التي نثبتها في بطاقات هوية المؤلفات ، نضع ما يسمى الفهرس المدروس أو المنسق(Index raisonné)

الفهرس المدروس أو المنسق : هو نوع من الفهرَسة ، ونطلق مصطلح فهرسَة على كل جدول يعرض محتويات المؤلفات ومواضيعها ، على نحوٍ منظم وعلمي ومنطقي ، وهو حصراً قائمة عامة بالمصادر والمراجع العربية والأجنبية التي ننظمها على أساس وحدة الهدف والتي نعتمدها في دراستنا والتي نقيّمها ، مقدرين مدى انتفاعنا منها جملةً أو تفصيلاً . ومن فوائد الفهرس المدروس أو المنسق أنه يدربنا على

* **الخبرة العملية :** يستعير الفهرس المدروس تقنيته من علم المكتبات والتوثيق ، ويتوسل الموجزات التحليلية الخاصة بمضمون ما طالعنا واستوعبنا . ونكتسب عملياً من تقنية فهرسة المكتبات التي نؤمها المران الكافي لوضع فهرسنا المدروس ، فالخبير في عملية الفهرسَة الوصفية المعمول بها عادة في المكتبات العامة ينتقل ، دون شديد عناء ، الى عملية الفهرسَة المنسقة .

* **الاختيار الواعي :** اختيار ما يلائم بحثنا ، وتنسيقه وتحديد المناسب ، وانتقاء المراجع اللصيقة بموضوعنا واستبعاد المراجع أو اجزاء المراجع التي لا تقع ضمن حدقة موضوعنا الضيّق . والعديد من الاختيارات الأخرى الواعية هي من أصعب العمليات وأدقها ، ومن النشاطات الشديدة الأثر في البحث ، لما ينتج عنها من توازن في اجزاء الدراسة أو من خلل .

* **الاصطفاء** : الفهرس المدروس ثبت حصري يتوافق مبدئياً وهيكلية موضوعنا ، وهو يعصمنا عن الاستطراد ويحثنا على الاحتفاظ بالمعلومات التي تتعلق بصميم بحثنا.

* **الموازنة والمقارنة** : يساعدنا الفهرس المدروس في استقصاء مجموعة من المراجع التي تنضوي في وحدة معينة والتي تشترك في بعض ملامحها ، وفي التعرف على وجوه الشبه التي تصل بعض المجموعة بالكل الذي يشكل موضوع بحثنا الأساسي. ان تفحص فئات الكتب المتشابهة في ما بينها وضمها في واحد رئيسي ، بواسطة الموازنة والمقارنة ، هي من العمليات الناجحة في البحث المستقصي.

* **التحقق** : الفهرس المدروس وسيلة للتحقق ، بعدالة ونزاهة ، من سلامة المعلومات التي ترد في مراجعنا ، ومن ضرورة معالجتها بالجرح والتعديل ، للتأكد من صحتها.

* **التخصص والحداثة** : الفهرس المدروس أداة تحثنا على وضع بحث يندرج ضمن مجموعة البحوث المتخصصة ، اذ يدفعنا على الأخذ بالمراجع العلمية والتقنية التي تتطابق وآخر تطورات موضوع بحثنا ومستجداته.

* **الاجتهاد** : عندما تسكت الأصول والنصوص والمراجع ، يعيّن لنا الفهرس المدروس الثغرات والفراغات التي يتوجب علينا أن

نسدّها ، فنتدبر حينئذ الأمر ونجتهد ، مجاهرين برأينا الشخصي ، ويكون الفهرس حافزاً على إظهار شخصيتنا .

وخلاصة القول ان الفهرس المدروس أو المنسق دعامة هامة من عمارة البحث ومفصل هام من مفاصلها وعماد الدراسات الرصينة . وهو يتألف من قائمة استقصائية ، نرصد فيها مطالعاتنا (بمعناها القانوني) المتخصصة ، ونصنفها ، على نحوٍ علمي ومنطقي ، وبصورة أنها تنسجم والموضوع الذي نعالجه ، وهو يوجّه قراءاتنا الوجهة الصحيحة ، ويبرز امكانيات متابعة بحثنا ، ويدفع من يود تتبع خطانا وتقفي أثرنا الى الانطلاق منه ، لطلب الاستزادة والاستقصاء . وما أوليناه هذه الأهمية إلا لأنه يضمن لنا سلامة عملية التقميش ، ويتكفل لنا بضبط عملية التجزيز أو التفييش .

* * *

الفصل الثاني

التقميش والتجزيز

نسخر اليوم التكنولوجيا المتطورة ، لخدمة المطالعين والباحثين ، فهناك وسائل حديثة للتعرف على المصادر والمراجع والوثائق والمخطوطات نسميها سمعية — بصرية ، وهناك تقنيات مكتبية تهتم بالتصوير الفوتوغرافي وبانتاج الميكروفيلم. وأخذت اليوم الميكانوغرافيا تقوم بالتقميش والجمع والتصنيف والتفتيش وحفظ المعلومات ، متوسلة البطاقات المثقوبة والأدمغة الالكترونية . وقد يستعين بعضنا بهذه الاجهزة جزئياً ، ويصور عوضاً من أن يقص وينسخ ويدون ثم يقص ثانية ويلصق ، وقد يفكر عاشقو التكنولوجيا في توثيق البحث الكترونياً ، ولربما في كتابة الاطروحة ميكانيكياً عن طريق ذاكرة الدماغ الالكتروني .

كنّا نعتمد على ذاكرتنا ، وكنّا نسلّم بوجوب القيد والتدوين والتسجيل ، وكنّا حرفيين ، وكنّا نعاني الكثير من عمليات الجمع

والتقميش والرصد والجرد والجدولة والتجزيز، وكنّا نقوم بهذه العمليات اليدوية والخدمية، مسلحين بالصبر والأناة، وكنّا نؤدي عملاً يدوياً، بطيئاً، دؤوباً. وما زلنا، في عالمنا العربي، نقوم يدوياً بجمع المطبوع والمنشور والمخطوط الموزّع على مختلف المكتبات، وبتدوين المقابلات التي نحظى بها واللقاءات التي يمنّ بها علينا الشعراء والكتّاب، ولذا علينا أن نعرض لمعظم باحثينا الحرفيين عمليتي التقميش والتجزيز أو التفتيش (من كلمة فيش (fiche

التقميش تعريفاً ضمّ ما تناثر من فتات الأشياء وجمع الاشتات التي تبعثرت في جهات مختلفة، ويجمع الدارس أو يقمش مادته الأولية من وثائق متنوعة، ويسعى الى قيدها وتدوينها وتسجيلها في مستمسك مادي، نسميه الجزازة أو الفيشة. **والتجزيز** تعريفاً تدوين الوثائق المقمشة على جزازات أو فيش أو قصاصات من الورق المقوّى. وكلتا العمليتين تتلازمان وتتكاملان وتصبان في مصب الفيشية المركزية، التي تؤلف مع تصور البحث والفهرس المدروس، معين الدراسة الذي لا ينضب.

يجمع الباحثون على وجوب التقميش، ويقدرون حق القدر قيمة المصادر والمراجع، كما يجمعون على وجوب توثيقها وتقييدها في مستمسكات مادية أو تجزيزها، ولكنهم يختلفون بعض الشيء في قضاياها الهامة، وبخاصة في المسائل التي تتعلق بالكمية والنوعية والتقنية أو كيفية التعامل معها مادياً.

الكمية : نتساءل عن مقدار المادة المقمشة ، والبعض يقمش ويدون جميع النصوص أو الأصول على جزازاته ، مما يضطره الى أن يقضي حياته ناسكاً يستنسخ وينقل ، متناسياً أنه مكلف ببحث طريف. وقد يدعي ان البحث الرصين يسعى الى كشف كل الحقيقة لا بعضها ، وان الحقيقة وحدة لا تتجزأ ، ويفوته حينئذ أن هناك طريقة معينة لاستنطاق الحقيقة والنصوص المعبرة القليلة ، فلا حاجة «لسلخ» النصوص وتضخيم حجم البحث بدون فائدة تذكر. ويعود أصل الطريقة الجمّاعة الى ماضٍ سحيق ، وقد جمع الانسان ، في مضامير متنوعة ، عدداً كبيراً من الملاحظات والمعلومات والمعطيات ، وقد تابع الشاردة والواردة في أحداث الزمان وصروف الأيام. بالحقيقة لا يرتبط البحث بكثرة الأحداث المقمشة ، وقد تكون هذه من الأعمال القاموسية والمواضيع التقليدية التي قمشها القدامى أو من المواد النقلية التي سجلها الموسوعيون ، فالبحث منوط بنظرة جديدة للمعطيات وبعجم صلابة عود المادة المقمشة وباستثمارها استثماراً تقنياً كافياً ووافياً ، وبازالة الغشاوة التي تغلف النصوص الطويلة ودغمها ، قبل الوصول الى جوهرها وحقيقتها.

والبعض يكتفي بجمع القليل ، ويقتّر ويقصّر ، وتكون الكمية التي جمعها غير كافية ، وكل ما توافر لديه من المعلومات كناية عن كمية محدودة ، فيصعب عليه أن يجعل منها مستمسكات بحث مستفيض أو خامات اطروحة دكتوراه دولة.

لا يجوز الوقوع لا بالافراط ولا بالتفريط ، وعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار عامل ما يسمى بالحد الأدنى والحد الأقصى ، وخير الأمور أوسطها . وقد نخرج على الحد الوسط ، وقد نحدب على المادة المقمشة ، اذ يصعب علينا أن نتخلى عنها ، لأنها من صنع فكرنا ومن تسجيل يدنا ، وبخاصة ان هنالك عادة متواترة لدى الباحثين تعتبر ان كل مادة تتسجل وتتدون يجب أن تدخل في البحث ، ومنعاً لكل تقميش نَهِم ، نوصي

— بالامتناع عَن تقميش المواد التقليدية التي نجدها في أمهات المعاجم والقواميس والتي تشرح المفردات وتفسر المفاهيم من الناحية الاشتقاقية أو التاريخية ، ولا يجوز للتقميش أنَ يغير على **لسان العرب**.

— باهمال الأدب الصحفي الذي يسعى الى تبسيط العلوم وتيسير الفنون ، والمعلومات الموسوعية التاريخية والجغرافية التي تُستْقى من دوائر المعارف ومن مصنفات التراث ومن كتب معروفة وغير متخصصة ... وقد أدرجناها في فئة المراجع العامة ، وهي لا يُحتج بها ولا تُذكر في الدراسات الجامعية والأكاديمية .

— بالكف عن تقميش المعلومات الأولية التي يطلع عليها الباحث ، قبل أن يخوض في غمار بحثه ، لأن ما يرد فيها معروف لدى الجميع .

— بالابتعاد عن تسجيل النوادر والملح وفكاهات **كتاب الأغاني**، لأنها من سقط المتاع في بحث رصين.

النوعية : نسعى الى أن نفيد إفادة معقولة من المراجع، والى أن نحتفظ من المادة المقمشة بما يتجانس نوعياً وموضوع بحثنا وبما ينسجم ويتآلف، دون نشاز، وهدف دراستنا. ونقمش منهجياً، عندما نعود الى الأصول، ونكشفها في مظانها، وعندما نبحث عن المخطوط غير المنشور لتجزيز ما فيه من الطرافة. ويحتنا التقيد بنوعية المادة المقمشة على التحقق من قيمة المستمسكات المادية التي نلتمس، ومن وقع المعلومات التي ندون. ولا يجوز.

— ان نقمش، بشكل اعتباطي، لئلا نقع في تداعي الأفكار الرخص.

— أن ندوّن ما لا ينتظم في مجموعة، تدور في فلك بحثنا، أو أن نسجل ما يقع في حقل بعيد عن حقل اهتمامنا.

— أن نفيّش بسطحية وسذاجة مادة تافهة، لا كنه ولا لباب لها. والبعض يتوهم أن جميع مصادره ومراجعه يحتوي ثروة كامنة ورصيداً دفيناً أهملا، فيلزم نفسه ما لا يلزم، ويتولى مهمة كشف الثروة والرصيد، ونشرهما على الملأ وطرحها للتداول والتعامل، لكي يعرفا الرواج اللائق بهما، وليس بهما مادة قيّمة ولا فتات معدن نادر.

— أن نقتبس المؤلف الأجنبي وأن نعدّه حجة في العلم والعرفان، لئلا نقع في الانفتاح المفرط والتبعية العلمية والعبودية الفكرية.

التقنية: يلوذ البعض بالتقليد، ويقمش على الأوراق والدفاتر المجلدة، فمن دوّن على هذا الشكل، تقيّد بنهج معين، واستمرّ فيه مرغماً. وقد تقتضيه تارة الظروف أن يغيّر ويعدّل ويوسّع ويمدّد، فلا يرى حيلة إلا بعد العناء، أو قد يسقط بيده، فلا يستطيع الى ذلك سبيلاً. وقد تضطره طوراً الظروف أن يرجع الى ما قمّش، فيستغلق الأمر عليه، ويضطرب ويهدر وقته ويضيّعه سدىً، أو قد يصل الى ما يريد، بعد الوقت الطويل والعناء الشديد والجهد الجهيد.

يجب إذاً تحاشي التدوين على الأوراق المثبتة في مجاميع مجلدة، ويجب الأخذ بأساليب الحياة المتطورة وبشيء من التكنولوجيا الحديثة حتى في شؤون تقنيات البحث. ويُفترض فينا أن نجمع مادة التقميش على جزازات متحركة تطلق يدنا وتحررها، وتتيح لنا تقديم وتأخيرما نشاء، وتيسّر لنا عمليات القيد والتوثيق والترتيب والتصنيف، وتجعلنا نُنفِّذ هذه الأمور بأقل ما يمكن من الوقت. ولا غروى أن من يحسن استعمال الجزازات يتحقق عملياً أنها تشارك في منهجيتها أساليب التنظيم المتبعة في فنون التوثيق المتطورة، وأنها تستمد مقوماتها من نظرية المجموعات الرياضية (théorie des ensembles) التي تصنف المعطيات وتنظمها بموجب مقولات

فكرية تتمتع بدرجة عالية من التجريد. فالتقميش على جزازات ينظم المعلومات، ويدرجها في مجموعات، ويسهل علينا الوصول اليها، ويوفّر علينا أتعاباً جمّة، ويقودنا الى هدفنا بأنجع الوسائل وبأقرب الطرق.

من المعلوم أننا لا ندون إلا على وجه واحد من الجزازة، ومن المتعارف عليه أن الجزازة تتحرك، بمعنى أننا ننقلها من مجموعة الى أخرى أو أننا نبدل مكانها ضمن المجموعة الواحدة، ومن المعلوم أن الجزازة تخضع للتمزيق والاطراح والاستبدال والتعديل الكلي أو الجزئي...

إن الجزازات وأحجامها وألوانها ومقاييس دروجها أو جواريرها أمور مادية، ولكنها خطيرة، إذ أصبحت من صميم تكنولوجيا البحث ومن عدة الباحث المطروحة في الأسواق، ومن السلع المعروضة للبيع والشراء. ولا بدّ لنا من أن نعرض بإيجاز الحد الأدنى من الوسائل التكنولوجية التي يحتاج الباحث الى اقتنائها، ومنها:

١ ــ درج أو جارور صغير الحجم لتنظيم بطاقات المصادر والمراجع.

٢ ــ درج كبير أو عدة جوارير لتنظيم فيش مادة التقميش.

٣ ــ جزازة كبيرة الحجم أو لوحة من الورق المقوى، تذكرنا

بدفتر أستاذ في فن مسك الدفاتر التجارية ، وتقوم بجمع الشمل وبتوجيه التقميش الوجهة الصحيحة.

٤ — جزازات متوسطة الحجم (وقد يستعاض عنها بجزازات عادية تثبت عمودياً) توجز محتوى الباب والفصل والأجزاء البارزة والعناوين الكبرى أو تقاسيم البحث الرئيسية والفرعية.

٥ — جزازات عادية ذات ألوان مختلفة :

— جزازة الشاهد.

— جزازة التعليقات الصادرة عن الآخرين والاقتباسات.

— جزازة الانطباعات الذاتية والتعليق الشخصي.

ونعتمد الألوان المختلفة ، ونخص كل لون بمحتوى معين ، فاللون الزهر يتضمن الشاهد ، واللون الأصفر يتضمن التعليقات الصادرة عن الآخرين والاقتباسات ، واللون الأخضر يتضمن انطباعاتنا وتعليقاتنا. وهذا الترميز الألواني يقيدنا بمنهجية صارمة ، فالزهر يبين أننا بذلنا قصارى جهودنا في البحث عن الصنيع ، وأننا عوّلنا على معطيات داخلية لا خارجية ، على الأصل لا على الفرع. والأصفر يبيّن أننا اطلعنا على التعليقات الصادرة عن الآخرين وأننا حللناها واستخلصنا المعلومات منها ، وعصرناها ، قبل أن نصل إلى الرأي الخاص الذي نثبته في الأخضر. وهذا الترميز صحيح ، إذ نعتمد أولاً الشاهد ، ثم نلتمس ثانياً آراء الخبراء ، إذ لا يجوز لنا أن نتسرع في الاستنتاج وفي إصدار الأحكام القيمية والمسبقة أو تبني

موقف متشدد إزاء المشكلة ، والروح العلمية تحترم ثالثاً السندين السابقين، قبل أن تبدي الرأي الشخصي...

في ضوء تصورنا البحث وفهرسه المدروس أو المنسق ، وبواسطة الجزازات المنسقة في الدروج والجوارير ، التي نستعرضها من وقت الى آخر ، كقائد الجيش الذي يستعرض ضبّاطه وصفوف ضباطه وجنوده ، نتابع الطلب ، لنبلغ الأرب.

* * *

الفصل الثالث

تنظيم مادة الجرد

قد يجد الباحث ، بفعل الاستقصاء الذي قام به ، وهو يقمّش ويفيّش ، أنه أمام كميات مبعثرة من الوقائع الكثيرة التي بذل جهده ، في سبيل جمعها وتدوينها . وقد يحتفظ بها ، في جارور بحثه ، غير متنبه لما ينجم عن ذلك من تشويه يصيب عمله ، بخاصة إذا كانت المعلومات متنافرة وغير مرتبطة بصلب موضوعه . وما عليه إلا أن يطرح ما فيها من دخيل ، ولو اقتضى الأمر أن يتخلى عن قسم كبير من جزازاته . إن الاحتفاظ بوصلات غير متماسكة تخلخل البحث . ومن المعلوم أن البحث ليس إفراغ محتوى الجزازات أو الفيَش ، دون التقيد بقواعد متعارف عليها ، ودون تنظيم مادة الجرد ، وأنه ليس رصف قطع جميلة من الفسيفساء ، لا تؤلف وحدة كاملة أو على الأقل متكاملة .

وقد نتحرى المادة التي جمعناها ، لنتحقق أننا استنفدنا عصارة مصادرنا ومراجعنا ، وإلا علينا إنعام النظر فيها ، وإعادة الكرة واستكمال نواقص مادة جردنا . ونستمر في تنسيق جزازاتنا ، لكي تتسلسل ، وذلك باستبعاد العناصر والأقوال النافلة ، واستبقاء فقط العناصر الفعّالة التي تؤثر في سياق البحث وفي تقدمه وديناميكيته . ونقرأ محتوى الجزازات مراراً بدقة وإمعان ، ونستعرضها ، لنرى هل أنزلت في منازلها ، وهل تجمع شعث ما تفرق ، وهل تضم الآن المنثورات والتفاصيل في وحدة ، لها كيانها ، والبحث تنظيم عقلاني وبناء فكري وعمارة شاهقة ، لا ترتفع عالياً إلا بلبنات صغيرة (هي الجزازات) يضمها الى بعضها البعض مخطط دقيق وتصميم متين.

من التصور الموقت الى وضع مخطط أو تصميم : إن التصور الموقت يجدل البحث بعض الشيء ، ويسجل جوامع الموضوع ، ويرسم خطوطه العامة ، ويحدد مصطلحه ، ويتعقب المشكلات الثانوية المتفرعة عنه ، ويدخل بعض التلاحم على أجزائه ، ويوضح التصور ، ويركزه ، ويظهّره ، ويشدّ أجزاءه ولبناته ، ويوثق الصلة بين مختلف طبقاته الخفية.

إن المهندس يتصور ، والمهندس المقاول يخطط ويصمم وينفذ ، والباحث بدوره يتصور ، ولكن الباحث العملي يرسم حدود موضوعه وأجزاءه وعلاقات الأجزاء أو أجزاء الأجزاء ببعضها البعض ، ويقوم بعمليات متعددة ، منها :

— يَضَعُ مخططاً وهياكل تتوزع عليها المادة، ويرسم تصميماً يبين فيه الأفكار الرئيسية وخطى التوسع بها، وينظم كيفية تنفيذ العمل.

— يبوب الأجزاء ويرتبها ويصنفها، لكي يسير العمل، دون عثرات، وفي خط مستقيم، لا اعوجاج ولا التواء فيه.

— يدعّم الروابط التي تشد الأجزاء والأبواب والفصول الى بعضها البعض، ويراعي التساوق في الأفكار التي ارتسمت ملامحها في الجزازات الأساسية.

— يقوي زخم المقدّمات والخواتم التي تعدُّ على حق دعائم البحث وهياكل بنائه.

— يراعي وزن الكتل النوعي ويعطي كلّ صاحب حقّ حقّه، لئلا تنمو كتلة معينة على حساب جاراتها.

إن ما سبق يوضح التصور ويحوله الى تصميم يرسم أقسام البحث الرئيسية، ضمن أبواب وفصول، تعتبر تقاسيم من أجزاء متماسكة منطقياً، وتدخل عامل الترابط والتماسك، وتُسلسل الأجزاء بالنسبة الى طبيعة المشكلة، وتركز البحث على فهرس عام، وتؤسسه على ثبت المصادر والمراجع أو الجدول البيبليوغرافي الذي نعتمده في موضوعنا. ويتألف حينئذ مخطط البحث أو تصميمه من:

* عنوان عام أو رئيسي وعنوان فرعي.

* مداخل قد تتألف من توطئة وتمهيد ومقدمة.

* متون مع أجزائها (الجزء التنظيري، الجزء العملي) أو متون مبوّبة (الباب الأول، الباب الثاني، الباب الثالث...) وتُوزّع مادة المتون والأجزاء والأبواب على فصول.

* خاتمة.

* بعض التوثيق المرحلي والبيبليوغرافيا الموقتة.

وعلينا أن نتعرف على أجزاء العمارة أو البحث الآنفة الذكر، لنعي بدقة العمل الذي نقوم به.

* **العنوان**: تقول عامة الناس: «يُقرأ المكتوب من عنوانه». ويُقرأُ أيضاً البحث بدءاً من عنوانه الذي يعبر بوضوح عن المشكلة التي ننوي معالجتها. والبعض يتعمد الغموض ويعنون بحثه (**عبقر** مثلاً) وكان عبقر يدل على منزل أو مكان يزعم العرب أنه كثير الجنّ، وقد أخذ يدلّ اليوم على سيّد الشعر الذي يسيطر على الناس بحذقه وكمال خصاله وقوة مخيلته وقدرته على الخلق والإبداع. وينطبق حينئذ لقب عبقر على العديد من الشعراء، في دنيا العرب وأثناء تاريخهم الحافل بالشعراء الفحول. ولا يكتنف الغموض العناوين العربية فحسب، بل يلفّ أيضاً عالم الغرب، وقد اهتدينا في باريس، الى مؤلف قيّم يحمل عنوان **المنزوي والأعوج**

(le Reclus et le Retors) هو من أفضل ما جادت به قرائح الباحثين في الأدب المقارن.

وعلينا أن نبتعد عن السَجع ، وكلنا يذكر **ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر**... ولنا العديد من العناوين التي وردت على غراره والتي تهتم بموضوعنا ، منها :

— **كتاب الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع.**

— **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.**

— **نزهة الألباء في طبقات الأدباء.**

— **إنباه الرواة على أنباه النحاة.**

— **هدية العارفين في أسماء المؤلفين.**

....

كما أن لنا عناوين أخرى تلاعبت بالألفاظ والكلمات ، وتعود إلى عصور خلت : وفاء الوفا ، تهذيب التهذيب ، فوات الوفيات ، البداية والنهاية... وقد نقل البعض عادة تسجيع العناوين الى علوم عالمنا الحديث : **دليل الأعارب الى علم الكتب وفن المكاتب ، إرشاد الأعارب الى تنسيق الكتب في المكاتب**... وقد نستسيغ العناوين التي نسجت على منوال ما تقدم لدواوين الشعر ، ذلك الكلام الموزون المقفّى الذي يطرب الآذان بقافيته المسجّعة ، والذي يداعب الخيال ببديعه المجنح !

وعلينا أن نتحاشى العناوين الكاذبة والخداعة والتي تسعى الى أن تغطي السماوات بالقبوات ، كما يقولون ، والتي تبتغي أن تلبس محتوى البحث المبتذل والسطحي عناوين مسجعة ورنانة تكسو فراغاً فاضحاً ، والطبيعة تخشى من الفراغ ! ونختار اليوم العنوان الواضح الذي ينسجم وطبيعة الموضوع ، والذي يبين بجلاء محتوى البحث. وشأن عنوان البحث شأن الاسم والكنية المثبتين في بطاقة الهوية الشخصية ، ولذا ننتقي ، في أول الأمر ، عنواناً كبيراً ، ونباشر بالبحث ، ونسجله موقتاً بموجبه ، ثم نحاول حصر الموضوع بعنوان فرعي ، نضيفه على العنوان الرئيسي ، في هذه المرحلة بالذات ، فيبين العنوان الفرعي وجهة البحث ومقاربته ولونه :

عنوان رئيسي : أحمد شوقي

عناوين فرعية : (شاعر التقليد) (شاعر التجديد) (الشاعر السياسي)

عنوان رئيسي : الالتزام في الأدب العربي الحديث

عناوين فرعية : (تاريخ الظاهرة) (استطلاع وإحصاء) (نقد وتحليل)

وعلى الباحث أن يتقيد بحرفية العنوان الواحد الذي يعبّر ، في معظم الأوقات وبكفاية عن القصد ، ويكون بمثابة لقب يخص

البحث ، أو بحرفية العنوانين الأساسي والفرعي اللذين يسجلان اسماً وكنية ، على جلد البحث.

** **المداخل** : تتألف المداخل من كلام حصري إيضاحي ، يوطّيء ويمهّد ويقدّم لموضوع الكتاب أو المؤلف أو البحث. **والمقدمة***هي كلمة موجزة تأتي في مَطلع البحث ، وتوضح طبيعته ، وترسم معالمه ، وتحدد مستلزمات عمله من طرق وأساليب وعُدّة. **والتوطئة** تبسط موضوع البحث وتسهل فهمه ، ومثلها **التمهيد** الذي يعالج طريقة فهم البحث ويساعد المطالع على استيعابه.

آثرنا جمع هذه الأمور الثلاثة في اصطلاح المداخل ، لندل على أننا نعثر في البحوث على نص واحد (مقدمة) كحدّ أدنى ، أو على نصين (توطئة + مقدمة أو تمهيد + مقدمة) كحدّ أقصى ، ولا تجتمع الثلاثة مطلقاً ، ولنبيّن أنها تتصدّر البحث ، وتقتصر مهمتها على عرض يوجز الهدف الذي يتوخاه الباحث من وضع دراسته ، وعلى رسم حدود الموضوع وأجزائه الرئيسية وعلاقتها ببعضها البعض ، وعلى تنويه يُذكر فيه طريقة البحث وعدّته. ومن المعلوم أن المداخل تخضع اليوم لقوانين موضوعيّة ، علينا ، في أدب البحث ، أن نتقيّد بها.

---

* ونخص بكلمة **فاتحة** السورة الأولى من القرآن الكريم ، وهي الأقصر ، ونعني **بالاستهلال** مطلع القصيدة ، ونطلق كلمة **الافتتاحية** على المقال الهام الذي يصدر في الصفحة الأولى وفي مكان بارز من الصحيفة أو الجريدة...

إذا اضطربت المداخل غمض غرض البحث، وتفككت أجزاؤه، وتغلّبت عليه عمليات الترقيع والمطمطة، وكثرت فيه الخنادق والممرات والطفرات والوثبات والقفزات والشطحات، وذهب فيه الباحث كل مذهب، وأخذ يتقلب في شعاب الموضوع ومعارجه في غير ثقة بالنفس، ويعقد الفصول في غير تساوق ولا تسلسل. فلا يجري البحث على سنن العقل والمنطق، وتضطرب فصوله ولا تتوازن، ويغمض غرضها وتنحل عراها، ويتحول البحث الى عملية اعتباطية والى خبط على غير هدى. وتؤدي المداخل غايتها، في حال أنها:

— تنظم البحث وتجعله يتطابق وعنوانه،

— تهتم بالمبادئ والعموميات وتتحاشى التفاصيل الثانوية،

— ترسم خطة عمل لمعالجة الموضوع، يسير الباحث بموجبها، ولا يجوز بشكل من الأشكال أن يحيد عنها، وتبرز شخصية الباحث الذي يحدد موقفه من الدراسة، ويلتزم به معنوياً وأدبياً، ولا يظهر معدن البحاثة الأصيل إلا من موقفه الذي يدعمه بقدرته في التجرد عن الهوى وفي الذود عن بحثه في آن واحد.

— تؤلف النبذة الموجزة (والبعض لا يقرأ من البحوث إلا المداخل) التي تختصر مسائل خطيرة، وتقتضب أموراً هامة.

ولا تؤدي المداخل غايتها إلا عندما تأتي نتيجة عمل دؤوب نقوم به يومياً، ونستدرّ به لمحات الإشراق والكشف، والإشراق

هنيهات معدودات نسعى الى تثبيت ومضاته على جزازات الانطباعات الذاتية التي سوف تساعدنا على كتابة المداخل. وتبقى المداخل بصورتها الموقتة، مدة طويلة، إذ من المتوقع أن تعترض الباحث أفكار ومفاهيم تعدل جزئياً مضمون البحث الذي يبقى عرضة للتغيير والتعديل، في ضوء ما تتوصل اليه الفصول المتعاقبة، وفي ضوء صعوبات التنفيذ التي نصطدم بها أثناء السير بالعمل، لا سيا أن لصناعة الكتابة مقالبها. وتبقى المداخل عرضة للتعديل، طالما أننا نزيد جزازات جديدة ونضيفها الى القديمة، بأمل صوغ محتواها النهائي بعد الفراغ من كتابة البحث بكامله. ويعرف المتمرس على البحث حق المعرفة أن المداخل والخاتمة، يمكن تعديلها وتطويرها، وأنها لا تتخذ شكلها النهائي أو المطلق إلا في نهاية المطاف.

إن المداخل في مرحلتها الراهنة، وهي بصورة جزازات، تصلح لأن نستأنس بها كدليل عام وخطة عمل موقتة. وتجدر الإشارة، في هذا المجال، أن لكل بحث مداخل، تتنوع وفق طبيعة الدراسة وحجمها وأبعادها، وأنه من الصعب حصر مادة المداخل في نقاط معينة وفي عناصر محددة، والتقيد بحرفيتها، وكلها أمور استنسابية، ولكن من المتواضع عليه اليوم أنه ينبغي على المداخل أن تتضمن العناصر الآتية:

* اختيار الموضوع وتسويغه.
* تعريف المشكلة وتحديد أبعادها.

* العدة والمنهجيات ، والعقبات التي تعترض الباحث وما ذلل منها وما بقي عصياً.

* تنويه الاعتراف بالجميل.

واليكم مفصلة العناصر المذكورة أعلاه.

اختيار الموضوع وتسويغه : الاختيار هو استبعاد وانتقاء في آن واحد. ونستبعد سيرتنا الشخصية التي تمتزج بخصوصياتنا ، ونتحاشى معالجة أوضاع لبنان وشؤون الحرب والسلم. ومن المعلوم أن هناك معاهد متخصصة بدراسة قضايا التسلح والسلام والحروب والنزاعات ، وهي تمنح شهادات عالية للذين يتقدمون ببحوث تتصدّى لهذه الأمور الخطيرة. ومن المعلوم أن معاهد علوم اللغة والأدب تمنح شهاداتها حصراً للمهتمين بشؤونها.

وقد نستبقي أسباب الاختيار التي تنبع من صميم قلوبنا ومن أعماق نوازعنا ودوافعنا ، وقد نشعر ، بفعل اختيارنا ، بمدى تجاوبنا مع القضية المطروحة ، ونسوّغ ونبرّر* عملاً شخصياً ومغامرة فردية نعيشها من الداخل ، ونضفي عليها من أنفسنا صبغة الوحدة الموحدة ، ونكرّس معظم أيام حياتنا لهذا التمرين الشاق والعمل الصعب الذي نسميه البحث ، وهو ابننا الحبيب الذي به نُسرّ.

---

* برّر بمعنى سوّغ ، والأصل من الدارج الذي دخل اللغة الفصحى الحديثة ، وأضحى من الصحيح.

وقد نكبت **بالانتقاء من الاختيار** الأمور الآنفة الذكر، ونوضح موقفنا العلمي، ونبين مغزى ما انتقيناه وأهميته بالنسبة الى اللغة والأدب بخاصة.، وبالنسبة الى بعض من العلوم الموصلة أو من مجالات فكرية وثقافية واجتماعية بعامة. ونسوّغ ضرورة موضوعنا بالنسبة الى الدراسات والتيارات التجديدية القائمة، ونبرّر رأينا، بشكل علمي، مستندين الى الوقائع والبراهين، ومسلّحين بقدرتنا على ابتكار المخارج الجديدة وعلى استنباط الحلول الطريفة. ويكون انتقاؤنا اتخاذ موقف واضح، يتسم بسمة العلم الحديث، وينبني على المنطق الصائب والقناعة الشخصية.

تعريف المشكلة وتحديد أبعادها: نعتبر المشكلة التي يثيرها البحث الجامعي فرضية أو قضية، كما يقول المناطقة، ولكل قضية مصلحها المتخصص وحقول معانيها المحصورة التي تساهم مجتمعة، لتؤدي معنى المعنى. وَلِتَضبُطَ كيفية إدراك معاني المفاهيم، كما ترد في بحثنا. ولا يجوز أن نعرف المفاهيم بالعودة الى التحديدات التي تذكرها المعاجم والقواميس وشروحات الموسوعات ودوائر المعارف، بل نعرفها، تواطوءاً وتواضعاً، بالنسبة الى الوظيفة التي تؤديها في بحثنا بالذات، فنحدد بوضوح المفهوم الأساسي الذي يوجّه الرسالة، ثم المفاهيم الفرعية التي سيتضمنها بحثنا، والمعنى الذي سنخصه بتلك المفاهيم.

وبعد أن نثبت وجود قضية ننوي استقصاءها، نسوّغ دراستها، مبيّنين أنها ضرورة علمية، وبعد أن نعرف مفاهيمها التي تتمتع بدرجة

عالية من التجريد، ننتقل الى عرض الفرضيات الأساسية التي نعوّل عليها في بحثنا، وما يتفرع عنها من مشكلات، وما ينجم عنها من مضاعفات، ونضم شتاتها الفرضية في مخطط عام، يحدد أطر البحث، ويرسم خطوط الموضوع، ويعرف أجزاءه وعلاقاتها ببعضها البعض، ونذكر كيفية التوسع فيه، وكيفية تنظيم أجزائه، بشكل منطقي ومتساوق، وضمن تصميم نتقيّد به ولا نحيد عنه.

وقلّما نلجأ الى وصف جذور القضية التاريخية وكيفية تطورها، بل نحصرها في أطرها الواقعية والمنطقية. ونعرض بإيجاز الحلول التي قدمت لها، والحلول المتوقعة لها، وما يمكن أن يقوم به بحثنا، في هذا المجال، ونستقر على حلّ واحد، نتوخى أن نجني منه، إما فائدة عملية تطبيقية لا تعفينا من تنظير القضية، إما فائدة علمية تخدم أغراض تقدم المعرفة، ونختم، مركزين على مدى قابلية الحل للتعميم.

العدّة والمنهجيات والعقبات التي تعترض الباحث: لا يؤدي البحث وظيفته، إلا إذا امتاز بجودة منهجه وعدته، ونقوم بصياغة المنهج الذي نتبعه في دراستنا، ومن الضروري أن نذكر بإيجاز أن منهجنا يتقيد بالموضوعية، وأنه يبرز أسلوبنا العلمي، وتسمى مجموعة هذه الأمور طريقة معالجة الموضوع التي تستعين بعدة مناسبة.

وهناك عدّة فكرية وعدّة مادية. وتتألف العدّة المادية من خطة صالحة لمعالجة المشكلة من حيث طبيعتها، ومن مقاربة تظهر من

عنوان البحث الفرعي (نقد وتحليل — شاعر التجديد — استطلاع وإحصاء...) ومن منهجيات وطرق استدلال ووسائل كشف وتنظير ونظريات وما إلى ذلك. وتقوم العدّة الفكرية بصوغ ما توسلته، بشكل معيار رياضي، يتحول الى أداة قياس وتطبيق، ويدخل القضية التي نعالجها، في مجال الموضوعية والتفسير الرصين والاجتهاد الخلاق.

ونستعين بالمقاييس الموضوعية*، وبالعدة المادية التي تزودنا بها، لنقوم بمستلزمات العمل الميداني، ولنحقق الاجراءات العملية. ومن عدة الباحث في اللغة والأدب البيبليوغرافيات والمستندات والوثائق والنصوص، والعلوم الموصلة أو المساعدة التي تقيم أحياناً صلة متينة بين بحثنا وبين الدراسات الجديدة. ونحدد العينات، خاصة في الدراسات الأدبية واللغوية المتطورة، ونقوم بالتجارب الأولية والسبر والاختبارات المرحلية والنهائية، وندقق في النتائج، لنتأكد من سلامة الفرضية التي اعتمدناها. ونشير الى وفرة أو قلة المصادر والمراجع التي تدور حول الموضوع، ونعود، لدى اللزوم، الى أصحاب الرأي والخبرة، ونلتمس منهم، لكشف ما غمض، المشورة والنصح.

---

* هالنا أمر أحدهم الذي ادّعى أنه وجد لبحثه مقاييس موضوعية استنبطها، على حدّ قوله، من «نموذج رفيع من المنهجيات الصاعدة والمتطورة، لا الهابطة والتقليدية... ومن منهج مرن ومتعدد في أطر وحدة علمية متكاملة... ومن منهج تطوري ومزيج من تطوري وتعاصري وثبوتي وخارجي واستقرائي وتحليلي وتركيبي واستنتاجي (كذا)».

وتتضافر العدة الفكرية والعدة المادية كلتاهما ، لتذليل الصعوبات التي اعترضت حسن سير البحث ، فنذكر ما استعصى علينا حلّه ، ونشير الى كيفية التصدي له . ومن المعلوم أن لكل بحث قيود تنفيذ زمنية ، وعلينا أن نتحرك ضمنها ، لانجاز عملنا .

تنويه الاعتراف بالجميل : يرى البعض أنه من المستحسن أن ينوّه الباحث ، قبل أن يختم المقدمة ، بفضل الذين استعان بهم على اتمام عمله . ونرى أننا لسنا شركاء في صنع البحث ، بل مشرفين نساعد من يلتمس عوننا ، وقد نقبل الكلمة الرقيقة والموجزة التي توجّه الينا قبل ان تطبع الرسالة ، وقد نرفضها ، عندما يتحول البحث الى كتاب يُسوَّق ويُباع ويُشرى . ولا مانع من أن يخص الباحث ، في هذا الجزء من رسالته ، بالثناء العاطر وبالشكر الجزيل الشخصيات المعنوية كالمراكز الثقافية والمكتبات العامة وسواها من المؤسسات العلمية .

*** **المتون** : لا شكَّ في أن محتوى المتون يختلف باختلاف نوع البحث ، بيد أنه يجب على المتون أن تعالج القضية بموضوعية ، وأن تغوص حتى اعماقها ، وأن تؤيد بالبرهان الافتراضات المقبولة وتنقض الأقوال المرفوضة ، وأن تضم الأجزاء واجزاء الأجزاء في كل متراص ، وأن تنظم منتثرات البحث في خط بياني شبه رياضي .

وبالاستئناس بمخطط البحث ، وبالتذرع بالفهرس المدروس ، وفي ضوء الجزازات المتوسطة الحجم أو العادية والمثبتة

عمودياً في درج مادة التقميش ، وهي التي تبرز العناوين الكبرى وتقاسيم البحث الرئيسية والفرعية ، نتعرف على مدى تماسك المتون ، اذ نستل الجزازات المتوسطة أو ما ينوب منابها من مواضعها ، بصورة موقتة ، ونفرزها ونتفحصها بروح ناقدة ، وهي التي تُعتبر ، في حالتها الراهنة وفي هذه المرحلة ، منطلقات سليمة لتنظيم معطيات البحث ، ولتحديد مفاصله ، اذ تضمن :

— وحدة القضية : يقوم البحث على روابط توثق الصلة بين مختلف اجزائه بعامة وبين أشتات متونه بخاصة ، وجزازات العناوين هي العمود الفقري الذي يضم الأجزاء في وحدة متراصة .

— وضوح الغرض : تقوم العناوين بتوضيح الموضوع ، وتلتصق بما تثيره وتجعله يتطابق والمحتوى ، وتجنبنا أن ننبئ عن بضاعة لا يجدها القارئ في مضمون مطالعته .

— توازن الكتل : نتعرف من عناوين الجزازات المتوسطة الحجم ومن عدد الجزازات التي تندرج في خانتها على توازن الأبواب والفصول ، ونفي حينئذ كل باب وكل فصل حقّه .

— التفصيل والتفريع : تتيح لنا العناوين المذكورة إثارة المشكلة كوحدة متكاملة ، واستعراض العموميات قبل الانتقال الى الجزئيات ، وتوثق الصلة بين الاجزاء المختلفة ، وتضمها في هيكل واحد ، تتلاحم أجزاؤه وأبوابه وفصوله ، وتنجدل في وحدة متينة ومتناسقة .

ويتعذر علينا أن نعين عدد عناوين الأجزاء والأبواب والفصول والفروع ، وأن نذكر تفاصيل المتون ودقائقها ، ولكل بحث قواعده الخاصة . ويتوقف عدد الابواب والفصول على مدى اتساع الموضوع وتنوّع مناحيه ، وما علينا إلا أن نعرف ، بصورة عامة ، مفاهيم الأجزاء والأبواب والفصول .

الأجزاء : قد تتألف متون الرسالة من شقين ، أحدهما ينظر والثاني يطبق ، ونسميهما الجزء النظري والجزء التطبيقي أو العملي . ونعرض في الشق التنظيري الآراء والنظريات ونرصدها ونحتفظ بما يصلح لاختبار فعاليتها . ونقوم في الشق العملي الاجرائي بتطبيق المبادئ العامة والنظريات والأصول التي وردت في الشق التنظيري ، ملتزمين بها التزاماً تاماً . ويحقق الجزءان أو الشقان وحدة القضية ، ويبينان مدى انسجام الاجراءات التي قمنا بها ، ومدى تطابقها مع النظريات التي تُعد من هياكل الفكر ومن عدة العقل .

الأبواب : تقوم الأبواب بمسح القضية مسحاً شاملاً ، وتنظم المتون بموجب مقياس العام والخاص ، وقرينة القبلية والبعدية ، ومعيار المنتقى والمصطفى ، وكلها أمور تنظم وتنسق وتصنف وتضفي سمة معينة على كل باب من أبواب البحث .

الفصول : ان الاجزاء والأبواب توزع بدورها مادتها على الفصول التي تتسلسل وتتكامل وتتساوق ، فتوثق الصلة بين بعضها البعض ، فيصبح الفصل ، في داخل البحث أو الجزء أو الباب ،

كالمداك في البناء الذي يصل ما قبله بما بعده . ويكون الفصل متصلاً بما قبله اذا كان له بمثابة النتيجة أو التفسير أو التتمة ، ويكون متصلاً بما بعده ، اذا كان له بمثابة المقدمة . ومن المعلوم أن الفصل يتألف من مجموعة من الفقرات ، تحمل كل واحدة منها معلومة واحدة ، وقد نرقم الفقرات في بعض البحوث العلمية التي تتخذ شكل قضية أو نظرية (théorème)

* * *

نستهل الجزء والباب والفصل بمقدمة ، توجز الخطة التي ستتبعها في معالجة الموضوع ، وترسم الأهداف التي نرمي اليها ، ثم نختمها بخلاصة ، تتناول أهم النقاط التي توصلنا اليها ، وتمهد لما يمكن أن نقوم به في الجزء أو الباب أو الفصل اللاحق . ان هذه العمليات شبه الروتينية تؤمن للبحث تماسكه ، وتلف المتون في وحدة تامة المعنى ومرتبطة الأوصال ، وهو أمر سهل لمن يتبصر ويعرف كيف يستثمر جزازات العناوين .

* * * * **الخاتمة** : ينتهي كل بحث قيّم بخاتمة مناسبة ، ونتعامل مع خامات المداخل والخاتمة في آن واحد ، وقد نعيد كتابتهما مراراً ، وهما تكتسبان صيغتهما النهائية في آن واحد ، ويختلفان بالنسبة الى المتون التي تؤلف جذع الرسالة ، وتكون له الواحدة بمثابة الرأس ، والثانية بمثابة القدمين . وعلى المداخل ان تفتتح وعلى

الخاتمة أن تختتم ، أي على المقدمة أن تعرض الأسباب والمسببات وعلى الخاتمة أن تستخلص النتائج المقنعة التي يؤديها البحث.

وعلى الخاتمة أن تتحلى بالصفات الآتية :

— أن تقول كلمة الفصل وأن تأتي بمسك الختام ، فتكسر الطوق ولا تدور بحلقة مفرغة.

— أن تقوم بالنقد الذاتي ، وأن تطرح البحث في القسطاس المستقيم ، وأن تقيمه بعدالة ونزاهة ، اذ لا يجوز لها أن تدافع عن الزيف وعن الانحرافات التي أصابت اجزاء الرسالة.

— أن تكون رصينة ، فلا يتخذ فيها الباحث موقف المحبذ المؤيد أو موقف المعارض المستنكر ، بل يدلي فيها بالرأي الرزين والاجتهادات الشخصية المقنعة التي تكسب البحث المصداقية.

— أن تعترف بجلال العلم ، وحري بالبحاثة الا يتباهى بما انجزه ، اذ يتنافى الغرور والعلم الحق ، ومن فضائل العلماء التواضع.

ونرى أن لنا خيارين في الخاتمة :

— الخيار الأول : نوجز مضمون البحث ، مبتعدين عن التلخيص السمج ، ونذكّر بالقضية المطروحة ، ونفصل ما قمنا به ، من خلال أقسام الرسالة كافة ، ونستعرض المراحل التي قطعناها ، ونتحاشى ذكر التعقيبات الهامشية والشواهد والأقوال والاقتباسات

التي تمطّ الخاتمة ، وتبعدها عن الهدف ، عوضاً من أن تقربها من مناله ، وتجعلها تدور من جديد في حلقة مفرغة ، أو تؤلف عودة على بدء .

ـــ الخيار الثاني : قد تثير النتائج التي تحصّلت لدينا أسئلة نكتمها خلال دراستنا ، لأن الإجابة عليها تخرج عن نطاقنا وعن قدرتنا الآنية ، أو قد تتطلب أبحاثاً جديدة ومواقف مغايرة ، أو تطرح بعض الأسئلة التي تحتاج إلى أجوبة لا يستطيع البحث ، في وضعه الراهن ، أن يجيب عليها ، فنبيّن أنها اطلالات على بعد جديد جدير بكل اهتمام . وقد نشير الى النواحي الايجابية التي جاء بها بحثنا ، ونبين ما يصلح فيها كتفرعات ومنطلقات تصح في دراسات مستقبلية ، قد تثير همم من يطلب الاستزادة والمتابعة ، والتعقيب والاستقصاء ، وتعود حينئذ خاتمتنا بالنفع العميم على الباحثين، في المستقبل القريب أو البعيد .

وقد يوفّق البعض بين الخيارين ، ويلخص القضية المطروحة ، ويعدّد المواضيع التي استبعدها ، ويسلّط على البحث المزيد من الأضواء ، ويفصل ما قام به ، فتنجلي جميع ملامح الموضوع في لوحة شاملة ، ويؤكد على النتائج التي حصل عليها . إن فن الخاتمة غامض بعض الشيء ، وعبارة **والله أعلم** التي نعثر عليها لدى القدامى ، نحملها على محمل أن البحث العلمي لا يفي بموضوعه أبداً ، وهو لا يستنفده لا لقصور العلم ، أو خطأ منهجه ، أو

محدودية قوى الباحث البشرية ، بل للاتناهي الفرضية والموضوع والقضية .

***** **بعض التوثيق المرحلي والبيبليوغرافيا الموقتة** : توثيق البحث من الأعمال الروتينية التي يكتسبها الباحثون الأصيلون عن طريق الخبرة والمراس ، اذ يمضون الحقب الطوال في المكتبات العامة ، ويطلعون عن كثب على فن التوثيق المتّبع فيها . ولا بدَّ لنا من أن نذكّر بما يجب أن نقوم به من التوثيق ، كي نذلل الصعوبات الكثيرة التي تعترضنا جميعاً . وقد ينشأ بعضها عن قلة الخبرة في اعتماد أسلوب علمي متماسك أو عن انتهاج طرق هجينة غير موحّدة ، فتمتزج الأساليب الشائعة في دوائر التوثيق المختلفة ولا تتجانس . وقد يتطلب عادة كل موضوع بحث توثيقاً خاصاً ، تحدده طبيعته ، مما يوقع الباحث في الحيرة . وكلنا يجد نفسه ، في وقت من الأوقات ، أمام صعوبات وليدة الساعة وتتطلب حلّاً سريعاً ، فنستأنس حينئذ بمؤلفات متخصصة ، لنتثبت من سلامة أسلوبنا التوثيقي ، ولا نسوق هذه المعلومات الا لنوفي بعض التوثيق المرحلي شيئاً من حقّه ، بواسطة زاد من الارشادات تتناول نوعين من التوثيق : التوثيق الايضاحي والتوثيق التصنيفي .

يهتم **التوثيق الايضاحي** ببيان ما لَنا وما علينا في المتون ، أو بتخصيص حيّز مكاني ، خارج المتون ، يلتمسه من يطلب الاستزادة ، وهو على أنواع :

* الشاهد والتضمين والاقتباس .

* الحاشية والذيل

* الجداول واللوائح والبيانات الاحصائية والمصورات والخرائط .

المبدأ العام هو أننا نستل **الشاهد من النص الأصل والتضمين والاقتباس من النص الفرع**. ونعالج المصادر أو النص الأصل أو المدونة المغلقة معالجة دقيقة وقد نستظهرها ، وهي منطلقنا الأساسي ، ونمتص عِصارتها ونجني رحيقها ، بواسطة الشاهد (وهو تعريفاً جزء من نص أصل ندخله في متون بحثنا). وهناك شروط معينة يجب أن تتوفر في الشاهد :

ـــ الأمانة : يُنقل الشاهد بحرفيته ، ويفترض وجوب تحري النص للوقوف على لفظه الاصلي ، وكما صدر عن صاحب الشاهد ، ويُعزل في داخل المتون ، بواسطة معقوفتين. ولا يجوز إصلاح خطأ فيه أو تقويم لحنه ، ويُكتَفى حينئذ بوضع بعدنهايته كلمة (كذا).

ـــ العدالة : يستثمر الشاهد استثماراً معقولاً ، ولا يجوز أن يُحمّل أكثر من دلالته .

ـــ الضبط : يأتي الشاهد بموضعه ، ولا يجوز ان نشحن صفحات البحث بشواهد ، تبعدنا عن قضيتنا .

ـــ النزاهة : لا يجوز تحريف دلالة الشاهد ، وبخاصة بيت الشعر ، بغرض اقحامه في قوالب معدّة مسبقاً ، فنقوّل الشاهد ما لا يقوله ، ونحمله فوق طاقته .

ـــ الأصالة : المتعارف عليه هو أن الشاهد مهما بلغ شأنه ، ومهما تداولته الألسنة ، لا يذكر إلا مرة واحدة لا غير. لا شك في أن الشاهد الأصيل يأتي بالبيّنة ، ويتألق كالنجم الساطع ، بيد أن الباحث العدل لا يسوقه إلا مرة واحدة ، لئلا ينقلب الى قصة ابريق الزيت ، فتكراره وتواتره المرتفع ، يؤديان الى إفقاده قيمته والى تجريده من روعته .

ـــ الندرة : لا يُكْتفى بالتقاط الشواهد من الأصول المنشورة أو المحققة تحقيقاً علمياً ، بل يُبذل السعي للتحري عن الأصول غير المطبوعة ولاستلال الشواهد منها ، لأن الشاهد المستل من أصل منشور بحسنة واحدة ، والشاهد المستل من مخطوط نادر بحسنتين .

نقوم بعملية تحليل المراجع قبل الشروع بتحرير البحث وكتابته . وقد بينّا أن الفهرس المدروس الذي يتألف من مجموعة المراجع المتخصصة هو الذي يوجهنا الآن لالتقاط التضمين والاقتباس ، وللسيطرة عليهما وتسخيرهما في المتون . **ونستل التضمين والاقتباس كليهما من النص الفرع .**

ويقع التضمين بين المنزلتين : منزلة الشاهد ومنزلة الاقتباس . ولئن كان مستلاً من نص فرع ، فله سناء النص الأصل ، وهو يفعم ويقنع ويؤسس ، وكأنه منارة عالية ومحطة للأنظار .

والاقتباس أطول من التضمين، واذا تجاوز الحد وجاء باللفظ ، دون ذكر مرجعه ، يسمى سلخاً مسروقاً ؛ واذا حرفت صيغته الأصلية ودخل التصرف على لفظه ، ولم يذكر مرجعه ، يُسمى حينئذ سرقة مستورة ؛ ويصبح مشروعاً ، اذا لُخص ، في ضوء الأفكار الأساسية الواردة فيه مع الإشارة طبعاً الى المرجع المقتبس منه .

عندما نخطو الخطوة الأولى في المسائل الأساسية التي تتعلق ببحثنا ، نعود الى المراجع الحديثة المتخصصة ، ونطلع بواسطتها على انتاج علمي قيّم ، ونغربلها ونتنخلها ونستخلص منها المبادئ العامة التي تُسيّر كل مسألة علمية وكل قضية مقبولة ، ونستل منها خطط بحثنا . وعملنا هذا هو من الاقتباس غير المعلن ، اذ نستخلص بالانتقاء والاصطفاء ، وبالتضمين والاقتباس ، مقومات بحثنا ، ونكشفها في مظانها أي في المراجع بعامة والمراجع الأجنبية بخاصة ، ونستل منها مجموعة من القواعد والنواميس والقوانين والنظريات التي تحثنا على التحديث والتجديد ، وعلى وضع دراسات تتصف بالموضوعية العلمية ، وتتسم بالروحية الجديدة . ونصنف أيضاً ، في هذا النوع من الاقتباس ما ينفذ الى أعماقنا ، وما يقضي فينا على المجيء بالقول المبتذل ، وما يقوي فينا الروح الناقدة ، فنفنّد ونغلّط ونعلّق ونذيّل ، بصراحة ، قد تبلغ درجة الوقاحة ، ونبتعد عن القول الخجول وعن التواطؤ الغفور.

ونتحمل ، في سبيل الاقتباس غير المعلن ، عناء الرحلة الى

الغرب ومشقة السفر لطلب العلم ، ونستدرك ما فاتنا ، ونغبّ ما جاء من جديد في شؤون اللغة والأدب ، وما ورد في ثقافات شتى وفي لغات مختلفة ،.ويعني هذا النوع من الاقتباس أننا نستعين بانتاج الغير ، عن طريق النقل غير المباشر ، وأننا نزود بحوثنا بمعلومات حديثة ، قد نمثّل بها ، أو أننا نفسح المجال أمام انتقال منهجيات تشحذ الأذهان بجدّتها وحداثتها ، وتدخل في حيّز دراساتنا ، وتروّض الفكر العربي . وكل هذا الاقتباس اللاواعي مشروع ، لأنه أصبح من جبلتنا .

أما الاقتباس بمعناه الضيّق فهو يقع بين قطبي يجوز ولا يجوز :

— لا يجوز الاقتباس الطويل ، لئلا يقصر الساذج عمله على وصل الاقتباسات بعضها ببعض ، ويكتفي بسرد مضمونها ، فيصوغ رسالة جامعية سطحية ، ويعيد ما عبّر عنه الاقتباس ، دون زيادة أو نقصان .

— لا يجوز أن يتحول البحث الى مصب ترفده الاقتباسات المتنوعة ، وتأتيه من كل حدب وصوب ، لئلا يفلت الأمر من يد الباحث الذي يعتمد معطيات غريبة عن نوعية عمله ، فيعجز عن أن يقلمها في لوحة عامة ، متآلفة الألوان ومتجانسة الأشكال ، وعن أن يقارنها بما يُحيط بها ، لكي تنسجم مع جاراتها وتدخل في تنظيم معيّن وتؤلف لبنة من لبنات الدراسة .

— لا يجوز أن نسوق الاقتباسات عشوائياً ، دون أن نميّز

السمين من الغث ، بل يجب أن ندرك أبعاد بحثنا ، فنتحاشى المعرفة الموسوعية السطحية ، ونتقيّد بشروط البحث المتخصص .

— لا يجوز التعويل المفرط على الاقتباسات ، والتمثيل بها في المتون ، وتنزيلها فيها ، من قبيل (مثل ما أجت تجي) وعلينا أن نمهّد لها ، وأن نشير الى أصحابها في الحواشي ، لئلا نقوّل أعلام الأدب والفكر ما لم يقولوه ، ومن المعلوم أن الاقتباس يُستل من متن معين ، وأن Sartre و Valéry وBergson هم من أعلام الغرب الذين يؤثرون فينا ببريق إشعاعهم ، وأن أقوالهم المأثورة جاءت في متن يتوافق ولسان حالهم ، وفي نص يتجاوب وموقفهم ، وهم يدورون في فلك غير فلكنا ، وأن نقل أقوالهم ووضعها في غير أماكنها هو نوع من السفسطائية . كما لا يجوز استعمال أقوالهم كشواهد ، بل يجب اعادتها الى أصولها ، وأن نقول فيها (رواه فلان ... وورد في مؤلف ... وقد يصح ، وبالرغم بخلاف عالمين ، ما قاله Valéry بسعيد عقل ... ويصح ما قاله Montaigne ، وبالرغم من البعد التاريخي في طه حسين ...) التحفظ ينبّه ويعيد الأمور الى نصابها* .

---

* تكتب أسماء المؤلفات الأجنبية والألفاظ الدخيلة التي استحدثت لها كلمات عربية واسماء الأعلام الأجنبية ، في مواضعها بالحرف اللاتيني على الأقل حين ورودها للمرة الأولى ، وتعقد لها الحواشي الملائمة ، وقد نتسامح مع كبار المستشرقين (بروكلمان — بلاشير — غابريلي ...) الذين أصبحوا منّا وفينا . كما يجب ترجمة التضمين أو الاقتباس الأجنبي ، ولو ورد في حواشي البحث ، لأننا نكتب بالعربية ولقرّاء العربية .

— لا يجوز أن نكتفي باستلال العديد من الاقتباسات ، وبتقديمها على شكل شرائح جافة وجامدة ، ويجب أن نحتفظ بتلك التي تدعم فرضية ، وتحلل رأياً ، وتدفع بالموضوع قدماً الى الأمام ، وتحوّله الى شرائح تدب فيها الحياة والحركة والديناميكية . ولا يجوز أن نضيف الى الاقتباسات الملاحظات السطحية والتفسيرات الرخصة ، ويجب أن نقرنها بالتعليقات الجديرة بأن تجعل الاقتباس ينسجم مع مضمون النص الأصل ومعناه .

هذا غيض من فيض (ما يجوز وما لا يجوز) وهناك قواعد متعارف عليها ، تُتَّبع في فن سوق الشاهد والتضمين والاقتباس* ، فعلينا أن نرجع الى هذا النوع من المؤلفات التقنية التي وضع معظمها باللغات الأجنبية ، أو أن نعود الى كتب فن تحقيق المخطوطات تحقيقاً علمياً . ونؤيد ، في جميع الحالات ،

---

* ومن فنون سوق الاقتباس مثلاً :

— اذا تعدّى الاقتباس الفقرة الواحدة ، يُشار الى ذلك بمزدوجين في بدء الفقرة الأولى ونهاية الفقرة الأخيرة .

— في حال الحذف من الاقتباس الحرفي يجب وضع بضع نقاط أفقية مكان الكلمات والعبارات المحذوفة .

— اذا أضاف الكاتب كلمة أو أكثر الى النص المقتبس يجب حصر الكلمة أو الكلمات المضافة ضمن قوسين.

— اذا وقع خطأ أو لحن في نص الاقتباس فلا يجوز تصحيحه ويشار اليه بكذا .

— يرقم الاقتباس ، في جميع الأحوال ، ويحدد في الهوامش السفلية من البحث .

الشاهد والتضمين والاقتباس بحاشية ، نشير فيها الى المرجع الذي أخذت منه ، وذلك بالتفصيل التام ، وبصورة جلية وواضحة ، ووفق القواعد المتعارف عليها .

يقولون ان البحث غنيّ بحواشيه وذيوله (**وتقع الحاشية عادة في هامش الصفحة السفلى والذيل في آخر البحث**) ونقول ان البحث الحديث غنيّ بمتونه ، والذين يتعلقون بالحواشي والذيول يقومون بتوثيق ساذج ، وكأنهم يحققون مخطوطة نادرة تحقيقاً علمياً ، ويعقلون الحواشي الضافية ، لتعريف الأعلام والأماكن ، متجاهلين أنهم يكتبون بحثاً موجهاً الى اختصاصيين في مادة معينة ، وأن هؤلاء الاختصاصيين يعرفون ما ورد في كتب التراث ، وفي مصنفات السير والتراجم والاعلام والطبقات ، وفي مؤلفات المسالك والممالك والفتوحات ومعاجم البلدان .

وقد تكون الحواشي ضرورية حتى في الدراسات المتطورة ، وذلك للإشارة الى المصادر والمراجع المعتمدة ، ولتحديد معين الشاهد أو التضمين أو الاقتباس ، ولإدلاء بملاحظات وتعقيبات توضح فكرة معينة وردت في المتن ، ولتوجيه القارئ الى مكان آخر من البحث ، تنجلي فيه نقطة معينة لا يريد الباحث أن يكررها ، ولتعريف مغمور قد يجهله بعض الباحثين ، ولشرح بعض المفردات والعبارات الصعبة ...

ويرد الذيل وهو أطول بكثير من الحاشية في آخر البحث ، بينما ترد الحاشية في المواضع الآتية : في هامش الصفحة السفلى ونرقمها

حينئذ بالنسبة الى كل صفحة تقع فيها الحواشي مع مراعاة تسلسل الأرقام وتطابقها والمتون، وذلك في الصفحة الواحدة، أو في نهاية الفصل أو البحث، مراعين شروطاً معينة... ان جميع هذه الأساليب شائعة، وما على الباحث إلا أن يعتمد الأسلوب الذي يوافقه، شرط أن يحافظ على وحدة تقنية التوثيق، طوال دراسته.

وقد يواجه الباحث في إعداد رسالته صعوبات فنيّة في تدوين حواشيه، فهناك مصطلحات علمية شائعة، يُرمّز اليها باشارات معينة (مخطوطة: مخ— مطبعة: مط— ترجمة: تر— صفحات: ص. ص...) نجدها في أدب غنيّ عن التعريف.

وهناك **الجداول واللوائح والبيانات الاحصائية والمصورات والخرائط**... ولا حاجة في هذه العجالة الى تفصيلها، ويمكن وضع هذه المواد، إما في صلب البحث، إما في ملحقات خاصة في الصفحات الأخيرة من الرسالة، وبعد جدول المصادر والمراجع مباشرة.

يهتم **التوثيق التصنيفي** بجدولة فهرس المحتويات وثبت المصادر والمسارد البيبليوغرافية. ونتبع، في تلك الجدولة، أساليب مختلفة وعمليات تبويب وتصنيف دقيقة، لتصير هذه العدة قابلة للاستعمال، ويتناول هذا التصنيف التوثيقي الأعمال التقنية التالية:

* تنظيم فهرس المحتويات
* تنظيم ثبت المصادر.

* تنظيم الجداول البيبليوغرافية.

نتبيّن من فهرس محتوى البحث أو جدول المواضيع أو الموضوعات أو المحتويات ... أو **الفهرس** لا غير، ان البحث يؤلف وحدة شاملة المعنى، مرتبطة الأجزاء، متسلسلة الفصول، وهي تؤمن للباحث وللقارئ على حدّ سواء نظرة مسطحة لمحتوى الدراسة.

وقد نجد الفهرس في آخر الدراسة، أو في مطلعها، وقد نجده مفصلاً في مستهل الدراسة أو في صدر الأجزاء أو الأبواب أو الفصول، ثم مجموعاً في عناوينه الكبرى ومدرجاً في نهاية البحث، وقد تسهل هذه الطريقة الأخيرة أمر الانتقال من العام الى الخاص، اذ يستأنس المطالع بالفهرس العام، ثم ينتقل مثلاً الى مطالع الفصول ليعثر على تفاصيل محتوياتها...

لا يجوز أن تعمّ الفوضى في تنظيم لوائح المصادر والمراجع، وقد يحتاج محتواها الى إعادة النظر في تصنيفها وتبويبها، بشكل يجعل الرجوع اليها ميسوراً. ونضع ثبتاً بالمصادر على حدة، وجدولاً بالمراجع البيبليوغرافية منفصلاً انفصالاً تاماً عن المصادر. ولا يجوز بصورة من الصور أن نمزج المصادر بالمراجع، وأن نخلط عناوين النص الأصل بعناوين النص الفرع.

نصوغ بالمصادر **ثبتاً** (ونثبّتها وِفْقَ تواريخ نشرها، وبصورة نهائية في بدء عملنا) ونراعي تاريخ صدور الطبعة الأولى

(in princeps) ونسرد انتاج الشاعر أو الكاتب بكامله ، ثم ، اذا اقتضت الحاجة ، نفرز الانتاج الخاص الذي يستهدفه بحثنا ، ونحوّل المدونة من مفتوحة الى مغلقة ، ونقصرها على النص الأصل ، وهو هدف دراستنا . ويجب ، في جميع الأحوال ، مراعاة تاريخ نشر المصادر وفي طبعتها الأولى ، وترتيبها ترتيباً تعاقبياً ، حتى ولو عدنا في شواهدنا وفي احتجاجنا ، كما يقول القدامى ، الى طبعة متداولة أو حديثة لكتب التراث مثلاً .

تأتي **المراجع البيبليوغرافية** منفصلة عن ثبت المصادر . وأما من وجهة تسجيلها وتنزيلها في الجداول ، فنهم من يرى أنه يجوز إفراغ فيها جرد الفهرس المدروس الذي استعنّا به ، مما يسهّل الأمر على من يريد متابعة البحث . وقد نشر مثلاً الأستاذ Rodinson جردَهُ في دراسة مستقلة ، وحوّله الى مؤلف ، عنوانه **الدراسات المحمدية في الميزان** ، وهو يقع بين منزلتي الفهرس المدروس والجدول البيبليوغرافي ، ويُدرج في خانة مؤلفات علم التوثيق . ومنهم من يراعي في الجرد تسلسل أسماء المؤلفين الألفبائي أو الأبجدي ، ومنهم من يعتمد في الجرد تواريخ نشر المراجع ويرتبها ترتيباً زمنياً على خط التعاقب ، ومنهم من يعتمد في الجرد المنطق ، ويرتب مثلاً مراجعه المتخصصة ترتيباً فئوياً (دراسات محلية ، دراسات عربية ، دراسات مستشرقية ، دراسات أجنبية) أو نوعياً (قديمة ≠ حديثة ؛ عامة ≠ خاصة ؛ شعر ≠ نثر ...) أو لغوياً (عربية ≠ فرنسية ≠ انكليزية) .

ولا يجوز النفخ وتنظيم جداول بيبليوغرافية تصلح لمكتبة عامة لا لدراسة متخصصة.

والشائع في تدوين المراجع تخصيص خانات معينة لكل من المستمسكات التالية:

- الكتب المنشورة
- المجلات العلمية
- الرسائل الجامعية
- المخطوطات
- المقابلات الخاصة
- المحاضرات والأمالي الجامعية غير المنشورة

ولا ندوّن بالطبع ما نسميه الموسوعات والمعاجم غير المتخصصة، ونعزّز جدولنا البيبليوغرافي بمراجع إضافية وبما نعثر عليه، اثناء مطالعاتنا، من مؤلفات نستعين بها، وتكون لصيقة بموضوعنا.

ولا بدَّ من اعتماد أسلوب موحّد في توثيق المصادر والمراجع، وتنظيمها بدقة، فيتضمن كل منها على التوالي:

(**اسم المؤلف — العنوان — مكان النشر — تاريخ الطباعة أو النشر — عدد الصفحات**) وقد يذكر البعض المكتبة العامة ورقم

الكتاب الذي تمّ مطالعته فيها ، وذلك للمراجع التراثية والمخطوطات القديمة (مخطوطة ١٨٣٣ المكتبة الظاهرية في دمشق ، كتاب تراثي نادر (incunoble) رقم ٢٣٥ المكتبة الشرقية لجامعة القديس يوسف ، مخطوطة ٢٨٢٧ المكتبة التيمورية أو مكتبة بايزيد ...) .

تحتل هذه الجداول الصفحات الأخيرة من البحث ، وتلي مباشرة آخر صفحة من الخاتمة ، ولا تتخذ شكلها النهائي إلا عندما ننجز مخطوط الرسالة . وقد يضاف اليها ، في حينه ، جداول أخرى . وننتقل ، مزودين بهذه العدة ، الى مرحلة كتابة المحتوى ، بشكل أولي .

* * *

الفصل الرابع

كتابة المحتوى بشكل أولي

تعتبر هذه المرحلة من أدق مراحل اعداد البحث ، وقد يجتازها بسهولة من ضبط المراحل السابقة ، ومن انتقل في حذافير منازلها . وقد يقطعها بنجاح من طالع المصنفات التي وضعت في فن صناعة الانشاء وكتابة البحث العلمي ، والتي تمدّه بزاد إضافي من قواعد ثابتة ومنهجيات مجربة أو التي ترشده الى أساليب التعبير البليغة .

وتشبه عملية كتابة المحتوى ، بشكلها الأولي ، عملية الخياطة . وهناك **أولاً** القماش ومنه ما تصنع به البرادي أو قمصان النوم أو الأثواب الرسمية ، وشأن القماش (وهو من قَمَشَ) الذي يتعامل معه الخيّاط لصنع الثوب ، شأننا مع عدّتنا ، ومنها التقميش (وهو من قمش أيضاً) التي نتوسلها لصناعة البحث . ومن المعلوم أن قماش قميص النوم لا يصلح للبرادي ، وقماش البرادي لا يصلح للأثواب الرسمية ... وكل قماش يحمل فيه معاني أهدافه ، ونقطعه لغرض

معين ، كما أن التقميش وخامات البحث مقطوعة عن قبلها وعن بعدها ، وهي غنية بذاتها وبما تحمله من معنى ومن مبنى .

هناك **ثانياً** الخياط الماهر الذي يتحلى بفضائل الدقة والصبر والأناة ، وله شخصيته التي تتجلّى من خلال أسلوبه ، وهو يضفي منها الكثير على الثوب ، ويطبق في صنعه الكثير من جني عمره ومن مهارات خبرته ، والخيّاط يلبق الألوان ويركز الأجزاء ، مستعيناً بالدبابس والمقص ، وحين ينجز عمله ، يمهره بخاتمه . ومنشئ البحث بأدق معاني الكلمة ، وهو يعرف تقنيات معينة ، يركز البحث مستعيناً بالدبابيس والمقص ، وله مزايا الأديب ، وصبر الدارس الرصين الذي يتفحص ما جمع وما قمّش ، ثم يباشر بالكتابة ، تبعاً لأسلوب يتبنّاه ويتقيّد به ولخطة معينة يسير بموجبها ، وتنسجم أجزاء الموضوع وتبتعد عن التنافر ، ويتسم البحث بسمة صانعه ، وينطبع بأسلوبه .

هناك **ثالثاً** الثوب والبحث ، والثوب للخياط هو بمثابة البحث للدارس ، ومشكلتا الثوب والبحث تأخذان ، في مطارحاتهما الموضوعية ، القماش والتقميش ، والصنعة والصناعة ، والعدّة والمقاييس ، والتفصيل والتفاصيل التي تسهم مجتمعةً بتلك العملية التجميلية التي تمثل ، في حقل التطبيق ، صناعة الثوب أو الرسالة .

ان المراحل السابقة وبخاصة التقميش والتجزيز يشبهان فصفصة البزر ، والبعض يتسلى بالتقميش ويتلهّى بالتجزيز ، طوال حياته ، ولا يكتب مطلقاً بحثاً ، فيقف على تخوم الانتاج ولا يتجاوز مراحل

الاستعداد والتأهب . ونقول أما حان الوقت ، لكي نخرج من افة الكتمان ، فنفصح عمّا في نفوسنا ، ونكشف ما استودعنا من العلم والفهم ، ونحرّر ما خفي في صدورنا ، وما توضّع في قلوبنا ؟ وما كانت المراحل السابقة ، بالنسبة الينا ، الا محطات موقتة ، أتاحت لنا بأن نتحرى ونجمع ونثبت وندون وندقق ونغربل وننخل ، فهلّا ندخل الى مرحلة الكتابة التي تضم عناصر البحث ومعطياته في كل متراص ، والتي تردّ الفروع الى أصولها الحقيقية ، في ضوء معنًى ، يتوسل التعبير الملائم .

المضمون ونظم المعنى : يتشكل المضمون مما جمعنا ، ومما دونّا ، وينتظم في وحدة متآلفة ، بموجب الفرضية التي اعتمدناها والقضايا والوقائع والمشكلات الناجمة عنها ، ونستنبط طريقة خاصة لربط الحقائق المفردة ولضمها الى بعضها البعض ، ونتذرع بها للوصول الى استنتاج القرارات والأحكام . ونحترم دور هذه الأمور عندما :

— نعالج الموضوع ولا نحيد عنه ونتعرف على أبعاده وننفذ الى أعماقه .

— نبسط قضاياه عادة لا بالطريقة التاريخية الوصفية وبأسلوب الجوارير القلّابة ، بل بالتعليقات المستمدة من ملاحظاتنا الخاصة .

— نحلّل مشكلاته بتنسيق المعلومات وبمناقشة الآراء .

— نربط اجزاءه ربطاً محكماً ، ونضم مختلف أقسامه بعضها الى بعض .

— نستنتج القرارات والأحكام .

ونعرض ما سبق بشيء من الايضاح .

* **معالجة الموضوع بعمق** : نتقيّد بالموضوع ونغوص إلى أعماقه ، عندما تكون المدونة مغلقة ، وعندما تكون المراجع مصطفاة ومنتقاة ومحدودة العدد ، فيتمكن حينئذ الدارس أن يتعمق في بحثه ، وأن يعطيه شكلاً عمودياً ، وبخاصة عندما تتوفر في الباحث شروط الدقة والضبط والقدرة على التنقيب والتعمق والاستنتاج على أكمل وجه .

يُحدد كل باحث قضيته بدقة ، ويلتمس ، في سبيل ذلك ، مدونة مغلقة تتضمن عناصر المسألة ، ثم يجدلها بموضوع متراص الأجزاء ، ويكشف ما فيه من كامن ومن دفين . ويلجأ الباحث الى معايير صارمة ، ليعالج ما في المدونة المغلقة من عناصر وجزئيات ، وليتبين تماسكها بوضوح ، وليطبق فيها معايير فعّالة ، قبل أن يقرنها بالبرهان . والمدونة المفتوحة لا تستطيع أن تلم بجوانب القضية المتشعبة ، وهي لا تؤدي إلا الى شطحات تضيع في ثناياها وتضاعيفها وحدة القضية ، فيحفل البحث بالقلق والاضطراب ، ويصبح لونه كالحاً ، ويفقد الكثير من معالمه البارزة .

نعاني الأمرين لجمع مادتنا من المراجع . ولا يجوز أن نغير على

كتب التراث ، وأن ننقل ما فيها من معلومات ، بعضها قيّم ، وبعضها الآخر يتألف من بسط موسوعي مملّ أو من حشو زائد يتألف من النوادر والأقاصيص والتفاسير التي تذكرنا بأبي معشر الفلكي ، ومن لجج من المعلومات أوردها دارسون قدامى ومحدثون . ولا يجوز أن نعرّف كتباً قديمة وحديثة ، وأن نلخص ما ورد فيها على عواهنه ، فيتحول البحث الى قول على قول (البرنامج المعروف في الإذاعة البريطانية) ويجرف الكثير من المعلومات ، وهي من نافلة القول . وعلينا ، عوضاً من أن نسهب ونستطرد ، ان نلخص ونوجز وننتقي ونقتضب ما تمثلنا .

ولا يجوز أن نجمع ركاماً من المعلومات التاريخية أو الجغرافية ، تُحطم كياننا ، فتتلاشى شخصيتنا . ولا يجوز أن نمزج الدراسات والمراجع اللصيقة بالموضوع بالمقالات التي لا علاقة لها بصميم البحث أو البعيدة عنه كل البعد .

ولا يجوز أن نتخذ من خط التاريخ ذريعة لتقديم المعلومات ولسرد الأحداث ، ضمن حدود المواضيع المونوغرافية الضيقة . لا شك في أن التحليل المونوغرافي الذي يتناول مؤلَفاً واحداً ، يتصدى للقوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها التي تضافرت جميعاً لإبرازه الى حيّز الوجود ، ولكن تحليل مؤلف واحد ، دون ربطه بالانتاج العام يؤدي الى نتائج جزئية قد نستخلصها من هذا المؤلف بالذات ، وقد يخلو منها تماماً مؤلف آخر من وضع الكاتب عينه . كما أن المواضيع المونوغرافية التي تتناول ترجمة أديب ، تتطلب

جهداً في جمع المعلومات عن حياته ولكنها لا تتناول إلا بعض الوقائع المبعثرة والحقائق المفردة. فالنظر في المواضيع ذوات الطرف الواحد هو عمل تحضيري، قد يؤدي، في أحسن الأحوال، الى تنظيم الحقائق المفردة وجمع المبعثرات، ولكن اللوحة أو الظاهرة تتألف من عناصر متضافرة ومتضامة، لا نعثر عليها ثابتة إلا في أكثر من مؤلف واحد وفي مجموعة الآثار بكاملها.

وكانت الدراسات القديمة تتألف من مقولات عامة ورخصة وغامضة، تتغلب عليها الإرهاصات الفكرية والأقوال المبتذلة، المنقولة عن مادة غزيرة، فإن المادة الشحيحة في معلوماتها تستثير همة الباحث، الذي يجد في التقتير فضيلة: المراجع الضحلة تتيح له أن يعالج الموضوع شاقولياً، وأن يتعمق فيه، وأن يستخرج أغنى ما فيه من أفلاذ وكنوز.

ويغوص الباحث الى الأعماق، ولا يمر على القضية مرور الكرام، ولا يستقر ببحثه في مرحلة التاريخ الطبيعي، عندما يقتنع بأن ذلك قد يعينه على تصنيف الأحداث، وأنه يرغب في أن يسيطر على المعطيات، وأن يعمل بها انتقاء واصطفاء، وأن يتنخلها، علماً أن تنظيرها يقع وراء تخوم التاريخ الطبيعي. ولا يجوز له أن يؤلف بحثه من مادة، تعرض وتسهب، لا علاقة لها بصلب موضوعه، وهي الأطول، ومن مادة قد تقوم بمحاولات خجولة لإيجاد نظريات سطحية ومبتذلة، وهي، على كل حال، الأقصر.

ولا يجوز له أن ينطلق من نتائج مثبتة مسبقاً في موضوعة (Postulat) بحثه ، فالنتائج ضامرة حينئذ في مداخلها ومعروفة في مقدماتها ومتوقعة في نتائجها ، بل عليه أن يستوعب ويهضم ويرتب ويبوب ، وأن يتوغل في البحث ويحركه ، لكي تأتي النتائج طبيعية ومدعمة بالبرهان. ويعتمد الباحث قناعاته الشخصية ، لا المعلومات التي ساقها ، في المؤلفات المبتذلة ، دارسون لا حول ولا قوة لهم ، وقد تعالج مواضيع شبيهة بموضوعه ، بل عليه أن يتقصى موضوعه ، ويمحصه ، ويستعرض الاحتمالات المتعددة ، ويتناول الجوانب المختلفة ، ويدخله في منحى حديث يفضي به الى نتائج عصرية. ويستنفذ البحث نفسه ، ويستنزف الباحث جوانبه كافة ، عندما يوغل في توضيح أمر مختلط أو تبديد شبهة أو إزالة التباس.

** **تقنية بسط القضايا** : من أراد أن يأتي بالأدلة ، ليدعم رأياً أو فكرة معينة ، فعليه أن يبدأ ببسط القضية ، وأن يركز على فكرتها الرئيسية ، وأن يدير الكلام حولها ، بصورة أن تنتظم عناصر مقاله كعقد ، يضم جميع الأقسام والأجزاء في سلك واحد ، وعليه أن يقدر المناحي البارزة في بحثه ، وأن يركز على العلاقات السببية في أمر التفاصيل ويدعمها بالشواهد والاقتباسات ، فيسيطر على المادة ، ولا يغرق في التفاصيل ، بل يعرض باقتضاب جوانب القضية ، ويثبتها ، ويحللها ، ويستنتج منها نقاطاً ايجابية هامة ، يؤلف منها متون البحث ولحمته. وعليه أن يتجنب ما استطاع التخلخل ، الذي يفسد وحدة الموضوع ، ويفكك أواصره.

إن آفة البسط ، بواسطة تداعي الأفكار ، تسوق الباحث الى أن يقحم مادةً أو عنصراً في بحثه ، لمجرد وجود علاقة اعتباطية وواهية بين فكرة عابرة وشقيقتها . ولا يجوز للباحث أن يأتي بفقرة أو جملة لا يتطلبها الهدف الذي يحاول أن يصل اليه ، بل عليه أن يعمل جهده دائماً للمحافظة على وحدة الموضوع ، وترابط أجزائه ، وأن يدعمه بأدلة ووقائع مستمدة من صميم الموضوع ومن طبيعة المشكلة .

ولا يتم عرض القضايا بالثرثرة الناعمة التي تقوم بين الجارة ورصيفتها التي تسكن في الشرفة المقابلة ، وباسلوب الأسئلة التي ألفناها في كتب طفولتنا ، وبطريقة «وكيف كان ذلك» التي تتواتر في **كليلة ودمنة** . ان الثرثرة الناعمة من قبيل عملية تفريغ الجزازات الجاهزة والجوارير القلّابة ، وان أساليب الأسئلة الجرارة تثير مشكلات متعددة ، لا يسيطر عليها الباحث ، وان طرح أسئلة على شكل حلقات مخرومة ، يؤلف سلسلة لا تتسلسل ، بسبب أن الرابط مفقود بين السؤال اللاحق والسؤال السابق ، وتؤدي هذه العمليات الى اتباع طريقة إفراغ الجزازات المتناقضة والبطاقات المتنافرة في بحث غير متماسك ، تتلاطم فيه الأمواج بشكل غير منظم .

ويتأمن البسط بأسلوب التقرير الذي يخفف من الشواهد التي تثقل متون الرسالة ، والذي يسوق القضايا والمشكلات المتفرعة عنها ، دون تلكوء وتباطؤ . والباحث هو الذي يقرر ، وهو الذي

يراقب نفسه ، ويقدر قيمة المعلومات ومدى قابلية تطبيقها في المشكلة المطروحة ، ويتدبر التفاصيل ، ويوجهها ضمن خط مستقيم ، من غير التواء واعوجاج ، ويشير الى الأحداث المعروفة والبعيدة عن الموضوع بتلميح أو بحاشية في ذيل الصفحة ، وما الغرض من التوسيع والتفصيل بعد التفصيل إلا بهدف الإحاطة بجوانب القضية وإشباعها تمحيصاً.

إن البسط المتسلسل ، المدعوم بالمنطق ، يردعنا عن الاسهاب والتطويل أو التخلخل الذي يقطع سلك الفكر ، ويحوّل البحث الى مفرق طرق ، تتلاعب فيه الرياح بأوراق تنتقل من مكان الى آخر ، حسب مهب الريح ، وكأن الأمر أفلت من يد الباحث ، فتطايرت أوراق دراسته ، واستقرت على هواها وكما شاء لها القدر.

*** **التنسيق والتحليل** : من أشق الأمور تقدير النمو والتنوع اللذين يحصلان للقضية الواحدة ، ويزداد عدد الصعوبات اطراداً مع مشكلاتها الفرعية . ويتم ضبط هذه الأمور بتنسيق المعلومات وتحليل الوقائع ومناقشة الآراء التي تندرج في القضية الواحدة .

نقرر الوقائع والحقائق ، انتقاء واصطفاء من مجموعات كبيرة من المعلومات ، ونتوسل لتحليل ما احتفظنا به بقوانين موضوعية وعلمية . ولا مفر من المفاضلة بين الوقائع والمشكلات وبين الحقائق الدامغة ، للتمسك ببعضها ولصرف النظر عن البعض الآخر ، ولا نرى في مثل هذه الظروف أفضل من أن ننسق المشكلات

والمعلومات والآراء على أساس أهميتها مع بيان ما يعتورها من تطور وتغيّر وتبدّل ، ثم أن ننتقل الى القضايا الفرعية . ولا يجوز لنا أن نجمع فيها مشكلات وآراء لا حصر لها ، وأن نحشر فيها حالات مبعثرة ومشتتة ، وأن نثير فيها القضايا المتعددة ، فتنفلت العينات من عقال التبويب والتصنيف والتنظيم .

لا نرى في قيام تحليل المشكلات الطويل ونقاش الآراء المستفيض سبباً وجيهاً ، ونأبى أن يهدر الباحث جهوده ، وأن يضيّع القارئ وقته في الحشد المهلهل . ولا نكتب بالحقيقة لقارئ سطحي ، ونبتغي تحليلاً علمياً دقيقاً ، يبتعد بعض الشيء عن النزعة الكلامية ، وينسق المعلومات بأقل قدر من الأدب . ان قيام علوم حديثة وتجددها المستمر واهتمامها بمشكلات التنسيق نحت نحواً مبنياً على مفهوم منطقي صارم ، لا يزال يتطور منذ أكثر من نصف قرن . وليس اللجوء الى المصورات والغرافات والخطوط البيانية والجداول الاحصائية واللوحات التوافقية أو اللوحات الجامعة الشاملة سوى بلورة لهذا التطور في مرحلته الحاضرة ، وتحقيق رائع نستثمر نتائجه على أكمل وجه ، ونتقيد بمنجزاته ، ونفيد من نتائجه ، عوضاً من أن نعبر عن المشكلات بالكتابة الاستطرادية المخملية .

ان هذا النوع من المعلومات المنسقة والمصنفة ، ومن العينات المبوبة والمكممة علمياً ، يساعد على حشر الحالات المبعثرة والمشتتة ، وعلى تقديم مختلف أجزاء البحث ، على شكل قضايا

رياضية ، مع مسائلها ومعادلاتها الفرعية ، ونوضح القضايا بجداول ، تنسق الوفير من المعلومات ، وبرسوم بيانية تقسم وتفصل ، وبجداول تعتمد الأرقام والاحصاء ، ومن شأنها أن تصنف المعلومات وأن تحلل المشكلات ، وأن تجعل الآراء مركزة ، قوية ، واضحة ومعبرة . وكلها تحقيقات رائعة ، تأتي بالبينة ، وتلبي حاجات العصر وواقع الحال .

أما تحليل الوقائع فهو لا يقف عند حدود ، هي أقرب الى تفسير التفسير منها الى التحليل ، لئلا يتسمّر البحث عند تخوم شرح الشرح ، فلا يخطو الباحث به خطوة ذات شأن ، وتتجمّد الدراسة في أطر وقوالب تشل حركتها ، وتحول دون أن تشق طريقها ، وأن تدخل في مضمار الدراسات الرصينة الحقة .

ويسرد البعض المعلومات والأقوال التي وردت لدى معظم الدارسين ، وينقلها على علّاتها ، أو يجري عليها بعض التعديلات بعمليتي تسطيح وتلخيص سمجين . ان الأشتات المجتمعات بعيدة كل البعد عن الطريقة العلمية الرصينة ، ولا علاقة لها بالتحليل . ومن المعلوم أن صفحة واحدة من الدرس المستقصي أو من التحليل المتعمق ، يستغرق من الوقت أضعاف ما تقتضيه صفحات من السرد أو من التحليل السقيم الذي يتهافت على الأشتات ، وينجرّ وراء الشطحات والطفرات والقفزات ، مما يبعد البحث عن عامل الترابط الذي يعتبر على حق المدخل الطبيعي لكل تنظير عام ، يضفي على الرسالة صبغة التماسك ، ويسمها بسمة الشمول .

يتعرف الباحث اخيراً على الموازنات والمناظرات والاستدراكات والتعقيبات والاعتراضات التي يستمدها من مشكلته ومن معلوماته المنسقة ، والتي تساعده على مناقشة الآراء وانتقاء الصائب واستبعاد الزائف . ولا يجوز له أن يسوق الرأي الخاطف غير المبرّر ، أو أن يتبنّى آراء الغير ، ويقوّلها من عنده ما يشاء وما يطيب له ، لئلا يسود طابع التحليل المنحرف ، ويطرأ التراكب المغرض وما يصاحبه من زيف جدل وكثرة خلاف وتباين تعليل وتضارب الآراء في المسألة الواحدة . وكانت هذه الطرائق المعوجة والملتوية تلبي حاجات عصور خلت ، ودواعي حقب انقضت ، وتُدْرج في ما يسمّى مسائل الخِلَاف .

**** **ضم الأقسام وربط الأجزاء** : يحتاج البحث الى عمود فقري ، يقوم عليه ، والى روابط تدخل التلاحم والوحدة على مختلف أجزائه ، وتضم عناصره إلى بعضها البعض ، لتبيّن خطواته الأساسية ومجال تحركه . وتحتاج هذه الأمور الى تصميم عام يضمّ جميع الأقسام ، والى روابط متينة تشد الأواصر.

يتطلب كل بحث تفريع الأصل الى أغصان وأفنان متعددة ، منها المحوري ومنها المفصلي. ويدل التصميم العام وفهرس الموضوعات دلالة واضحة على خطوط البحث الأساسية ، ويتم فيها درج الأبواب والفصول والاجزاء واجزاء الأجزاء ، بشكل متساوق ، ونتعرف على العموميات في أبواب البحث أو في أقسامه الكبرى ، وننتقل منها الى الخاص ومن الخاص الى الأخص . ونتبع

خطة موحدة في التبويب والتفريع ، منها الخطة العشرية ، ونجدها في كتب ، وضعت خصيصاً لهذه الغاية ، ومنها الخطة الكلاسيكية المثبت نموذجها أدناه :

الباب الأول ← الفصل الأول ← أولاً ....
ثانياً ....
ثالثاً ....
الفصل الثاني........

الباب الثاني ← الفصل الأول ....
الفصل الثاني ....
الفصل الثالث ← أولاً ← ١
٢
٣ ← أ
ب
ج

الفصل الرابع ....
الفصل الخامس ....
... ...

هناك نوعان من الروابط : الروابط المعنوية والروابط الشكلية . ان الروابط المعنوية خفية ومضمرة ، وهي تعمل على ضمّ الأجزاء في هيكل واحد ، متداخل ، يتألف من فكرة رئيسية ، تتفرع عنها أفكار شبه رئيسية وثانوية ... ويقع الخلل بخاصة في حال غياب الروابط المنطقية المعنوية . والروابط الشكلية بادية للعيان وظاهرة ، وهي توثق الصلة بين مختلف فصول الباب الواحد ، وتشد الجزء الى

غيره من الأجزاء برباط لغوي، يردع التراخي، ويشكل محطات ظاهرة بين الأجزاء المختلفة، وهي تحافظ على تسلسل الفكر، وتجمع شعث اجزاء النص وتفرعاته، وهي بالرغم من صغر حجمها هامة جداً، ونتعلمها مع تعلمنا اللغة أو بالتلقين بواسطة كتب اللغة والقواعد والمنطق. ويتأمن أيضاً الرابط بالمقدمات والمداخل والخواتم التي عالجناها في مكان آخر، أو من خلال الصفحات البيضاء ومساحات الورق وفسحاته الخالية من الكتابة، وهي ترسم ايضاً حدود الموضوع وتؤمن للاجزاء القطع والربط الضروريين.

ومن يهمل قضية الضم أو الربط يتقلب في شعاب الموضوع ومعارجه، ويتوغل في المسالك الشاقة والطرق الوعرة، في غير ثقة بالنفس ولا استقامة خطة. ومهما حاول أن يدرج مادته في أبواب وفصول، وتحت عناوين علمية ضخمة، فهو لا يزيل ما فيها من ارتجاج واهتزاز وارتباط واهٍ. ان الضم أو الربط عامل هام، يؤثر في تساوق اجزاء البحث، ويسيره في خط بياني مستقيم، لا اعوجاج ولا التواء فيه، ويكون حينئذ البيان رائعاً.

***** **استنتاج القرارات والأحكام**: يحتاج البحث إلى نظام داخلي مغلق تنبثق منه القرارات والأحكام. ومن المعلوم أن تحليل الحقائق المفردة التي قد تتوافر في بعض النواحي، والتي تقلّ كميتها في البعض الآخر، لا تؤدي الى قرارات حاسمة والى أحكام عامة. كما أن وفرة حصة العرض والسرد هي من الأقوال التي لا

تقدمْ ولا تؤخر، كما تقول عامة الناس، والتي يصح أن نردد بصددها ما قاله ابن فارس في **الصاحبي**: «والذي جمعناه في مؤلفنا مفرق في أصناف مؤلفات العلماء المتقدمين، رضي الله عنهم وجزاهم عنّا أفضل الجزاء. وانما لنا فيه اختصار مبسوط أو بسط مختصر... **انظر** مقدمة الكتاب المذكور».

عندما نتحاشى الايحائية التي تتسبب في عدد كبير من الأحكام المجانية، وعندما نلتزم بوسائل الاستدلال النظرية والعملية، وبطرق التحليل والموازنة، وعندما نمحص الاحتمالات المتعددة، نستنتج القرار، ونستقر على الحكم، ونصل الى ثلج اليقين.

أسلوب الكتابة ونظم اللفظ: التحرير تمرين عملي شاق، وهو يتيح لنا، بشكل أوضح من سواه، أن نردد بواسطته، وعلى طريقتنا الخاصة، ما استوعبناه من معنى، وأن نعيد ما قرأناه، بتشكيل جديد، عبر نظم اللفظ. ونقوم بهذا، حين نحرر البحث، ونتّبع في نظمه كتابة توفيقية، تجمع في وحدة متآلفة وبدون نشاز.

— صوت الكاتب أو الشاعر الذي تتردد أصداؤه في الشواهد،

— صوت المراجع وما تمثلنا منها، وما استمددنا منها من تضمين واقتباس،

— صوت الباحث الذي يجلجل ويغطي الصوتين السابقين.

أما صوت الكاتب أو الشاعر فهو يهز مشاعرنا ويتبلور في النص الأصل ، بلغة عالية المستوى ورفيعة الرتبة ، تغذي الفكر ، وتشحذ الروح الناقدة ، وتنمي الذوق اللغوي والأدبي ، وتوسع آفاق القارئ المتخصص والمثقف المتعمق . وبما أن النص الأصل ينتمي حكماً الى الآثار الأدبية الجميلة التي نحلّلها ، والتي ننطلق منها ونعود اليها ، علينا أن نتصدى لها ، وأن نكشف ما فيها من غموض ظاهر أو تناقض بادٍ ، فالكاتب الحق يبتعد بأسلوبه عن أسلوب تحرير الصحف ، وينسج وينظم ويوشّي نصه بالكناية والمجاز والاستعارة والتشبيه والتجنيس والسجع والتضمين والاقتباس والترصيع والتشبيه والتورية والرمز... ويتعامل مع المطابقة والمقابلة والمزاوجة والاعتراض والالتفات والتلميح والتلويح والهزل والمداعبة والتعريض واللف والنشر والتعديد والايهام وتجاهل العارف والإغراق والجمع والتفريق والتفريع والتفصيل والتقسيم . ويتلاعب بقواعد اللغة وبمعنى المعنى وبمجالات التعبير وبضروب القول ، ولا يتقيّد إلا بمبدأ مطابقة الكلام لمقتضى حاله ، وما علينا إلا أن نسترق السماع اليه .

أما صوت المراجع فهو يحمل عادة الينا لغة سليمة خالية من الأخطاء المادية ، لغة تتوسل الألفاظ والاصطلاحات والأساليب الشائعة في الصحف والمجلات والمسرح والإذاعة والرسائل والكتب والمنشورات . وقد يتحقق فيها قسط من التهذيب ، وقد تتقيّد بالأسلوب التقريري الجاف بعض الجفاف . ومن المعلوم ان لغة

التقرير المتعارف عليها في أدب الرسائل والأطروحات لا تشوبها الأخطاء ، وتتحاشى التذويق والتنميق ، وتخلو بعض الشيء من الصور البيانية ، وتجري بانضباط منطقي وبياني ، دون أن تقع في اللغو ، أو العي والعجز في إظهار المراد .

وقد نلجأ الى المراجع المترجمة ، ونقتبس منها مادتنا ، ونجد أن تعبيرها لم يقطع صلاته باللغات الأجنبية ، وأن لغتها تتعثر ، متأثرة بلغة الأصل . وقد انتقل هذا النوع من اللغة ، وشاع في الأبحاث الحديثة والدراسات العصرية ، وكأنه قد خُطط له أن يرتبط بالحياة الزاخرة بالحركة ، وأن يساير تطور العصور الحديثة . ونقدر حينئذ صعوبة الترجمة ، ومشكلة صوغ المادة المنقولة بتعبير عربي متين ، وبعيد عن الركاكة . لا شك في أن النقل تمرين شاق وصعب ، ولكنه ممكن ، ولا شك في أنه مهما بلغ من الجودة يبقى نوعاً من الانحراف عن الأصل ، وبالتالي خيانة له . خيانة لا بدَّ منها ، لنكسب اللغة العربية مرونة في مواضيع بحوث ، لم يعالجها الأقدمون من قبل ، ولنطلق الدراسات العربية من قمقمها ، ولنوسع نطاق موضوعاتها ، ولنكلمنها بالضاد ، ولنؤلسنها بلغة سلسة ، يفهمها الدارسون .

وعلينا عوضاً من أن نتأفف ، وأن نضع إشارة (كذا) إعادة ترجمة النصوص التي نقتبسها . وما كان للتقلة إلا فضل محاولة ترويض اللغة العربية . وجهل بعضهم ان الترجمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلوم الألسنية الحديثة ، وأنها تؤلف مادة غزيرة للدراسات

الألسنية الصرفة ، كما أنها على صلة بطائفة من العلوم المساعدة ، لا مفر من الوقوف عليها والاسترشاد بنظرياتها ونواميسها والاستبصار بنورها والتذرع بوسائلها واستنتاجاتها . وما فضل الباحث الحق الذي يعرف هذه الأمور التي جهلها السابقون الا أن يتحرى الأصل ، وأن يقوم بترجمته ، وأن يلوّنه بلون بحثه ، وأن يضفي عليه صبغة مقاله .

أما **صوت الباحث** فهو صوت يأتلف فيه صوت قائد السمفونيا ، الكاتب أو الشاعر ، وهو المعلم الأكبر وصوت المراجع وصوت الباحث بالذات الجهير. وتنصهر جميع هذه الأصوات في بوتقة واحدة ، وتتجانس في لغة جيدة ومتينة . لا شك في أن العالم الحديث لا يعتبر اللغة نقشاً أو رمزاً عويص الحل ، بل يعتبرها أداة تعبير ، فَعَلى لغة الباحث أن تخلو من غريب الكلام ووحشيه ومن قواعد معقدة ، يخرج معظمها على المألوف . وقد لا يكتفي الباحث بلغة وثائقية مقبولة ، وقد لا يمنعه التزامه بالأسلوب التقريري الجيد من أن يتذوق ما يقرأ ، ومن ان يتحسس جمال النصوص والآثار التي يقوم بتحليلها ، ومن أن يعتمد الأساليب الشيّقة لعرض معظم المشكلات . ولا يتسنّى له ذلك إلا عندما يفقه دقائق العربية ، ويختبر مرونتها وطواعيتها ، ويجرب تركيبها الخفي وإمكاناتها الكامنة .

وقد يعمد الباحث الى أساليب شيّقة ، ويعرض الأحداث ويحلل المشكلات ، متوسلاً السهل الممتنع ، اذ يتمتع بقوة في الأداء ، ترفده بالألفاظ الجزلة والعبارات الرقيقة والجمل الأصولية

القريبة من الفهم والإفهام . وقد يعمد الى مجاراة شاعره ، والبعض يرى أن شكه يزداد مطرداً مع التفنن في سوق المعلومات المذوقة والمنمقة ، وأنه كلما ازداد الراوي أو المقرر إبداعاً في أسلوبه الأدبي ، ازداد هذا البعض شكاً في صحة أقواله ، وقل اطمئنانه اليه . ونعلم نحن ان البحوث تكتب بالنثر لا بالشعر ، وان الشعراء هاوون ، هائمون في بحر أحلامهم ، لا يتبعهم إلا الغاوون أصحاب الخيال المجنح ، ولكننا نسمح للباحث بأن يجاري لغة شاعره ، لسبب أن الباحث الضليع باللغة يقلد الشواهد التي يضمنها بحثه ، فتحدث العدوى ، وقد تصل الى درجة النقيضة (pastiche) والمعارضة .

ثم أن البحوث اللغوية والأدبية هي من الأدب ، وليست من الجغرافيا والجيولوجيا والعلوم ، وهي تتطلب شيئاً من الإبداع . ولا تنفي مجاراتنا النص الأصل أن نلتزم بالموضوعية ، وأن نضفي على بحثنا شيئاً من الجمال الذي ينبع من ذاتنا ، وأن نمسحه بمسحة خاصة . ولئن خرج صاحب بحث كهذا على قوالب أدب الرسائل والاطروحات ، فهو اعتمد مقاربة لم نذكرها مع المقاربات ، وقلّما نقع عليها ، ونقبلها ممّن خرج على نهج البحوث ، وتقيّد بنظام خاص به ، وجدّد ، اذ رفض الموجود ، ومدّ القنوات بين معين كاتبه وينابيع لغته ، وقام بعملية لقاح بين تعبير شاعره وتعبيره ، وبين الفرادة والمألوف ، فتحول بحثه التوفيقي الى صوت مرهف ، يمتص النصوص ، ويفهم مكوناتها ، ويدرك التشابك المذهل القائم بينها وبين مظاهرها المتعددة ، فيوجهها ، على طريقته ، الوجهة الواحدة .

ان الباحث الذي لم يعدّ نفسه الإعداد الكافي لمجابهة البحث ، والذي لم يتهيأ لجميع المفاجآت اللغوية ، يجب عليه أن يطلع على هذه الأمور في مواضعها ، وقد أصبحت ضرورة من ضرورات صناعة الكتابة* .

حصيلة هذه المرحلة : الحصيلة بحث مخطوط ، يُسلّم الى الاستاذ المشرف أو المرشد الأول والى القيّمين على العمل الذين يطالعون البحث ، ويقترحون التعديلات اللازمة ، ويدلون بملاحظاتهم ، ويقيّمون هذا النوع من الانتاج العلمي ، في هوامش البحث البيضاء وفي تقرير يرفعونه الى الجهات المختصة .

المخطوطة : يُكتب البحث بخط مقروء ، على أوراق غير مجلدة وعلى وجه واحد منها ، ومن المستحسن استعمال أوراق من حجم كبير جداً تشبه الى حدّ ما أوراق الامتحانات الرسمية ، ولا يستعمل تقريباً منها إلا نصف مساحتها للكتابة ، ويترك الجزء الثاني خالياً

---

* ومن المسلمات : على الباحث أن يتحاشى نبرة الوعظ والإرشاد ؛ وألا يتكلم على أموره الخاصة ومشاكله الشخصية ؛ وعلى الباحث الغر أن يتجنب الضمير البارز المنفصل للمتكلم ، لأنه لم يبلغ درجة الاستاذية ، فضلاً عن أن استخدام التعابير التي تشير الى الذات مستقبحة ، وقال أحدهم (le moi est haïssable) وألا يتوسل أسلوب التهكم والنقد اللاذع ، فيبتعد عن رزانة العالم ورحابة صدر الدارس ؛ وأن يبتعد عن لغة الحياة ، المتقطعة الأوصال والمتوثبة مع الانفعالات ؛ وعلى من يرتكب اخطاء فادحة في اللغة ، أن ينصرف من حقل البحوث الى عمل آخر يدر عليه الرزق ، ويمكنه العيش الكريم .

وفارغاً ، على شكل هوامش عريضة لجهة يمين الصفحة ويسارها وأسفلها . ويدوّن المشرف أو القيّم ملاحظاته وتوجيهاته ، ويقترح التعديلات اللازمة ، بقلم أحمر وفي المساحات البيضاء . واذا اقتضى الرجوع الى مشرف مساعد أو الى قيّمين آخرين ، يسجل هؤلاء ملاحظاتهم ، على المخطوط بالذات ، بأقلام مختلفة الألوان (الأخضر للمشرف المساعد ، الأزرق لقارئ البحث الثالث ...) . ويقوم الباحث بتنفيذ ما طُلب منه من تعديل وتنقيح وتصحيح ، في الهوامش البيضاء وفي الأسطر المتروكة فارغة (ولا يُكتب إلا على سطر واحد ويُترك الذي يقع بعده أبيض) . ويتم تسليم واستلام المخطوط ، بموجب الاجراءات المرعية في المؤسسة الأكاديمية التي ينتمي اليها جميع المتداخلين في هذه العملية .

دور المشرف : يوجّه الاستاذ المشرف عمل الباحث ، وقد يُشرك معه استاذاً أو أكثر . ويجتمع الباحث بالمشرف وبالقيمين على عمله ، في مواعيد منظمة بموجب روزنامة عمل . ويقوم الباحث الذي تقيّد بالخطوات التي حددناها ، بتسليم أجزاء بحثه الى مرشده والى غيره من القيمين ، ويطلع منهم على الآراء والملاحظات التي تسجلت على المخطوط ، ويُسلم الاجزاء أو الفصول الأخرى على التوالي ...ولا تُسلّم المداخل والخاتمة إلا بعد الانتهاء من المتون . ثم يودع الباحث ، في آخر المطاف ، دراسته كاملة الى من يهمه الأمر ، ولا حاجة للاسترسال في وصف الطرق المتبعة في مختلف

المؤسسات الأكاديمية التي توافق على استنساخ المخطوط ، والتي تكلف الباحث بالمثول أمام اللجنة المناقشة أو الفاحصة .

من الصعب على المشرف الذي ساهم في تذليل الصعوبات التي تعترض حسن سير البحث ، ان يطلب من الدارس القيام بتعديل طبيعة البحث أو مطارحته أو تلوينه أو منهجه العام ... ... لأن هذه التعديلات الجذرية مستحيلة ، ومن المعروف أنه من الأسهل علينا أن نعيد كتابة البحث بكامله من أن نقوم بتعديله جذرياً ، ولذا يكتفي بتقديم قدر محدود من الإرشادات وكمية معينة من التصويبات والتعديلات التي تقتصر عادة مهمتها على مساعدة الباحث على تجويد نص البحث وصوغه في قالب عربي متين ، بعيد عن الركاكة والتقعّر ، وقد يشير المرشد الى الأدران والشوائب والأخلاط التي تعكر نظم المبنى ، ويطالب بتنقيح معقول ، قلّما يتناول نظم المعنى .

ولبيان ما نقوم به ، في هذه المرحلة بالذات ، جمعنا المعاني والمفاهيم من مدونتنا المغلقة أي كما وردت في تعليقاتنا المثبتة بهوامش البحوث التي أشرفنا عليها ، وفي التقارير المرحلية وفي مقالات يوم المناقشة وفي مداخلاتنا المختلفة الأشكال ، وأفرزناها ، ولا نقصد أن نعيدها الى متونها ، وأن نرجعها الى مظانها والى نماذجها التمثيلية ، ولذا جردناها من سياقها ، فأصبحت قائمة بذاتها وبمجرد حكم وجودها ، ثم رتبناها بعض الشيء في حقول صناعة الكتابة ونظم المعنى ونظم اللفظ والتصرف بفنون القول وأعددناها ، قدر

الإمكان ، الى طوائف بلاغية وزمر محدودة معنوية ، لعلّ يفيد منها الدارسون والباحثون .

ويندرج بعض هذه الاصطلاحات ، ضمن الألفاظ المتواترة والمتوارثة ، واستحدثنا للبعض الآخر الألفاظ والتعابير المناسبة . وجميع هذه الاصطلاحات معياري تقييمي ، بمعنى أن كلّاً منها يخضع للقياس والروز والتقدير وأن كل مجموعة منها قادر على أن يقنن بسلم ، له درجاته السالبة والموجبة . ولم نحتفظ إلا بسجل الألفاظ التي تقع في دركات السلم السالبة ، اذ تركز على أوصاف النظم القبيح والقول المرذول والمردود وعلى ما يدعو للاستهجان . وكمثال للتدليل على ما ذهبنا اليه ، نستعين بالعيّنة الآتية :

متجانس ≠ متنافر

مقبول ≠ مرذول

مأنوس ≠ حوشي

طَريف ≠ مبتذل

وتعاملنا مع هذه العيّنة بالقياس المتناقض ، وأسقطنا (متجانس — مقبول — مأنوس — طريف) لأن إشاراتها موجبة ، ولا نعوّل عليها في استقصائنا ، واحتفظنا بالمفردات التي تحمل إشارات سالبة (متنافر — مرذول — حوشي — مبتذل) والتي وردت في مدونتنا . وانتقلنا أخيراً من عملية تقييمية الى عملية تقويمية ، اذ تحث الإشارات السالبة الباحث وتدفعه نحو التعديل

والتنقيح والتبديل ... وكلها عمليات تحول الإشارات من سالبة الى موجبة .

ثبت العينات :

* غوغائية في التفكير وضبابية في التعبير.
* الابتعاد عن دروب التفكير الرصين والمنطق السليم .
* غمض الغرض وانحلت العرى .
* كشكول — بديهيات نجدها في الموسوعات — معلومات مقتبسة من كتب التراث — معلومات تاريخية عامة — معلومات صحفية — مطالعات هزيلة — مداخلات عامة — عرض تاريخي مسهب — روايات مبتذلة — صفحات هي من قبيل مناجاة الارواح — مجموعة من المناظرات المجانية والأجواء المفتعلة والموازنات التافهة — ثرثرة ناعمة — من قبيل تداعي الأفكار — تلخيص سطحي أو ساذج أو سمج — ديباجات منمقة وفارغة — تعليل ساذج ومضني — سرد موسوعي مملّ — وصف سطحي — الإغارة على كتب التراث .
* الشرح — التفسير — التعليق أو التعليك (وهما من باب واحد) — من قبيل قال وما قال وعقّب وذيّل وأضاف — القول على القول .
* التخلخل — المطمطة — السلخ .

* الغموض — التمحّل — التعمّل — الاعتمال — التصيّد الواهي — الإلغاز — التكلف .
* الشح — التقتير .
* الحشو — الاكتظاظ بالنوافل والأقاصيص والنوادر والملح وفكاهات حلقات السمر — الاسترسال — الاسهاب — التطويل أو الإطالة — الاستطراد — التضخيم — التذييل — الإقحام — التكرار .
* الشطحات — الطفرات — الوثبات — القفزات — نفحات الإلهام !
* الترقيع — اللصق — الخنادق — المعابر — الممرات .
* الغرغرة الكلامية — ضعف الأداء — ارباك المعنى — فساد النظم — تبلبل التعابير.
* الإفراط والتفريط — القصور والتقصير.
* التقعر — الركاكة — الابتذال — العجمعة .
* التعقيد — التعمية — التعسف — العي والعجز في إظهار المراد .
* بديهيات — عاميات .
* التعثر — الاضطراب — الخلل .
* التكرار ← الاجترار ← الاستفراغ .

* السطحي — الصحفي — الهزيل — الرخص — الضعيف.
— القلق — الملغز.
— الركيك — المبتذل — الهش — الرخو-السفساف— السمج — الضحل.
— الحوشي — الخشن — المتنافر — الغريب — المعقّد.
— المستهجن — السقيم — المردود — المرذول — المذموم.
— هنات لغوية في المعجمات والصرف والنحو وهفوات في تركيب الجمل والأسلوب.

وهذه عينات قليلة من بضاعة كثيرة، وردت في متوننا، أو في البحوث— المدونة وصنفناها على الشكل السابق، لأنها برأينا تحقق أهدافاً ثلاثة:

— ذكرناها مرتبة على خط تصنيف أفقي، وكلما قدمنا لفظة وأخرّنا أخرى، حركنا لعبة الوشائج والعلاقات، وتعرفنا على قيم المفردات والتعابير الخلافية.

— ثبتناها بإشاراتها السالبة، وجردناها من سياقاتها، لكي يفيد منها من يمارس البحث، ويتحاشى ارتكابها، فتتحقق الغاية المتوخاة وهي النفع العام.

— لم نقم، ضمن هذه الحقول المعلنة والمرسومة خطوطها أعلاه، إلا بذكر الاصطلاحات ذات الإشارة السالبة التي لا

تتكامل وتتفاضل إلا بضمّها الى رصيفاتها ذات الإشارة الموجبة ، والتكامل يتيح انشاء سلم تقييمي معياري ، سلبي وايجابي في آن واحد ، يحقق حينئذ دراسة سيميوتيكية سيميولوجية قائمة بذاتها .

* * *

الفصل الخامس

مخطوط الرسالة جاهز

يُحوَّل مخطوط الرسالة الجاهز إلى الاستاذ المشرف ، ثم الى عدد من الأساتذة القراء الذين يبدون ملاحظاتهم ، بخصوص عمل الباحث ، على النحو الذي بينّاه ، وعندما يُعاد المخطوط الى الباحث ، يقوم هذا بعمليات التصحيح والتنقيح . وقد يبقى المخطوط بين أخذ وردّ ، مدة طويلة أو فترة وجيزة ، حسب حالة البحث وحسب ما تستوجبه من معالجة . وينتهي مطاف المخطوط بما يسمى رخصة أو إجازة الطبع .

نرفق البحث بعدد من الملحقات ، وكنّا أشرنا الى بعض منها ، ورأينا أنها لا تتخذ شكلها النهائي ، الا عندما نوشك أن نسلم مخطوط الرسالة للاستنساخ أو للطبع . وتعميماً للفائدة ، نذكر ما

يمكن أن نجده جزئياً أو كلياً مع البحث في حالته الراهنة ، معلقين عليه بكلمة موجزة ، عند اقتضاء الحاجة .

١ ـــ ذيول البحث (عُرّفت سابقاً) .

٢ ـــ فهرس المحتويات أو الفهرس لا غير (عُرّف سابقاً) .

٣ ـــ ثبت المصادر (عُرّف سابقاً) .

٤ ـــ الجداول البيبليوغرافية (عُرّفت سابقاً) .

٥ ـــ المسارد الخاصة أي الجداول والمصورات والرسوم والخطوط البيانية ...

٦ ـــ يُذيّل البعض الرسالة بفهارس عامة لأعلام الأشخاص والأماكن والبلدان والأعراق والأجناس والقبائل والآيات القرآنية والحديث النبوي وكلام الأئمة ... والأمثال وأسماء الطوائف وأبيات الشعر وأنصاف الأبيات واسماء الأبطال والحيوان والجماد ... ونرى اليوم وفي الأبحاث الحديثة أنه لا فائدة من هذه العدّة التوثيقية ، وأنها من الأعمال الميكانيكية التي يدفعها الأساتذة لكي يتخلصوا من عبئها ، الى الآلة أو الى طلاب صفوفهم وكلياتهم . ونتبع في الأبحاث الحديثة طريقة ذكر **معجم الألفاظ أو معجم المفاهيم** ، ونعتبر ان الرسالة عملية تجريد ، تتوسل اصطلاحات تقنية متخصصة ومعاجم للألفاظ والمفاهيم والتعريفات الفنيّة التي تشكل حجر الزاوية في بناء البحث الحديث ، وفي تكوين هيكليته ، وفي

تحديد حقوله المفهومية . وقد تلي هذه الثبوت حاجة علمية ملحّة ، وهي توضع في مداخل البحث ، وتُعوّل عليها الدراسة ، أو تثبت في نهايته ، فيتبيّن من يمعن النظر فيها مدى التجريد الذي توصّل اليه الباحث .

٧ــ ثبت بالمصطلحات المتخصصة الأجنبية والتي نقلت الى العربية لأغراض البحث (يُهمل الثبت ، في حال وقوع مفرداته ، في كيس المبتذل المعروف ، أو في جعبة التقني المتخصص الذي لم يرد في متن الرسالة) .

٨ــ جداول الرموز والاختصارات والسيكلات (sigles) التي استعملت في البحث .

٩ــ نبذة عن البحث (abstract) يستحسن ان تكتب ، في لبنان ، باللغات العربية والفرنسية والانكليزية ، وتذكر فيها خلاصة موجزة ، تتضمن تحديد موضوع البحث ، وطبيعة مشاكله ، والمنهجيات التي اتبعت فيه ، وأهم النتائج التي توصّل اليها الباحث .

١٠ــ رخصة أو إجازة الطبع التي تصدر عن المؤسسة الأكاديمية والتي ترافق نسخ الرسالة القانونية .

ملاحظة : قد نلجأ الى الآلة والميكانوغرافيا ، في سبيل وضع كلياً أو جزئياً الفهارس والمسارد والجداول التي ذكرناها أعلاه ،

وجرد محتوياتها وتصنيفها وفرزها وتوثيقها . وقد تحول النفقات المالية دون تحقيق ذلك ، ونتولى هذه الأمور بالعمل اليدوي ، الذي ينبه صناع اليدين ، ويرشد الحرفي الماهر الى كثير من القضايا الهامة التي سها عنها ، فيتلافاها ، ويستقيم الأمر.

* * *

الباب الثالث

مرحلة نيل اللقب وزمن المقالات

مدخل

عرضنا المراحل التي تجتازها الدراسة ، قبل أن تتحول الى رسالة جامعية أو أطروحة أكاديمية . ونخصص هذا الباب لمرحلة المناقشة التي تمتاز بأقوال بليغة وبخطابات وبمقالات رصينة تدخلنا في زمن المقالات وفي عصرها الذهبي ، والتي ينال فيها صاحب البحث أحد ألقاب التعليم العالي .

وقد تبيّن لنا من تعاملنا مع المرشحين لنيل اللقب الجامعي أن البحث تمرين روتيني طويل ، والله مع الصابرين ، وان النتائج تجيء تارة ايجابية ، منذ اللقاء الأول ، لأن صاحب الرسالة ينحو بعمله النحو الصحيح ، وأن جلّ ما نطلبه منه ، طوال تعاملنا معه ، هو من قبيل الاقتراحات التي تهدف الى تحسين الانتاج ، دون المساس بمخطط البحث العام وبجوهره ، واننا نزوده بارشادات هي من قبيل الإيماءات الى شيء من التنقيح والتصحيح والتصويب وباشارات الى بعض الهفوات والهنات التي تصيب جميع الدراسات حتى الرصينة ، ويحصل منا أصحاب أعمال كهذه ، بدون صعوبة ،

على رخصة الطبع أو الاستنساخ. وقد تجيء النتائج طوراً، بعد مخاض طويل، يمتد أحياناً على سنوات مديدة، يقضيها المرشح بالأخذ والردّ، ويقوم أثناءها بمحاولات متعددة، وقد ينجح فيها بعض الشيء وقد يخفق فيها بعض الشيء، ويلتمس الإرشاد، ويُطلب منه اجراء تعديلات جوهرية في البحث، ويُنفذ التوصيات التي تصدر اليه من المشرف ومن أعضاء الهيئة الموجهة. ولا يتم، في جميع الأحوال، الحصول على رخصة الطبع وبالتالي المثول أمام اللجنة المناقشة أو الفاحصة إلا بتوفر شروط ثلاثة، تأخذ بعين الاعتبار طبيعة البحث ومستواه وشكله المادي.

يختلف البحث، **من حيث طبيعته**، بسمات تميزه عن العمل المكتبي الذي يطرح للبيع في الأسواق، وبخصائص لا تتوفر في الأمالي الجامعية والدروس والمحاضرات الكتابية — الشفوية التي نضعها في متناول طلاب الكليات والجامعات. ويختلف كلياً عن الدراسات التي تقوم بها، بشكل عرضي، جماعة لم تحصل على ألقاب جامعية، وقد تحدوها رغبة الاطلاع والنشر أو تأمين الرزق. وقد يقترب البحث، بطبيعته، من الدراسات التي ينفذها الباحثون الذي حصلوا على ألقاب جامعية، والذين يتابعون أبحاثهم في حقل اختصاصهم. وقد نسقط حكماً الأبحاث الصحفية التي يستوي فيها الذين يعلمون والذين لا يعلمون، والتي قد يكتب مثلها من لم يحصل على درجة الإجازة، وقد نستثني، حتى إشعار آخر، الابحاث الأكاديمية الجماعية التي يقوم بها فريق، وقد تصح هذه في

العلوم التجريبية التطبيقية ، وقد يصعب تصورها في الدراسات اللغوية والأدبية التي قد يعمل فيها الباحث ضمن فريق ، ولكنه يتقدم منفرداً ببحث أصيل ، يقوم به هو بالذات ، ويبرز شخصيته ، ويكلل جهوده الخاصة ، وينال عليه اللقب العلمي .

والبحث ، **من حيث مستواه** ، درجات متفاوتة وطبقات متباعدة . وليس احراز الدرجة الجامعية غاية بحدّ ذاتها ، بل الغاية من الدرجة التي يحصل عليها المرشح هو ادخاله في عداد المجتهدين ، هؤلاء الذين يبذلون الطاقات في طلب العلم ، والذين يتابعون المسيرة لكي يملكوا زمام الأمر في ما يقولون وما يكتبون ، ولكن البحث انتاج وسلعة مادية تندرج في طبقات ، وقد نؤاخذ الذين يضاربون في بورصة الأبحاث ، ويرفعون الأسعار بلا سبب ، ويهدرون جهد المجتهدين ، ولذا نفرّق ، من حيث المستوى ، بين الدراسة التي يعدّها المرشح لنيل الماجستر وبين البحث المتعمق الذي يمثل به صاحبه أمام اللجنة المناقشة لنيل الدكتوراه .

يعالج المرشح ، لنيل الماجستر أو دبلوم الدراسات العليا وما يعادلها أو يكافئها ، موضوعاً أكاديمياً تقليدياً ، والموضوع واضح العالم ولا يكتب فيه المرشح إلا لتقريره وتجليته وايضاحه ، وقد يفرغ فيه ما تجمع لديه من عدة تقميشية ومن جزازات ، وقد ينقل فيه الكثير من أقوال الآخرين ، وقد يبدي فيه ، بصوت خافت ، رأيه . وتعدّ الألقاب الجامعية ، التي ينالها المرشح جزاءً على موضوعه ، ودرجة في طريق الريادة أو مرحلة استهلالية ، قد

تشجعه على المتابعة والاستزادة ، باعتبار ان ما قام به كان تمريناً جامعياً ، وان الزمن كفيل بتمكينه من ملكة البحث . وقد يغض المناقشون الطرف عن كثير من العيوب ، ويعتبرون ان الانتاج الذي بين أيديهم تمريناً أكاديمياً أو ممارسة جامعية تحضيرية ، يقوم بها الباحث المتمرن ، في مطلع حياته الجامعية ، للوصول مع الزمن الى طرق التنقيب والكشف والحقيقة .

يعالج المرشح ، لنيل الدكتوراه بمختلف فئاتها ودرجاتها ، فرضية تثير جدلاً وخلافاً في الآراء ، وتخرج على المألوف والمتعارف عليه . ولكل فرضية مقاربة خاصة بها ، ولها خططها المسيّرة وطرائق حلّها ، ولها فلسفتها الجديدة وجدليتها الحديثة ، ويتألف حينئذ البحث أو الانتاج من رأي يبديه المرشح ، في موضوع معين ، ويلتمس حكمه من المنطق الصائب والقناعة الشخصية ، ويرفع صوته بالذات ، ليقول كلمة الفصل في الفرضية التي عوّل عليها وتبناها . ويمحص المناقشون البحث الذي بين أيديهم ، ويرون هل أصاب مرماه وبلغ هدفه ، وهل توفرت فيه شروط البحث العلمي الرصين ، لا سيما ان اللقب العلمي سيؤهل حامله دخول الجامعة والقيام بأعمال التعليم العالي وباعباء التدريس والبحث ، وانه يرقى بصاحبه الى مصاف المجتهدين والدارسين الأصيلين .

ونتوسم الخير في الرسائل والأطروحات كافة ، وقد قصرنا معظم اجزاء مقالنا على النوع السامي والرفيع منها ، دون تمييز بين درجاتها وفئاتها وطبقاتها ، ونأمل أن تكون جميعاً فاتحة وباكورة وحافزاً

يشجع دارسي المستقبل على اقتفاء الأثر وتتبع خطى القدوة الصالحة .

ويكون البحث ، **من حيث شكله المادي** ، غير مطبوع عادة ، لأن الطباعة تبلوره بشكله النهائي ، وقلّما تعاد طباعة الرسائل والاطروحات ، وقلما نجد منها طبعة ثانية مزيدة ومنقحة ، والهاجس أو الخوف هو أن تجسدها الطباعة نهائياً وعلى علاتها بصورة مهزوزة وتقريبية ، ولذا نفضل أن يناقش المرشح بحثه بنص مستنسخ ، وكأنه مجرد ورقة عمل ، فيستفيد مما يقال في جلسة المناقشة ومما يستشف من المداولات ، ويتقيّد بما يراه مناسباً ، وقد يحوّل النص المستنسخ الى كتاب يطبعه ويضبطه ويستكمل نواقصه ، فيسد به حاجة علمية بسلعة جيدة ، لا مانع من أن تعرف الرواج والانتشار .

ولا بد من الإشارة ، في هذا المجال ، الى أن المرشح يتحمل المسؤولية كاملة عن العمل المادي الذي يؤديه شكل بحثه المستنسخ أو المطبوع . والعمل المادي من الأعباء الشاقة التي يتولاها صاحب البحث (مراقبة الاستنساخ أو الطبع ، تثبيت الحواشي وترقيمها ، وضع علامات الوقف ، كتابة الاسماء الأجنبية ...) وقد نجد في أعمال المرشحين هنات متعددة ، بعضها يعود الى سوء تنفيذ العمل المادي بتكنولوجيا قديمة ، وبعضها الآخر يعود الى تهاون من قبل المرشح ، فيتشوّه شكل البحث .

ويمثُل المرشح ، أمام اللجنة المناقشة أو الفاحصة ، بعد أن

يكون قد استنسخ أو طبع عدداً معيناً من النسخ ، وبعد أن يكون قد أودعها الجهات المختصة التي تهتم بتوزيعها حسب الأصول .
والمناقشة جزء هام من عمل الباحث ، وهي الفرصة المتاحة له ، لكي يبين بالقول البليغ عمّا قام به ، ولكي يذود عن كيفية فهمه الموضوع ، وعن طريقة عرضه ، ولكي يرد على النقد الذي يوجّه اليه .

وتتألف اللجنة الفاحصة من الاستاذ المشرف حكماً ومن عدد من المناقشين ، ويمثل المرشح الغرّ أمام علماء ، قد يتلاشى أمام سعة علمهم ومعرفتهم وخبرتهم ، ويمثل المرشح المخضرم ، أمام زملاء له من جيله ، سبقوه ووصلوا قبله ، وهم اليوم وراء القوس أو المنصة يحكّمون ، وهو أمامها يحتكم اليهم .

وتدخل جلسة المناقشة المناقِشين والمناقَش والمحكّمين والمحتكِم اليهم في زمن المقالات (مقالات المرشح الشفوية والكتابية الثلاث ومقالات أو مداخلات الاستاذ المشرف والأعضاء المشاركين في المناقشة) التي سنعالجها في الفصول اللاحقة ، والتي لا تقطعها إلا فترة وجيزة من الصمت المهيب الذي يخيم على القاعة وعلى الحضور والنظّارة ، وذلك حين تدخل اللجنة المناقشة غرفة المذاكرة السوداء أو الى قدس الأقداس ، وان ما يقال فيها يبقى طيّ الكتمان ولا يُثبّت إلا في اليوميات والمذكرات التي لا تنشر إلا بعد بُعد زمني معقول . ومن هذه الغرفة السوداء بالذات يخرج الدخان الأبيض .

الفصل الأول

من مقولات المرشح الى مقالاته الشفوية والكتابية

تشكل المقالات مثلثاً ، يحتل زاويته الأولى الباحث الذي انتج ، لمناسبة ترشيحه لنيل اللقب الجامعي ، ثلاث مقالات ، وزاويته الثانية الاستاذ الموجه الذي يشرف على مقالات الباحث والذي ينتج بدوره مقالاً ، يتكلم به ، يوم المناقشة ، عن صناعة مقال المرشح ، وزاويته الثالثة الأساتذة المناقشون الذين يستمعون الى مقالات الباحث والأستاذ المشرف والذين يدلون بدلوهم بمقالات من صنعهم. وقد تختلف مقالة المشرف عن مقالات الأساتذة المشاركين ، ولكن جميع أصحاب المقالات يتحولون من مثلث الى ثالوث يهيمن على قاعة المناقشة وعلى الحاضرين بأقوال وقولات ومقالات ، وجميعها من باب قَوَل (وقول يقول قولاً وقالاً وقيلاً وقولة ومقالاً ومقالةً ... تعني تلفّظ وتكلّم وتجاوزاً دوّن ما تلفّظ به وما تكلّم به ، وتدل المصادر المشتقة من الأصل على

المفاهيم عينها) . ولا يجوز لنا أن نسرد جميع معاني قَوَل المعجمية ، بل علينا أن نذكر معنى الأصل ، وهنا تلفظ وتكلَّم ... ثم ننتقل مباشرة الى كلمتين مشتقتين من **قَوَل** ، نعوّل عليهما في بحثنا ، وهما **مقولة ومقالة** . والمعنى المقصود من **مقولة** البنى العميقة الفكرية والخلفية الذهنية التي تؤلف مادة المقالة الخفية والدفينة والتي لا تظهر على السطح . والمعنى المقصود من **مقال أو مقالة** البنى السطحية المعبرة التي تظهّر ، بما نقوله شفوياً أو بما ننتجه كتابياً ، مادة المقولة الخفية والدفينة .

ان المقولة مادة فكرية ماثلة في الذهن بصورة مجردة ، يحولها المقال من مادة مجردة الى شيء حسّي ، يتلبّس بلباس التعبير وبزيّ الصنعة . وهي تمنح الوجود بالفعل وبالقوة لمقولات الفكر التي لا تبرز لحكم الوجود إلا بواسطتها ، والتي تتحول من خواص فكرية الى خواص معبرة . وتتجسد المقولات في أشكال مادية وحسيّة ، في مستمسك من خلق التعبير الشفوي أو الكتابي أي في مقال الكلام (الخطاب) أو في المقالة المكتوبة ، علماً بأن العلاقة بين المقولة والمقالة ليست ببساطة علاقة السبب بالنتيجة . ولئن يتوسل المرء المقالة ، ويتعامل معها ، ويتصرف بها ، ليظهّر مقولات فكره ، فهو يتصدى لعملية صعبة ، حين يريد أن يبين أن المقالة تستمد بنيتها من مادة المقولة .

لا شك في أننا نستخلص مادة المقالة الخام من المقولة ، ولا شك في أن المقولة هي مادة الفكر ، وهي التي تشكل المنطلق الذي

يدفعنا الى أن نعبر عن أفكارنا وخواطرنا ، ولا شك في أن المقولة تحتوي مضمون الفكر الدفين وأن المقالة تؤلف شكله المتعضي ، ولا شك في أنهما كلتيهما متماسكتان ، اذ يقوم تبادل مستمر بينهما ، ولكن من يتبصر في طبيعة التعبير يعرف أن المقالة تختلف عن المقولة ، وأنه من الصعب أن تكون المقالة صورة طبق الأصل عن المقولة . وقد نبحث عن أفضل السبل لترجمة المقولات بمقالات ، وقد نراقب خلفيات فكرنا ، وقد نحاول أن نتعرف على كيفية تحرك ذهننا وعمله وخضوعه لبنى خاصة ، وقد نقوم بهذه الرياضة الفكرية التي تحوّل المادة المجردة الى قوالب تعبيرية هي من نوع آخر ، وقد نحاول أن نقيم التطابق والتوازي بين المقولات والمقالات ، ولكن التشكيل الجديد الحاصل للمقولة عبر اللغة ليس هو الا محاولة مع كل ما تقتضيه من انجاح ومن احباط . وقد يحتفظ المقال بمعظم أعراض الفكر ، وقد يختني شيء منها في ثنايا الذهن وطيّاته .

ان طيّات الفكر وثنايا الذهن تتألف من تنظيم داخلي لا نستطيع أن نؤلسنه كلياً ، وأنّى لنا أن نقيم الكفاءة المعبرة رقيباً على الفكر المجرد ، وأنّى لنا أن نبرز جميع مقولات الفكر بمقالات صناعية ! وهذا الأمر ليس بمقدور المقالة ، لأنها ليست من طبيعة المقولة ، ولأن التعبير يعيى عن إظهار إشارات المقولة بكاملها ، اذ يضيع بعضها ويُهدر ، ويستتر بعضها الآخر ولا يظهر في المقال . هذا نظرياً ، أما عملياً ، فالمقال الجامعي ، وهو بالطبع يكتب بالنثر ،

يبرز على شكل هرم مرصوص البنيان ، يتألف من الجملة أي من مجموعة عناصر تتضافر ، لتؤدي معنًى تاماً ، وتنضم الجملة الى مثيلاتها ، لتشكل الفقرة ، وتنضوي الفقرات في فصول ، وتنضم الفصول الى بعضها البعض ، لتجتمع في المقال أو الرسالة أو الأطروحة . والخلاصة ان المقال يتألف مادياً من مجموعات صغرى ، ترتقي مطردة الى أن تشكل صعوداً وبالتدرج مجموعات أكبر فأكبر .

يتقدم المرشح ، في حقل بحثه ، بثلاث مقالات : مقالة مقتضبة يلخص بها محتوى بحثه ، ومقالة أو مداخلة شفوية يتلوها ، في جلسة المناقشة ، ومقالة أساسية هي نص رسالته أو متن اطروحته بالذات . وندرس هذه المقالات ، منتقلين من المقال القصير الى متوسط الطول وصولاً حتى المفرط بالطول .

مقال التلخيص القصير : يقدم عادة المرشح مع بحثه موجزاً أو لمحة عنه ، يذكر أهم النقاط التي عالجها ، مثل طبيعة الفرضية وأبعادها والمنهجيات المعوّل عليها ، وبعض الخصائص التي طبعتها بطابعها والاستنتاجات أو النتائج التي توصّل اليها . ويقع هذا المقال ضمن أعمال التلخيص ، ويعمل فيه المرشح الانتقاء والاصطفاء ، ويسعى الى أن يكون بغاية الايجاز ، ولا تتعدى عادة هذه النبذة الصفحة الواحدة .

مداخلة يوم المناقشة أو المقال المتوسط الطول : يتجلى البيان

في المقالة الشفوية ، وان في البيان لسحراً . ولا يجوز للمرشح الخطيب والفصيح أن يكرر ، في مداخلته هذه ، ما ورد في مداخل بحثه وخاتمته ، لأن الأستاذ المشرف والأساتذة المناقشين يحسنون القراءة ، ويستوعبون ، على ما نعتقد ، ما كتبه المرشح ، وعليه أن يضيء لهم اذاً طريق ما استغلق عليهم ، وأن يجعلهم يتحسسون ما قام به من جهود . وعليه أن يصدّ ما يتوقع أن يُوجّه اليه من الاعتراضات التي ستستهدف بحثه والتي سيفتح بها المناقشون النار عليه ، وأن يزوّد المعترضين بمفاتيح ، تفسر كيفية عمل مقالته ، وتكشف بنية بحثه العميقة ونوعية هيكليتها . ولكل مقالة متينة فلسفة شخصية خاصة ومنطق ضمني داخلي ومقاربة واحدة لا أكثر .

يرضخ كاتب الأدب الابداعي لخواطر عابرة يسجلها في الشعر والقصة والمسرح ، بينما ينطلق كاتب المقالة الجامعية من **فلسفة شخصية خاصة به** ، ومن تفكير أصيل ، ومن عمليات معقّدة من قبيل التعقّل والتبصر . يفلسف الباحث القضية التي يعالجها أو أنه يتفلسف بها ، وتلك الفلسفة تضفي ، على جميع المواضيع بدون استثناء ، الصبغة الواحدة الموحدة ، وتضم ، في وحدة متماسكة ، تلك المقالة المركبة من عناصر متداخلة ومفرطة التعقيد ، وترسم ، بصورة شاملة حركة فكر الباحث . وقد يكون ذلك ميسوراً وسهل المنال ، لمن يتبصر في أمر مقاله ، فيباشر عمله بفلسفة موضوعه أو بالتفلسف فيه ، وبالنظر في الأسباب والمسببات ، وبدرس العوامل اللاحقة وتأثرها بالسابقة . ان الفلسفة دعامة المقال الأساسية ،

وهي تحوله الى معاناة جدّيّة لقضية مطروحة ، عاشها الباحث من الداخل على مدى سنين طويلة ، ويفضحها يوم المناقشة .

إن طرق الاستدلال **بالمنطق** عديدة ، منها عربية واسلامية أصيلة ظهرت مع علوم الفقه ، كتيقن القياس لوضع القوانين ، والاجتهاد في أصول الفتاوى والأحكام ، ووقع الرأي والاستحسان والاستنساب ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، وكيفية الاجماع وماهيته ، ومعرفة الخاص والعام... ومنها كلاسيكية كالاستقراء والاستنتاج والتحليل والتركيب والتعميم والتجريد... ومنها عملية ميدانية كالمشاهدة والتجريب والاختبار والسبر والروز... ولا حاجة الى بيان غنى وسائل الاستدلال والى تنسيقها وتبويبها ، والى شرح ما تقتضيه من تدقيق وتحليل واستقصاء ، اذ نكتفي في المقال بالقدر القليل المسيطر ، ولا نقصد هنا إلا الطريقة الوحيدة التي تهيمن على المقال ، والتي تلبسه حلة التجريد ، والتي تنقل ، إن صح التشبيه ، المقال أو التفاحات الثلاث الى العدد ثلاثة المجرد ، والتي تحوّل المقال الى منطق صرف ، يستقل عن العوارض الخارجية ويحتوي بذاته معناه المجرد والناجز والقاطع .

إن المقال يحمل في طياته أشياء مفهومة وأخرى غامضة في آن واحد. وقد نفهم بعض الأشياء بواسطة المنطق الخارجي الذي يرسم خطى سير البحث ومراحله وتحولاته ، والذي يضم العناصر والجزئيات والمنثورات بوحدة متكاملة ، أو قد نفهم بعض غموض المقال بتفحصنا شكله وبنيته ، وبانطلاقنا من علوم لسانية تعالج

قيود اللغة وميكانيكيتها ، كما سنرى لاحقاً . ونبحث عن منطق المقال الضمني الذي يزودنا بمفتاح يرشدنا الى شيفرة معينة ، تضيء لنا أنواره الداخلية ، وتبيح لنا أسراره الخفيّة .

وعندما يستعين الباحث بمنطق ضمني يتخطى حدود المنطق الظاهر والخارجي ، وعندما يقوم بتنظير عميق ، يضبط وسائل الاستدلال ، ويجعلها تبلغ درجة من التماسك ، وتتمتع بدرجة عالية من الشمول والتجريد ، لم يبلغها المنطق الخارجي ، يحتاج حينئذ المناقش الى مفتاح يسبر به أغوار البحث ويكشف مكنونات مشكلاته المعقّدة . ولئلا يقع القارئ في ايحائية مبهمة ، تتلطى وراء المنطق الخارجي ، ولئلا ينفتح باب التأويل على مصراعيه ، يشرح الباحث المنطق الضمني الذي يقوم عليه بحثه ، ويبرره ، ويضع بين أيدينا مفاتيح تسهل علينا سبل فهم ما أُغلق فيه .

إن المقال نص ، ويحتاج كسواه من النصوص الى إحالة اليه ، تماماً كالمفردات المجردة التي تتألف من دال ومدلول يربط بينهما المحال اليه (le référent) ومن قائل أنه لا إحالة للنص ، بمعنى ان النص الأصيل والفريد والفذ هو من عمل الابتكار والخلق والابداع ، وقد يصح هذا الرأي في الصانع أو الفنّان الذي لا يلتمس خلفيات أو سوابق تساعده على انتاج الشعر والقصة والمسرح ... ومن قائل ان النص يحيل الى مجموعة من التفسيرات والتأويلات في آن واحد ، وقد يصح هذا في أدب الابداع السوريالي ... ومن قائل ان النص يعود الى شبه محال اليه ، بمعنى

ان النص يعود الى نموذج مطبوع في ذهن صاحبه ، وفي فكر المطالع او القارئ الذي يتلمس ظلَّ هذا النموذج ، بغية استيضاح ما أُبهم وما أُغلق . ويقع المقال الجامعي في فئة النصوص التي تحتاج الى شبه محال اليه ، ولا شيطان يلقن صاحب المقال ما عليه أن يقوله ، ولا مجال أمام القارئ للايحاءات الما فوق الشعورية الغامضة وللايماءات السوريالية المتعددة المعاني .

وعلى المتقدم أن يعلم ان المقال من الأدب الناقد الذي يتسم بسمة **المقاربة** ، ويتلون بها ، ولا يخرج عليها مبدئياً . وهي التي تضفي صبغة الانسجام على الدراسة ، وتلونها باللون الواحد ، وتحوّلها الى طريقة اجرائية تساعد على تحليل الرموز ، ولذا يجب عليه أن يستهل بحثه بذكر المقاربة التي ينتقيها ، وأن يبين أنه اختار من المقاربات تلك التي تتلاءم وطبيعة بحثه . ولوكان للبحث الجامعي اللغوي والأدبي مقاربة واحدة ، لأعفينا المتقدم من الكلام على مقاربة بحثه ، ولكن البحوث اللغوية والأدبية تتوسل مقاربات متعددة ، ذكرناها في الباب الأول من الفصل الرابع ، ولا نعود اليها إلا لنصورها على شكل هرم أو سلم بدرجات ، ولننسب اليها قيماً ، بموجب معايير أصالتها أو مدى استعارتها معاييرها من علوم غريبة عن عالم اللغة والأدب . وكمثال للتدليل على ما ذهبنا اليه ، نعالج المقاربات المستعارة ، فالمقاربات التي اعتبرت لسنوات خلون أصيلة ، والمقاربات الحديثة الأصيلة .

تقترض المقاربة التاريخية والوصفية وغيرها منهجياتها ومقوماتها

من علوم غير لغوية وأدبية ، وهي من المقاربات المستعارة التي تقع **في أسفل الهرم وفي أدنى سلم القيم** ، اذ تلزم من يأخذ بها بالتحقيق والتوثيق والنقد الخارجي ، وبالطرائق المتبعة في مقالات الأولين الذين كانوا يتوسلون ، في عصور الانحطاط ، النظريات الدخيلة على اللغة والأدب ، والذين كانوا يقومون بعرض مادتهم بواسطة التاريخ والفلسفة وعلم الكلام وعلم الاجتماع ، والذين يسمعونا شيئاً من أصداء النص في كتب السير وتراجم رجالات الفقه والشعر والنثر ، والذين ما كانوا لينظّروا اللغة والأدب ، بل كانوا يشرحون ويفسرون ويقومون بأعمال هي من قبيل الجمع والتقميش. وقد يتوسل بعض المعاصرين هذه المقاربات المستعارة ، ويتلطون وراءها ، ويحولون مقالهم الى مادة انشائية لا قيمة لها ، وان كان لها قيمة من حيث كونها انشاءً جميلاً أو ابداعاً له مسحة شبه أدبية ، ولكنهم يفقدون المقال الجامعي العلمي أصالته ويجنحون عن حقيقته ، ويبعدونه عن هدفه وعن مرماه.

تقع المقاربة المواضيعية والمقاربة المقارنة **في طبقات الهرم الوسطى وفي معدّل سلم القيم**. ان المواضيع قطب يجذب الشاعر أو الكاتب ، ويشده اليه بوشائج متينة ، فيميل الصانع الى الاهتمام بالمواضيع اللصيقة به ، والنابعة من أعماقه. ويتوسل الباحث الموضوعات للتعرف على ميول الصانع ورغباته المكبوتة وأفكاره الفلسفية والدينية والخلقية ، ولكشف عواطفه الخفية. والمواضيع رموز من ثوابت فكر الصانع ، والباحث هو المؤول الذي يكشف

خفايا المواضيع وثنايا رموزها. وتحسب المقاربة المقارنة حساب التشابه والتساوي والتوازي، وتقدر بعدها عن التفاضل والتخالف والتناقض، ويتدخل الباحث في هذه الأمور التي تحتاج الى المقايسة والموازنة والمقارنة والتمييز، ويضمها في واحد رئيسي.

تتربع المقاربة أو المطارحة التكميمية الاحصائية **في قمة الهرم وفي أعلى سلم القيم**، على اعتبار أن اللغة والأدب أصبحا علمين في عصر العلم. ولا يجوز للدارس اعتماد طرائق توارد الخاطر وتبني الأفكار دون سند، بل عليه أن يجعل الأرقام تتكلم وأن يتزود بنماذج قياس فعّالة، تستخلص من التصنيف، وتستنتج من التكميم والاحصاء، وتخضع للمعادلة والخط البياني، وبمعايير علمية تستعمل في روز المواد اللغوية والأدبية، القديمة والحديثة على حدّ سواء. ويتألف حينئذ المقال من المعلومات الكافية والوافية، ومن لغة رمزية شفّافة، تنقل لنا الأشياء على حقيقتها وواقعها. ونظراً لصعوبة هذه المقاربة، نلحظ أن المرشح الذي يعتمدها، ينادي بها علناً، يوم المناقشة، ويؤكد أن مقاله يتسم بالوضوح والموضوعية والايجابية، ويبرّر ويسوّغ ويسعى الى أن يمرّر، كما يقول هواة رياضة الكرة الطائرة، منهجياته الحديثة، ومحاوره الواضحة، وعملياته التصنيفية الصارمة، واحصاءاته الدقيقة، وتكميمه الرياضي، واستنتاجاته المقنعة. وقد أصبحت هذه المقاربة مشروعة في العلوم اللغوية والأدبية المتطورة، اذ ترصد حركة اللغة أو الأدب، وتسجل واقعها، بواسطة لوحات بيانية موجزة، وتحلل تحركها رياضياً.

وبصرف النظر عن كل قيمة ننسبها لكل من المقاربات السابقة ، نجد ان المادة اللغوية أو الأدبية هي مادة لها نوعيتها وخواصها ، وأنها صالحة لأن تعالج ، في ضوء المقاربات او المطارحات الحديثة التي توجه الانتقادات اللاذعة والملاحظات القاسية الى المقالات اللغوية والأدبية التي تعتمد مقاربات مستعارة من علوم ، لا علاقة لها بجوهر اللغة والأدب . وترشدنا ، على كل حال ، حتى المقاربة السقيمة ، إلى الإحالة التي تقرب الشقة بين واضع المقال وقارئه أو مناقشه ، والتي تزودنا بتلوينة نص المقال . وينتقي المرشح مقاربة أو أكثر من مجموعة المقاربات ويصطفي منها ما يراه مناسباً ، ومن الأفضل ان يلتزم بواحدة منها ، قد تحتوي مختلف التفاصيل ، وقد تسيطر عليها وتصبغها بلونها . وبما أننا كنا نستقرض ونستعير ، نطالب المرشح ، حتى اشعار آخر ، بأن يعلن ، يوم المناقشة ، المقاربة التي تلوّن بحثه ، وأن يدعمها بخطاب يصدر عنه ، هو الخطيب المفوّه والمصقع والبليغ ، لعلّه يقنع النظّارة بأنه يتناول المادة اللغوية والأدبية بمقاييس بعيدة كل البعد عن جوهر اللغة والأدب !

سوف نطلب من المرشحين بالكف عن اعلان المقاربة ، في اليوم الذي يتخلص فيه المقال اللغوي والأدبي من ضبابية المقاربات المستوردة ومن ربقة المطارحات المستعارة ، وفي اليوم الذي ننحي عن حقول البحث المقاربات التقليدية التي تجتاح وتقتحم وتغتصب ما ليس منها ، وفي اليوم الذي نقصد مقاربة قوامها اللغة والأدب لا غير ، أو مقاربة حديثة تعتمد على معايير جديدة تفرزها طبيعة اللغة

والأدب ، وفي اليوم الذي نلتزم لمستقبل اللغة والأدب ، ونعيش ذاك المستقبل من الداخل . وقد احتفظنا بالمطارحة البنيانية والمقاربة الصناعية اللتين تتجليان اليوم ، دون سابق إعلان ، في البحث الأساس أو المقال الطويل ، لعلنا نحرز فائدة عملية بمستوى حاجات العلم الحديث . والعزم اذا صدق حقق الغاية ، والنية اذا خلصت قرّبت المأمول ، ولعلّ يصدق منا جميعاً مرشحين ومناقشين العزم وتخلص النيّة .

البحث الأساس أو المقال الطويل : ان البحث الأساس أو المقال الطويل أو الرسالة أو الاطروحة هو مركز لقاءات متعددة . وقد لخّصه المرشح بمقاله القصير ، وقد قدّم له بمداخلاته في جلسة المناقشة ، وقد دافع عما فيه ، وفنّد وفذلك وصال وجال وسعى الى اشباعه ايضاحاً ، وذاد وكرّ وفرّ عما سيتّهم من عيوب وستكشف فيه من عورات ، بواسطة المقال المتوسط الطول . وقد ساعد في اخراجه المشرف الموجّه ، وقد طالعه اعضاء اللجنة الفاحصة ، واستنطقوه ، وفيّشوا محتواه ، وكشفوا ما فيه من مناقب ومن عيوب . وقد عُقدت الجلسة خصيصاً للنظر فيه وللحكم عليه . وتدور معظم المناقشات وعمليات الأخذ والرد بين المرشح والمناقشين ، والحرب بينهم سجالٌ ، في حلبة البحث الأساس ، وقيامه شرط لازب وقد يكتفَى به . ومن المعلوم أن الألقاب الجامعية الفخرية لا تحتاج لقيام البحث ، وقد تمنح الدرجات العلمية الأكاديمية بقيام البحث الأساس ، بدون أن تعقد جلسة

المناقشة ، وهذا ما جرى في فرنسا ، بضغط ظروف الأحداث الطلابية الجامعية ، في أيار عام ١٩٦٨ .

ولا نطرح مشكلة المقال الطويل إلا بطريقة مادية ، بعيدة عن الغيبية ، اذ علينا أن نتناول شيئاً حسياً ، توضعت فيه الصنعة ، وجدلت اجزاءه في وحدة متجانسة ، نسميه المقال أو البحث . ومبدأ الصنعة هو المعيار الصالح الذي يكشف لنا الشروط العامة التي تقيدنا في كتابة المقال اللغوي والأدبي ، والصنعة هي الخاصية التعبيرية التي نكشفها من حيث شكلها ، حين نراها تتبلور في المقال ، أو في هذا الشكل من أشكال عالم الأشياء الحسيّة الذي يخضع للدراسة البنيانية والصناعية ، فنطل حينئذ على شيء مصنوع ، قد نهتم ببنيته وبشكله وبقوالبه ، وقد نستطيع حينئذ أن نختبر أسسه ، وأن نسبر غوره ، وأن نفهم معناه ، وأن نقيس مدى وقعه فينا . والخلاصة ان المقال شيء مصنوع أو ظاهرة بنيانية وشكلية لا يتحقق إلا باللغة وإلا فيها .

وتخضع ميزات المقال الشكلية وخصائصه الصناعية لمناهج علمية ولنظريات خلفت بعضها البعض وتركت الكثير من الثوابت التي لا تنال منها الانقلابات المتسارعة . وأخذت صناعة المقال تتحسن ، بعمل التفاعل الحاصل بين الدراسات العلمية والدراسات الأدبية ، وبفعل ارتباط أجزاء المعرفة بعضها بالبعض الآخر ، لاسيما أن العلوم الألسنية تسير اليوم ، في رعيل العلوم الأول ، وقد أضحت متبوعة عوضاً من أن تكون تابعة ، وأثرت

بغيرها من العلوم. ولا غروَ أن تؤثر في علوم اللغة والأدب، وأن تذلل أمامها الصعاب، وأن تزودها بمنهجية متخصصة وبكل ما هو جديد وحديث، وأن تجعل من صلب اهتماماتها عمليات إنتاج الصناعات الشكلية الأدبية والعلمية كافة.

وقد أثّرت الألسنية هذه في حقل دراسة المقال الجامعي، وأمدته بحدود الإمكانيات المتاحة لها، بشيء من المنهجيات المتطورة، وبأحدث النظريات والأصول والقواعد التي مكنته من اجتياز المسافة التي تقع بين الاعتباطية والموضوعية، ومن قطع البون الذي يفصل المقالة العامة عن المقالة المتخصصة. ولا عجب أن تنجح الألسنية هذه في إيجاد معايير، يجب مراعاتها لوضع مقالات العلوم والفنون والدين والفلسفة والاجتماع والقضاء والحقوق واللاهوت والايديولوجيا، وأن تزود الفقيه والمتأدّب بإرشادات توجهه الى كيفية كتابة المقال المناسب. ومن يأخذ بهذه الإرشادات يسلك الطريق القويم، ولا يجوز جهل شأن هذا النوع من الصناعة في عصر العلم. والتمرس على البحث اللغوي والأدبي الأكاديمي يلقن الدارس مبادئ أساسية، يجب عليه أن يستبصر بنورها، وأن يأخذ باستنتاجاتها، وبخاصة أن يطبقها. وقد أدت صناعة الكتابة والمقال الى بروز مؤلفات راقية، ذات قيمة عالمية، تصف قيود المقال المنهجية، ومعالم البحث ومقوماته، والطرائق العلمية التي تُتبع فيه، لكي ترتبط الأفكار والأقوال بأمتن الوشائج، ولكي تنأى عن التعليق الرخيص، ولكي يتوجه بيانه الى الوجهة المرسومة له، ولكي يسير في خط برهاني مستقيم.

وكان ، لدى الأقدمين ، فن يقيّد المقال ، نسميه علم البلاغة ، يوصينا بمراعاة الكلام لمقتضى الحال . والرسالة أو الأطروحة التي لا تتعضّى بقالب خاص ومميّز ، تأتي منقوصة ، وتحيد عن غرضها وغايتها . ويدافع المرشح الأول عن موضوع تلبّس مقالة هي من قبيل الأدب المتنكر (parodie) وهو تعريفاً إلباس الآلهة لباس الصعاليك ، وإلباس الصعاليك لباس الآلهة ، ولا يشعر أنه أخطأ في اللون والمقاربة والبلاغة والأسلوبية . ويذود الثاني عن مقالته الصحفية التي تشبه أدب المكدين والمرتزقة والقوالين والزجالين ، ولا يدري أنه أساء وجنح وضلّ . ويلهج الثالث بالثناء العاطر على مقالته التي تعيد الحاضرين الى أجواء شرح القدامى الذين كانوا يطربون على أنغام أطرق وأقول ما في أبي تمام ، وأنعم وأعمق ما في مدائحه ، وما هكذا تورد ، يا سعد ، الإبل . ويصدر الرابع مقاله ، دون أن يحسب أي حساب للموضوعية ، ويحوّلها الى تعبير مخملي أو ثرثرة ناعمة تصدر عن عواطف شخصية غير معللة ، وترسل الأقوال على عواهنها ، وتخلق أجواء بعض الأفلام السينمائية . ويدعي الخامس أنه ألبس رسالته الجامعية حلّة قشيبة ، وأنه نفخ فيها روحاً مجددة ، ولربما أن مقاله فارق الحياة من شدة ضغط الروح المجددة ...

لا شك في أن هناك صعوبة لإقامة توافق تام بين مقولات الفكر والمقالات التي تعبر عن إسقاطات الفكر . ويظن البعض أن المقال الجامعي مرآة صادقة لإرهاصات صاحبه ، وأنه مركز لقاء نزعاته وأذواقه ومشاربه ... ولئن كان صاحب المقال إنساناً ، له شخصيته

وعقليته وسيكولوجيته ، ولئن كان المقال يحمل بصمة كاتبه وتوقيعه ، فيجب أن يكفّ الغرُّ عن الكتابة الرخيصة ، لربّما يكتسب شيئاً من المنهجيات ، قد تمكنه من السيطرة على يراعه وقلمه ، وأن يعلم أن المقال الطويل الذي يؤهله لنيل لقب جامعي يعتمد قواعد معينة ويرتكز على مبدأ النقد الذاتي الذي يتجلى في كل مرحلة من مراحل البحث ، وأن أصول المقال تكتسب ، وأن الموضوعية طبيعة ثانية في الباحث الحق.

إن كتابة المقال الذي نعنيه عملية صناعية تخضع لقيود متعددة ، منها التعمق في ميكانيكية اللغة ، وسبر أغوار فنون القول ، والتعرف على التعبير البليغ والنسيج الحسن والتركيب الدقيق والرموز والصور البيانية الى غير ذلك من وجوه المحسنات التي تتوسلها صناعة الكتابة ، والتي تُوظّف لبلوغ غاية التمام ، والتي تتوافر في الصنعة الناجزة والأداء الرائع . وعندما نقوم بكتابة المقال الطويل ، نمحّص معانيه ، ونتنخّل ألفاظه ، ونصقله حتى لا يبقى فيه عيب ، ولا تشوبه شائبة ، ونسكبه بالقالب المتين ، ونختار له الألفاظ والتراكيب ، بحيث أنه لا ينحطّ عن الجيد.

إن الأخذ بعلوم البنيانية والصناعة والألسنية أو على الأقل بعلم البلاغة العتيق أمر لا مفر منه لمن يريد أن يمثل ، أمام اللجنة الفاحصة ، بعمل ، لا سقط فيه ، وأن يسلمه ، وهو رخي البال ، وليلقى الجزاء المناسب والحكم العادل ، الى الطرف الآخر.

الفصل الثاني

مقالات اللجنة المناقشة وعمليات الروز

تنقد اللجنة المناقشة مقال المرشح بمقالات ، يجيء بكل واحد منها عضو من أعضاء اللجنة الفاحصة* ، ويحصل التصادم بين

---

* وقد تكلف السلطات الجامعية قارئاً ثالثاً وقارئاً رابعاً حتى آخر المعزوفة . وهل الغاية من هذا التكليف أن يطالع هؤلاء القراء مقال المرشح وأن يتأهبوا للادلاء برأيهم في جلسة المناقشة العلنية ، وأن يسهموا حينذاك في تقدير الدرجة التي تمنح للمرشح لا غير؟ أو هل الغاية من التكليف عرض العمل على عدد من القراء (وقد يتحوّل بعضهم الى اعضاء في لجنة المناقشة) عليهم أن يساعدوا في تنقيح المقال ، وفي تقديم بعض الاقتراحات العملية التي تهدف الى تحسين حالة الانتاج ، فيترتب في هذه الحال أن يشاركوا مشاركة فعلية ، وأن يتعهدوا البحث ، وان يهتموا به ، وان يتابعوا ما يطرأ عليه من تغيير وتبديل ، وأن يُغَرْبلوه ، وأن يقوّموا ما اعوجّ فيه ، وأن يخلّصوه من أدرانه وشوائبه؟ ←

نوعين مختلفين من المقالات : مقالات المرشح المنتج ، ومقالات اللجنة التي تنظر في الانتاج ، بموجب معايير موضوعية ، ثم تقدر الأسباب المخففة أو المشددة ، وتصدر أخيراً القرارات والأحكام. وتقوم اللجنة ، في جميع الأحوال ، بوظيفتها باسم جامعة ، أوكل إليها أمر الفصل في مقال مرشح ، أنتج مقالاً أو صنع إنتاجاً علمياً ، لنيل لقب أكاديمي.

وقد قيل إن النقد سهل ، وإن صوغ المقال ، بقالب علمي ، صعب ، ونقول إن كتابة البحث عملية صعبة ، والأصعب بكثير نقد المقال والحكم عليه حكماً قطعياً غير قابل للاستئناف والتمييز.

← نؤمن بالعمل الفريقي ، ونسلم جدلاً به ، ونطلق تسمية اللجنة المناقشة أو الفاحصة على جميع الأعضاء الذين يساهمون في عملية المناقشة ، وتسمية القارئ أو المناقش على الذي يمثل ، تجاوزاً ، جميع الأعضاء المناقشين أو اللجنة المناقشة بجميع أعضائها ، ولذا اقتضى التنويه . ونتوسم الخير في جميع أصحاب النيات الحسنة ، ونظن ان الاستاذ الجامعي معطاء ، وان كل عضو من أعضاء اللجنة الفاحصة فعّال للخير ، وأن المتهاون والمتغاضي والمتقاعس والمستهتر والمتواطئ ، لا وجود له في صفوف الهيئات الأكاديمية التي لفظت من صفوفها القَعَدة ، والتي احتفظت بكل من يهبّ لنصرة المقال الجامعي ، ولمؤازرة العلم ، وللذود عن الحقيقة.

وقد يلتمس المرشح لنفسه الأعذار ، وقد يدعي انه لم يحظَ بالقدر الكافي من الارشاد والرعاية والاشراف ، ويتناسى أنه المسؤول الوحيد عن عمله ، وليس المشرف بمحرر يعمل عنده ، ولا القراء أو اعضاء اللجنة الفاحصة بالمتضامنين معه في السرّاء والضراء . والإشراف شيء ، والتقييم شيء آخر ، وهما ليسا من حقل عمل واحد ، ولا من مضمار سلوكي متجاور : الإشراف واجب ومن مضمار الفروض والتقييم عادل ومن مضمار الأخلاق.

وعندما يبلغ مقال المرشح القاع والقرار ، يبدي حينئذ نصه بعض المقاومة ، ويربك القارئ ويزعج الدارس ، ويعمل المناقش فكره ، ويجهده ، ويقتحم النص ، ويحاول فكّ رموزه ، ويتصدّى لاستجوابه ، متوسلاً الشكل ، ومحللاً العناصر الصناعية التي تتضافر ، لتؤلف المقال الجيّد.

وقد تتلاشى بعض صعوبات فك رموز المقال ، بفعل عملية التواصل ، إذ يتفق المنتج والمناقش على قيد أو سجل مشترك ، والمنتج كتب مقالاً ، ورمّزه ، والمناقش يطالع مقالاً ، ويفكّ رموزه ويفهمه بالتواطؤ والتواضع . ولا يهدف المقال إلا الى الفهم والإفهام ، والى تخطي الحدود الفردية ، وإلى إقامة علاقات ووشائج متينة بين منتج المقال والمناقش ، وكلاهما يتواصلان بالمقال ويعودان اليه في عملية الفهم والإفهام . إن المنتج والقارئ كليهما متفق على طبيعة القيد ونوعية السجل ، وهناك حصة كبيرة من الدلالة المشتركة بين الطرفين أو الفريقين . ويحافظ مقال المرشح على محتوى شبه ثابت ، ومن الممكن أن يُفكّ معناه ، لأن مساهمة الطرفين في بناء معنى معترف به ومشهود له تتم بموافقة ضمنية نابعة من طبيعة الكلام والمقال .

ويتحرّى المناقش ، في هذا المجال ، كلام المرشح ويستنطق مقاله . ومن المعلوم أن المستنطق يطلع على تقارير الشرطة ، فينسب اليها معنى معيناً ، قد ينكره عليها بعد أيام أو إثر قراءة ثانية أو ثالثة ، وقد ينتاب المستنطق شعور ضمني ، يدفعه الى الحدس والتخمين ،

فيعود الى القانون أو الناموس ليتحقق من سلامة الحيثيات ومن صحة ما ورد بالمستمسكات ، لئلا ينساق الى تقديرات صادرة عن نزوات الهوى ، ولا يركن حينئذ إلا الى نواميس العقل والحُجى ، مما يبعده عن الظن والاحتمال. ويخضع المقال الجامعي بدوره لناموس أو نظام متعارف عليه ، وهو الوحيد الذي يقدر على فكّ رمزه ، وعلى حلّ ما استعصى من مشاكل مطالعته أو دراسته ، وعلى اكتشاف مغزاه والوصول الى كنهه.

ويتصدّى المناقش ، ويجابه مقالة المرشح ، ولا يهمه أن تتوفر بعض الأدلّة أو بعض الحقائق التي قد تتوفر في بعض نواحي المقال ، وقد تنعدم في البعض الآخر ، بل يهمه أن يحدد المشكلة بدقة ، قبل أن يحيلها على الهيئة القضائية ، وأن يجعل منها موضوعاً متماسكاً ، متساوق الحلقات ، متلاحم الأحداث. وقوام عملية الاستنطاق الخفي جمع الأدلة وتنسيقها وتنظيمها في قضية واحدة ، وسبر أغوار المشكلة بمحاولات متعددات قد يشرق منها ضوء الحق ، وقوامها الظاهر مستمسكات تحال على المحاكمة والهيئة القضائية.

إن أعضاء اللجنة الفاحصة مثلهم أعضاء اللجنة القضائية ، هم أصحاب اجتهادات شخصية ، بشرط أن يلتمسوا حكمهم من المنطق الصائب والقناعة الشخصية والقراءات أو بالأحرى المطالعات المستوعبة ، فيلتزمون بالمستمسكات وبما ورد في المقال الذي يشكل المفاصل الرئيسية في حكم اللجنة الفاحصة العلمي.

وتحكم اللجنة على مقال المرشح ، بموجب واقع موضوعي ومادي ، وتقدر كلام المقال ، بدون زيادة أو نقصان ، وليس بإسقاطات نابعة من رغبات ذاتية ومن نزوات شخصية ، وتحكم اللجنة ، وهي منزهة عن الهوى ، بكلام يكشف الأسس التي بني عليها مقال المرشح ، وتحلل عناصره وصفاته ، ولا يجوز أن تُتهم بسوء فهم جوهره ، وإلا انتفى ما ورد في مقال المرشح ، وغاب المستمسك الأساس ، وبطُلت القضية.

وتصدر اللجنة الفاحصة بكامل أعضائها حكماً يقينياً لا ظنّياً ، وقراراً موزوناً ومعللاً ، وتعطي كلّ صاحب حق حقّه ، وتحرك آلة معقدة ، تتألف من تقييم علمي رصين ، يتوسل تقنيات مجربة ، تنفذ الى أعماق النص أو المستمسك وتكشف خفاياه وتبين مزاياه . كما أنها تعجم عود العدّة التي استعملها صاحب المقال ، وتتشبث بنص المقال بالذات وبشكله ، وتلجأ إلى المفاتيح التي زودها بها صاحب المقال لاستجلاء ما غمض ، وتعتمد على قدرة المرشح ، وعلى جودة طرحه قضيته ، وفعالية دفاعه عنها ... وكلها مسائل عرضناها في الفصول السابقة ، وأشبعناها بحثاً وتمحيصاً ولا حاجة الى ذكرها من جديد ، ونضيف على الملف ، قبل إغلاقه ، حيثيات مساعدة تأتي بقيود إضافية ، قد تسهم في تعليل الحكم ، وفي النظر ، بصورة عادلة الى القضية ، وهذه الحيثيات تضيء جوانب المقال :

— من حيث الموضوع .

— من حيث التقليد والتجديد.

— من حيث المنهج.

— من حيث الدلالة أو الترميز وفكّ الترميز.

من حيث الموضوع : إن الموضوع القديم والموضوع الحديث سيّان ، وكم من باحث يعالج القديم ، في ضوء الحديث ، وكم من دارس يعالج الحديث ، في ضوء القديم ، ولا علاقة عادة لسر النجاح ، بقدم الموضوع أو حداثته. وموضوعات البحث كثيرة ، متعددة ، لا حصر لها. وهناك جداول بيبليوغرافية تطلعنا على الإنتاج العربي الضخم الذي تناول به الأقدمون والمحدثون شؤون الأدب واللغة.

* **في الأدب** : أبحاث تستمد مادتها من الإنتاج الذي ارتوى من معين فترة تاريخية معينة ومن نبع الحياة اليومية والاجتماعية ، ومنها وثيقة الصلة بالدراسات التقليدية والتاريخية ، ومنها تتسم بطابع الجدّة والطرافة ، ونقترح بعضها ، لعلها تجد من ينتقي موضوعه منها :

— دراسة عصر من عصور الأدب ، أو فترة زمنية محددة منه.

— دراسة علم من أعلام الأدب أو الشعر أو النقد.

— دراسة مذهب من المذاهب الأدبية الكبرى (المذهب الكلاسيكي ، الرومانسي ، الرمزي ، الوجودي ، السوريالي...).

— دراسة فن من فنون الأدب الحديث (فن المقالة أو المسرح العربي أو القصة الحديثة...).

— دراسة إحدى مدارس الأدب (مدرسة أبولو أو مدرسة شعراء الديوان، المدرسة المهجرية، مدرسة الشعر الحر...).

— دراسة ظاهرة من الظواهر الأدبية المتميزة (الموشحات في الأندلس، أدب الديوان، النثر الفني المعاصر...).

— دراسة تيار من تيارات الأدب (تيار الالتزام، التيار الاشتراكي، التيار الماركسي، تيار المقاومة، تيار الجهاد...).

— معالجة شؤون الأدب الحديث والمعاصر (تجديد الشعر، العمود والانحراف، بنية القصيدة العربية الحديثة أو المعاصرة، أدب الخوارق، الأدب الغريب، الميثات والأدب...).

— دراسة النقد وحركة تطوره (النقد التفسيري التاريخي، النقد التقريري الموضوعي، النقد الانفعالي الإيحائي، النقد الملتزم والمقيّد، النقد المقارن والعام، النقد الجديد، النقد البنياني، نشوء علم الانتقاد الحديث...).

— تحقيق نص من نصوص التراث، ونشره وفق الأصول المتعارف عليها عالمياً.

— دراسة نظرية من نظريات الأدب أو منهج من مناهج البحوث الأدبية.

** **في اللغة :**

— أصول فقه اللغة.

— دراسة عصر من عصور اللغة أو فترة زمنية محدودة منه.

— نشأة النحو أو دراسة مدرسة واحدة (مدرسة البصرة أو الكوفة أو بغداد أو العراق أو مصر أو الأندلس أو المغرب أو المشرق أو مدرسة من المدارس الحديثة...).

— الحركة المعجمية والألفاظ المستحدثة وقواعد التأثيل.

— دراسة إمام من أئمة الفقه أو اللغة أو الصرف أو النحو...

— البلاغة (تاريخها، نشأتها، تطورها، مراحل التأليف فيها... أسرار البلاغة، دلائل الإعجاز...).

— دراسة حركة النقل والترجمة والتعريب والتعجيم.

— دراسة مستوى من مستويات اللسان (المستوى الفونتيكي الفونولوجي، مستوى المعجمات، مستوى الصرف والتصريف، مستوى النحو، مستوى الجملة، مستوى الأسلوب...).

— دراسة ظاهرة من الظواهر اللغوية أو وسيلة من وسائل تعليم اللغة (عامل التشتت وعامل التجمع، الحقول المفهومية، السيميولوجيا والسيميوتيكا، إعمال الآلة في اللغة، مختبر أو معمل علم الصوت، مختبرات اللغة، آلات التحليل اللغوي المتطورة، التمارين البنيانية...)

— وقد اشتهرت دراسات اللغة العربية بالصعوبة، وقد أسرف العديد من الباحثين في حب لغتنا، وأساء في اختيار الوسيلة ليحببها للناطقين بها، وعوضاً من أن يطلعنا، في بحثه، على نمط جديد من التفكير، أخطأ الطريق القويم، وعقّد وشعّب على سائر الناطقين بالضاد، ولعلّ الموضوعات الحديثة التي اقترحناها تثير همم الباحثين في المستقبل، وتساعدهم على انتقاء موضوعات حديثة، قد تحبّب اللغة العربية وقد تسهم في نشرها على مدى واسع، علماً بأنه لا قيمة للموضوعات بحدّ ذاتها، والقيمة في موقف الدارس منها، وقد يسرف أحياناً الدارس في حبّ موضوعه، ويسيء إليه من حيث لا يدري، لأنه لم يعدّ نفسه الإعداد الكافي.

من حيث التقليد والتجديد: في سبيل تجديد نوعية الأبحاث اللغوية والأدبية، وجعلها تبتعد عن الطرق التقليدية العقيمة، وحملها على أن تتقيد بمنهجيات علمية حديثة، تلائم روح عصرنا، وتمكن الباحثين من اللحاق بركب الحضارة وبقطار التقدم، نتوسل مؤشر التقليد والتجديد للحصول على نقيضين متباينين، ثم نقوم، لضرورات منهجية بتصنيف البحوث في ثلاث زمر: زمرة التقليد وتقع في النقيض الأول، وزمرة الجديد وتقع في النقيض الآخر، والزمرة المحيرة التي تتوسطها.

* **زمرة التقليد**: لا شك في أننا نقاوم ذلك التيّار القديم الذي أخطأ الطريق القويم وسلك الخط العقيم، والذي شخصن المنجرفون فيه البحوث القديمة، وألّهوا التقليد البليد، وتغاضوا عن

مبادئ المنطق السليم، ووقفوا وقفة طويلة، أمام باب اجتهاد موصد، وتسمّروا في أمكنتهم، متناسين زخم الحياة، وما تفرضه البحوث من تطوّر وتبدّل، وفق سنة النشوء والإرتقاء.

ولم يمدّ هؤلاء مادة البحث بنسغ جديد، ولم يتناولوها بتحديث، يبعث فيها الحياة، ويبعد عنها ما اشتهرت بهِ من قصور في عالم سريع التبدل والتطور، فارتسمت دراساتهم بسمة التقليد، وسيقت فيها المعلومات والآراء، كابراً عن كابر، وأستاذاً عن أستاذ، وكأنها السيل الجارف، لا سدّ يردعه.

وقد لا يشعر من يطالع هذه الدراسات بحرارة ناجمة عن رأي مؤلفيها ومصنّفيها والمعلّقين عليها، بل يجدها، وكأنها فقدت عنصر المبادهة. مجاميع ومصنفات وحواشٍ وذيول تعقّد وتشعّب وتؤول وتضيّق، وتمتلئ بالإلغاز والإعنات والتعمل الذي لا يرضى به التفكير السديد، وتطفح بالتعليل والتصيّد والتمحّل الذي تضيق به الصدور، وتسلك سنن القديم، وتجمد عليه في غير ملاينة وتصرف واجتهاد. فأصاب الدراسات، ومن جراء موقف أصحابها التقليديين، ضيق وفقر وركود وعجز عن اللحاق بالحركة الناشطة، التي تواكب النهضات المتجددة.

وبما أن هؤلاء لم يمدّوا نهضتهم الى البحوث، ولم يبسطوا سلطانهم عليها، ولم يتناولوها بما تناولوا غيرها من تجديد يبعث فيها الحياة أو بشيء من العلمية يبعد عنها ما اشتهرت به من قصور، لا نتصفّحها اليوم إلا لمجرد الفائدة التاريخية. وكانت البحوث

الأكاديمية الجامعية العربية قد نحت هذا المنحى ، وسلكت طرق التقليد ، وهي تحاول الوقوف على آراء جميع السالفين في موضوع البحث ، ثم تبوّب ما قيل فيه وتكرره ، وقلما تصل الى آراء جديدة لم يأتِ بها أحد من السالفين العرب أو من المستشرقين والغربيين المعاصرين. وقد اجترّت البحوث العربية ما أنتجه ونظّره الغرب ، ونقلت المنهجيات المعمول بها في جامعات أوروبا وأميركا ، وسارت على نمط (فلان : حياته وآثاره) وهي تفتقر الى الابتكار والتجديد والحداثة. وكأنّ الجامعي الذي يجرؤ ويجهر برأي جديد ، لا يعدّ عالماً مبتكراً ، وإنما يعد غير عالم بما قال الأولون ، وكأنه من العبث المجاهرة أو البحث عن شيء ما عرفه الأقدمون.

** **الزمرة المحيّرة** : يصنف بعضهم دراسته بين الدراسات الأصيلة ، ويسمها بالإحياء والتحديث والموضوعية العلمية والروحية الجديدة. ويبدو لنا ، لدى مطالعتها أن الجديد فيها متوسط المقدار ، وأنها أخذت بعين الاعتبار التقليد وحسبت حساب الجديد في آن واحد ، وأن تقنين الجديد والتقليدي يكون فيها من الخلاف بقدر ما يكون عليه من الوفاق.

يخوض الباحث في موضوع يتناول علماً تقليدياً أو مؤلفاً من التراث (ترجمة الأدباء والشعراء والعلماء والنقّاد) أو رواية آثارهم الأدبية ، أو الكتب التي صدرت عن الأدب الحديث والأدب المعاصر وتاريخ الأدب والنقد التقليدي ، أو الإنتاج الشعري والنثري واللغوي ، أو مونوغرافيا فقيه أو أديب أو شاعر ، ويعالج

موضوعه بالشرح والتحليل والنقد والموازنة ، ويحاول أن يدخل على بحثه شيئاً من المنهجية الحديثة. أراد هذا الباحث التحديث ولمّا يطلع إطلاعاً تاماً على النظريات الحديثة ، ولما يتمثّلها ، فحاول الخروج على سنن القديم وانتهاج فلسفة جديدة ، سايرها بعض الشيء دون أن يتمكن من تطبيقها تطبيقاً تاماً. يخوض ذاك الآخر بالموضوع ، ويتمسك بأصول القديم ، ويتقيّد به ، ممّا يحدّ أفق تفكيره ، ولكن ذلك لن يحول دون أن ننصفه ، إذ طبّق الطرائق القديمة ، وحاول الاجتهاد ضمن حدود معقولة ، وتمتع بفكر جوّاب وبقدرة على التصرف ، قلّما نجدها في مَنْ يدّعون التحديث والتجديد. كلاهما لم يصمد أمام الميل الذي جرفه ، ولم يحقق ذاته كلياً ، وكلاهما يقع في الزمرة المحيّرة.

*** **زمرة الجديد** : العالم العربي بأمس الحاجة الى محدثين ومجدّدين ، ويجب أن تجدد البحوث العربية اللغوية والأدبية ، وذلك حسب دستور نحرص عليه في جميع أعمالنا الجامعية ، وننظر أمن المفيد أن نجدد ، فنقدم حينئذ غير مبالين ، أما إذا كان ذلك من النافلة ، فما علينا إلّا أن نحجم غير مترددين. ومن المفيد أن نقضي على التعليلات المرهقة التي تطفح بها الدراسات التقليدية والتي نضيق بها ذرعاً ، في الوقت الحاضر ، والتي نقف أمامها ، لنصطاد ما يشكل حُجة تؤيد صاحبها ، فنجدها فارغة ، تكرر النظريات التقليدية التي تعتمد معايير ومقاييس ، عفّى عنها الزمن.

يشن الحاملون لواء التجديد الحملة تلوَ الحملة على الجمود

والأبحاث المتحجرة وحرفية التراث وقدسية المورث، ويزعزعون أسس الدراسات التقليدية الرخيصة والهشة، ويدعون الى تثوير البحوث وتحديثها، ويرغبون في أن يتولوا أمر تجديدها وترسيخها على أقوى الدعائم. وقد اندفعت هذه الزمرة الى غايتها، بتيّار جارف، تحرّكه حمية البناة المؤسسين. ولا معنى لمحاولات التجديد والتحديث، إذا لم يتحوّل البحث الى دراسة منهجية، قادرة على استيعاب القديم، وعلى استنباط منه ومن غيره أسساً جديدة. والتجديد هو نوع من التحامل، ومن شنّ حملة شعواء على الذين يتمسكون بالنظريات التقليدية، والمطالبة بما يلائم الحياة القائمة حالياً والعصور الحديثة، وترسيخه على أقوى الدعائم.

وبما أن الباحثين يبتغون الوصول الى دراسات تتصف بالموضوعية والتحديث والروحية الجديدة، وبما أنه لم يكن من البيئة ما يساعد على النهوض، فكان لا بدَّ من نور ينير الأذهان، ويرفعها الى مستوى المجاري الفكرية والعلمية والأدبية، وقد جاء القبس الأول من الباحثين الذين أتمّوا تحصيلهم في كبريات الجامعات الأجنبية، والذين عنوا بالتجديد وبطرق معاصرة للكشف، وهي الطرق الوحيدة التي تشكل مدخلاً صالحاً لفهم الحديث، واستيعابه، وتطبيقه بشكل سليم. وإذا كان المرشح يبتغي الحصول على درجة علمية بمستوى عصره، فما عليه إلا أن يكون مبتكراً، وأن يفيد من جهود أساتذته، وأن يقتني أثر المجددين منهم، وأن يبتعد عمن سلكوا طرق التقليد البليد، وأن ينتهج طرقاً حديثة،

وأن يبحث عن صيغ جديدة ومتقدمة لا يعرفها الأقدمون والسابقون. وأن يطلعنا قولاً أو عملاً على التقدم الأبيستمولوجي (épistémologique) الذي أحرزه البحث، في يومنا هذا.

ويظهر التجديد مع بزوغ فجر النهضات الاجتماعية، وأضواؤها تنير طرق من يسلكها، وتبدد ظلمات الدراسات القديمة والتقليدية المبتذلة، وتفسح في المجال، أمام دراسات تشحذ الأذهان بجدّتها وحداثتها، وتحوّل الموضوع الذي نعالجه الى بحث عملي ووظيفي ومفيد، له أصوله وقواعده ونواميسه ومقولته ومصطلحه. ومن صفات الموضوع الحديث أن يكون كلياً وحاضراً ومعاصراً، وواقعاً تحت الحواس، وماثلاً أمام الأذهان. وأملنا أن يزداد عدد الباحثين المجددين، حتى يكون لنا منهم بقدر ما لنا، في العالم العربي، من المتخصصين في الدراسات التقليدية.

من حيث المنهج: المنهج* تعريفاً الطريق الواضح، وهنا تواضعاً وتواطؤاً الطريقة السليمة التي يسلكها الباحث، لدى قيامه بالأعمال الاجرائية، والخطة المثلى التي يتقيّد بها، لدى تنفيذه الاجراءات الموضوعية الكفيلة بأن توصله الى الغاية والمرمى والهدف.

---

* نستبعد كلمة منهجية، في حالة الإفراد، لأنها أضحت شعاراً مبتذلاً، يتشدق به المتحذلقون، ويخفون تحته أشياء مبهمة. وقد تعني منهجيات، في حالة الجمع، الخطط العملية والاجرائية التي يغطيها مفهوم المنهج...

ويحدد الباحث منهجه ، في مداخل دراسته ، وعليه ان يلتزم به ، ووعد الحرّ دين . وان المشكلة الأولى التي تطرح على الباحث هو بناء هدف أو موضوع حقيقي يُبرّر مقالته ، والمشكلة الثانية هو توسل الأعمال الاجرائية التي تضمن تحقيق ذلك الهدف . وتتميز الدراسة الجامعية بسيرها نحو هدف معين ، وبتنظيرها الموضوع مع أحداثه ووقائعه ومفرداته المبعثرة هنا وهناك ، وتفسير ما قد يقوم بينها من روابط وعلاقات وقوانين ومبادئ ونواميس وأعراف شائعة ، ثم بتطبيق هذه العدة التنظيرية على الموضوع بالذات ، بواسطة خطط عملية براغماتيكية أو بواسطة طرائق علمية مجرّبة .

ان ثمة فروقاً بين المنهج اللغوي والأدبي في جملته والمنهج الخاص بكل علم من علوم الأدب أو اللغة على حدة . وان البحث في هذه الفروق موضوع المناهج المتخصصة التي يهتم بها الدارس . ويمكن ان نفسر حسن تنفيذ البحث عن طريق دور المنهج ، فتقدم البحث رهين بوجود منهج صالح وواضح وسالك وآمن ...

وقد يستطيع البعض رسم المنهج الواضح حتى في معالجة المسائل الغيبية التي لا تخضع لنواميس علمية ، ويتسم حينئذ المنهج بالموضوعية ، ويؤدي وظيفته على أكمل وجه . وقد يتبنى البعض نمطاً جديداً من تحليل النصوص ، ويسلك منهجاً جديداً ، ويتخذ من نظريات التحليل الحديثة وسيلة لاستنطاق النصوص ، فينجح في إظهار السمات والخصائص والميزات والصفات . وقد يتذرع البعض بمنهج العرض والتحليل ، ولا يراعي تنظيم الحقائق المفردة ،

ولا يجمع شملها ، لاظهار العلاقات المنطقية التي تربطها ببعضها البعض ، ولا ينظر في الاسباب والمسببات ، ولا نفهم حينئذ ما هي الغاية من العرض والتحليل ، ويفشل صاحب المنهج ، اذ كان عليه أن يسوق المادة ، بصورة متسلسلة ومتساوقة ، وبمقالة تقرن الوحدة بجارتها ، وتدمج الوحدات في مجموعات ، وتسعى الى تحليل تداخلها وتفاعلها ، ويرتقي حينئذ المنهج الى ذروة التركيب والتعميم والمفاهيم الجامعة الشاملة . وقد يخطئ البعض الآخر ، ولا يحدد المنهج الذي سيعتمده في بحثه . ومن المعلوم ان عدم ابرازه المبادئ التي يقوم عليها بحثه ، وعدم فصله القضايا التنظيرية عن القضايا الاجرائية ، وتحلّله من جميع القيود المنهجية ، ستحمله بالتالي على سوق مادة غزيرة من المعلومات والشواهد والاقتباسات والتعليقات ، أو على القيام بعمليات التنقيب والتقميش واستخلاص المعلومات ، دون تنظيمها في منهج واضح ، ممّا يبعده عن طرق البحث السليم ، وممّا يؤدي الى انحراف عام يصيب الدراسة بكاملها .

والخلاصة ان ميزان الأعمال التنفيذية والتطبيقات الاجرائية هو المنهج ، ويقوم البحث بجمع الوقائع ، ويستعين في تحليلها بطرائق الاستدلال الملائمة ، ويبلغ مرماه ، حين يتقيد باجراءات موضوعية ، يرسمها المنهج بدقة .

من حيث الدلالة : يتمكن المرشح من مادة مقاله ، ويسيطر عليها ، عندما يحولها الى عملية تجريد ضرورية في كل عمل علمي ،

وعندما يأتي بالتعبير الذي يتلاءم وعمليات الفكر الدقيقة ، وعندما يبلور عمليات الفكر بمفاهيم ورموز أو بالأحرى بترميز علمي صارم ، يروّض مضمون المقال ويطوقه ويستوعبه بواسطة التعبير. والترميز مدماك العلم الحق ، وهو يطبع الفكر بطابع الموضوعية ، ويساعده في تحديد المعنى الدقيق بالوعاء اللفظي المناسب ، اذ يخص اللفظ الواحد بمعنى واحد ودلالة واحدة لا أكثر. ويتجاذب دلالات المقال قطبان : قطب يحوّل ومضات الفكر ولمعاته العارية والمجردة الى زيّ خارجي ، تتسربل بحلة اللغة التي تقوم بترميز المعاني بالألفاظ المناسبة ، وقطب يسعى الى فلكّ الترميز ، وهو يتمثّل ، في هذا المقام ، بأعضاء اللجنة المناقشة.

* **الترميز**: ان لغة المقال الجامعي صورة حية لأساليب التفكير العلمي. ومن صفات العلوم ، في عصرنا الحاضر ، انها دقيقة ، منظمة ، قابلة للنمو والتوسع ، لذلك كان من الضروري أن يكون سجل المقال الجامعي بدوره دقيقاً منظماً ، قابلاً للنمو. ويستعين المقال للتعبير عن مضمونه ، برمزية تتسم بالسمات التالية :

— رمزية منفتحة وليست مغلقة : لا تتطور اللغة وتتجدّد مع تطور علوم اللغة والأدب وتجددها وحسب ، بل تتجاوز هذا الواقع ، وتتعداه الى التوقعات المرتقبة والاحتمالات والفرضيات التي تشكل نقطة انطلاق لسلسلة جديدة من القضايا التي تحمل في تضاعيفها تطورات في حالة الصيرورة ، والتي تنعم بامكانيات لا متناهية ، ستجد لها حلولاً في المستقبل.

— رمزية دقيقة ورياضية : يحتوي مصطلح اللغة أو الأدب على قسط وافر من الترميز ، لأنه يطلق التسمية على حيّز معيّن من الواقع ويخصّه بمعنى ، بحيث ان الاسم ينطبق حينئذ على مسمى واحد ولا ينطبق على سواه . ان هذا المبدأ ينفي أولاً الاشتراك في المعنى والترادف . ثم ان الترميز الذي نعالج أمره لا يلجأ الى مفردات تعبّر عن مفاهيم غامضة يُلتبس في أمرها ، بل هي تلجأ الى التكميم والأرقام التي احتلّت رقعة واسعة من العلوم الانسانية ، فأُخذت هذه تستمد ترميزها من العلوم ، وأخذت علوم اللغة والأدب تتوسل مفردات واضحة ، واصطلاحات دقيقة ، وكتابة عقلانية تتألف من أرقام وأعداد ومعادلات ودساتير واحداثيات ومنحنيات وخطوط بيانية ...

— رمزية منظمة : يتألف الحقل المفهومي في كل علم واختصاص من وحدات دلالية منظمة ، وفق الوشائج القائمة بين الاشارات المعنوية التي تتآلف لتشكل كياناً متكاملاً . تنظم الرمزية العلاقات القائمة بين مختلف إشارات الحقل الواحد ، وتصنفها بصورة أنه اذا سقطت اشارة تركت ثغرة في تكوين الحقل العام ، وقد ثبت ان هذه الرمزية تسمح بعملية تصنيف الإشارات وتنظيمها ، دون أن تدع بينها فجوات وطفرات وقفزات . وتتسم هذه الرمزية المنظمة بطابع التمدد والنمو والتوسع ، اذ تنفتح إشاراتها للاشتقاق (بمعناه الرياضي) مما يؤدي الى دلالات جديدة ، والى انفتاح سجل المقال اللغوي أو الأدبي ، والى عدم محدوديته ، فتسدي الرمزية المنظمة خدمة جليلة للبحث وللغة في آن واحد .

— رمزية عالمية : يتسم العلم بطابع الأممية ، ولم تترعرع العلوم قديمها وحديثها إلا بجهود علماء أمم كثيرة . ومن الضروري ان يقوم تعاون وثيق بين علماء العالم أجمع ، وأن يتفاهم العلماء على مصطلحهم ، وأن يسعوا الى تنقيته ممّا علق به من الشوائب ، لأن معظم النزاعات يرجع الى خلافات على معنى الألفاظ ودلالتها ، ويوم يصطلح العلماء على رمزية خالية من الشوائب تضيق شقة الخلاف .

وييسر الترميز العلمي التبادل على أوسع مداه ، ويسهل انتقال العلم وفهمه من مكان الى آخر. ونظر سكان العالم العربي الى ذخيرتهم اللغوية ، فوجدوا ان ما عندهم من الاصطلاحات لا يكفي لسد حاجة العلوم ، والتفتوا الى العلوم الغربية ، وسعوا الى أن يؤقلموا بعض النظريات الحديثة ، في دنيا العرب ، وفي أفكار مثقفينا ، لكي يتسنى لهم اتباع خطة علمية حديثة في دراساتهم اللغوية والأدبية ، واصطدموا بمشكلات المصطلحات والترميز ، وتطرح المصطلحات مشكلة تتطلب حلّاً سريعاً وجذرياً ، فظهور مفردات جديدة ، وتطورها الدلالي اتساعاً وحصراً ، ودخولها في مجموعة متماسكة وتصنيفية ومنطقية هي من العوامل الديناميكية التي تعمل عملها في تقدم العلوم الحثيث والسريع . والترميز يقارب بين الباحثين ، في جميع الأقطار العربية ، ويستحدث لغة علمية ، تمتاز بمصطلحها ، وليس المطلوب سبر أغوار امكانيات اللغة العربية وقدراتها الكامنة ، بل المطلوب تزويد اللغة العربية بأداة فعّالة ، تنتجها البيئات الحضارية المتجددة ، وتأتي صورة نقية عن

آخر تطوراتها . ولا خوف على سلامة اللغة العربية وعلى كيانها من الدخيل الوافد أو من المصطلح الطارئ ، اذ تعيش المفردات على هامش اللغة ، كما يعيش العرض على هامش الجوهر. وما الرمزية العالمية إلا وسيلة تخرج اللغة العربية من معركة البقاء ظافرة مظفرة ، وتجعلها تحتل المكانة اللائقة بها ، كلغة خالدة لأبناء الضاد ، وكلسان حضاري يتسم به جزء هام من العالم الحديث .

— رمزية علمية لا رمزية أدبية : تختلف رمزية الأدب الابداعي عن رمزية المقال الجامعي اختلافاً واضحاً . يغبّط الشاعر الرمزي نفسه حين تتسربل أفكاره بصور بيانية وبتعابير غامضة تثير فينا الايحاءات اللامتناهية ، بينما يسعى الباحث الموضوعي الى رمزية صارمة هي الأداة التي لا غنى عنها في التعبير عن علومه. الترميز العلمي جزء من نظام العلم ، وهو يطبع التفكير بطابع الموضوعية ، وهمه الأول والأخير التعبير بدقة ووضوح وبساطة وروعة منطقية ، لا حدّ لها .

قد لا يؤمن المعجم العربي ، في حالته الراهنة ، الا عدداً محدوداً من الاصطلاحات المتخصصة ، بيد ان بعض الباحثين ، تلافى هذا النقص ، وأوجد لغة تصلح لانتاج المقال الجامعي ، ولكتابة واضحة ودقيقة ، وأمدَّ اللغة العربية بالمفردات المناسبة ، وأكسب التعبير مرونة في موضوعات ، لم يعالجها الاقدمون ، واستنبط المصطلح المناسب الذي يؤدي غرضاً من أغراض التعبير ،

فيتداوله الشيوع والاستعمال ، ويبلغ درجة من الالفة ، بحيث يتقبله الذوق اللغوي.

ولا يجوز للباحث ألا يفيد من الرموز ، بل عليه أن يتمثل لغة اختصاصه ، وأن يوفق في التعبير عن أغراضه بمقال جامعي ينحو نحو التطور والتجديد ، لا سيما أن الاصطلاحات المرمزة تصور بوضوح خارطة فكره . ولا بدّ له ، اذا كان يودّ ان يواكب النهضة العلمية ان يختار أحد الأمرين : أن يلوذ بلغة أدبية مخملية وباصطلاحات هشة غير متخصصة تضفي مسحة جمالية وأدبية على مضامير المقال ، فيبقى هذا محاطاً بهالة من الغموض والابهام ، أو أن يتبنى لغة العلم المرمزة ، المحكمة الوضع ، الواضحة الغرض ، التي تفتح له طريق العلم الحقيقي.

** **فك الترميز**: لا يعتمد المناقش ، في حكمه على مقال المرشح ، معطيات خارجية ، لا علاقة لها ، من الناحية الأولى ، بالشكل أو الصنعة ، ولا صلة لها ، من الناحية الثانية ، بالمعنى أو الدلالة . والشكل والمعنى متداخلان ، وهما صنوان لا يفترقان ، وهما يتألفان من بنى ألسنية نوعية ومن خصائص دلالية صرفة ، على القارئ أو المناقش أن يقوم ، ليكشفها ، بعمل دقيق ، يشبه قراءة أقمطة المومياء التي تحمل الرقوم والوشي ، والتي لا تفك رموزها إلا القراءات المتأنية . وتخفي أقمطة مقال المرشح المعاني ، ويحاول المناقش أن يقتحمها ، وقد يُوفق في أن يولع شريط الفتيل الذي يفجر الحقيقة أو الذي يؤدي الى ومضة من الفكر ، يشاهد اثناءها شيئاً

من سناء الحقيقة . ثم يعيد قراءة النص ، ويختزن عناصره الاعلامية والدلالية ، ويقيم وشائج بينها وبين ما تختزنه ذاكرته ، ويعيد ايضاً قراءة النص ... ويروّض مضمونه ، ويكتب المقالة أو المداخلة التي تقنع النظّارة ، والتي تقرب بين حافتي عالمين : عالم المرشح وعالم القرّاء . ويختصر المسافة التي تقع بينهما ، ويجعل السامعين يتشوقون قراءة المقال ، ويلعب ، بنبرته الصادقة ، دور همزة الوصل بين صاحب المقال والقراء ، ويرشد هؤلاء الى المعنى العام الذي يسيطر على الرسالة أو الأطروحة .

يتألف بالفعل المقال المتين والجيّد من رقوم ووشي أو بالأحرى من قطعة موسيقية ، لها رموزها ومفاتيحها ونوطتها وعلاماتها وإشاراتها وقيمها ومعانيها ، ولا يصيب المناقش من المقال مكمناً إلا عندما يتحمل مسؤولية فك معناه ، تماماً كالعازف المجيد الذي يعرف قواعد الاداء. وعندما يتحرى المناقش عن معنى المقالة الأكيد ، يتحول النص الذي بين يديه الى سؤال يُطرح على علوم الألسنية بعامة ، وعلى علوم الدلالة بخاصة .

ويحصل التفاعل بين ترميز مبثوث في ثنايا المقال وبين فك ترميز ، يقوم به المشرف الذي لا يرضخ إلا لإسقاطات الدلالة ، لكي يصل الى الحقيقة الدامغة ، والذي لا ينصاع إلا لتنظيم الإشارات المعنوية بالذات ، لا سيما ان عمل الإشارة الدلالية دؤوب وثابت ، وهو بالرغم من التغيرات التي تطرأ عليه ، وفق فهم الأفراد له ، يحافظ على شيء من استقراره ومن توآزنه

الداخلي. وما يستطيعه المناقش هو فك الترميز واستلال المعاني واستنباطها ، بواسطة تحليل المقال تحليلاً نصوصياً ، يحوّل مفردات المقال الى رموز موضوعية (thématique) وشفّافة ، لا شك ولا لبس فيها ، والى مفاهيم واضحة بعيدة عن الغموض والابهام . ويهتم المناقش بمدى النص الدلالي ، ويفك معناه ، بتطبيق قواعد علمية ، منها :

١ ـــ انتقاء نظام معيّن لفك الترميز.

٢ ـــ اعتماد علوم المعاني والدلالة الحديثة .

٣ ـــ تبيان حقول المفاهيم الماثلة في اصطلاحاتها .

١ ـــ انتقاء نظام معين لفك الترميز: قبل أن نبحث عن كيفية فك ترميز المقال ، وكيفية تحليل معناه ، علينا أن نبعد عن بحثنا الايحاءات الغامضة التي تخامرنا ، والتي لا تتوضع في مقال المرشح ولا تتشبأ فيه . ان المقال الجيّد كيان مستقل ، قائم بذاته ، وهو يتألف من شكل تابع لنظام غراماطيق اللغة ومن معنى تابع لنظام الرموز .

وكما أن وحدات الغراماطيق الصغرى والكبرى تتشابك لحبك النص ، وكما أننا نستطيع ان نصف هذه الوحدات ضمن تنظيماتها ، بدءاً من الكلمات والوصلات الجملية والجمل والفقرات... وصولاً الى النص بكامله ، كذلك ان اشارات الدلالة الصغرى والكبرى ترتسم على لوحة فكرنا ، وتقع وراء

خطوط النص ، ونحاول أن نطلع على مبادئ انتظامها في مستويات دلالية ، ولكننا نعمل بعكس طريقة دراسة وحدات الغراماطيق ، ونبدأ من الدلالات العظمى ، ثم ننحدر الى الدلالات الصغرى ، لأن ما يهمنا بشكل رئيسي ، هو فهم المعنى العام وليس فهم المفردات المعجمية ، وكأنها مستقلة عن النص ، فنتحول الى مفسري كلمات !

وهناك نظرياً عدد كبير من الأنظمة القادرة على فك رموز النص الدلالية وعلى وصف الوحدات المعبرة. ولكل من هذه الأنظمة مقوماته ومسوغاته وقواعده الخاصة ، ولكنها جميعاً تهتم ببنية النص من ناحية الدلالة والمحتوى والمضمون. ولا يستطيع القارئ أن يخضع النص لمعنى عام وأن يقرنه به ، الا عندما يركن لنظام ، يؤلف حجر الزاوية في عملية الفهم والإفهام ، مما يساعده على كشف كيفية عمل المقال وميكانيكيته ، وعلى استبعاد الأنظمة التي تهتم بفهم النصوص العامة وغير المتخصصة. ان النظام الخاص بالمقال الجامعي يتناول هذا النوع من الأدب بمعايير ، تحدد الخصائص التي بها تُعرف نوعية المقال والسمة التي بها تميّز.

ويشعر القارئ غير المؤهل شعوراً غامضاً بمعنى نص المقال ، ولكنه لا يستطيع أن يفك رموزه إلا بشكل جزئي وسطحي ، ويشعر القارئ النبيه بضرورة كشف دلالة المقال العامة ، وازالة اللبس والابهام ، وتبنّي شروح موضوعية بعيدة كل البعد عن الاعتباطية. ومن المعلوم ان المناقش هو من القرّاء النبهاء الذين

ينتقون نظاماً ، يثقون به ، يساعدهم على كشف معنى المقال العام ، والذين يقرنونه بميكانيكية معينة وبشرح معقول ، والذين يرجعون أخيراً اجزاءه الى طوائف المعاني الفرعية والى زمر الدلالات الجزئية .

٢ — اعتماد علوم المعاني والدلالة الحديثة : يحوّل المناقش المقال الذي يتفحصه ، والذي يتألف من رموز وإشارات دلالية الى سؤال يُطرح على علوم المعاني . وقد يسلمنا المرشح الذي يلتمس رموزه الدلالية من التفسير المعجمي والشرح القاموسي مقالة شبه علمية ، تتلاعب بمعاني الألفاظ ودلالات المفردات ، وتسوق المضمون في متاهات الدهاليز ومعابر الشروح المتحذلقة ، أو ترجع الدلالات الى عموميات وبديهيات معروفة لدى الجميع ، ولا يجوز لها أن تَرِد في موضوع متخصص كالمقال الجامعي . وقديسلمنا البعض الآخر الذي فتّش عن نظريات دلالية حديثة ، فتحت له مغاليق العلم ، مقالة عميقة ، تتحلى بالكثير من الموضوعية ، فنعود ، لتقييمها ، ولفك رموزها الى علوم المعاني والدلالة والسيمونتيكا والسميوتيكا والسميولوجيا ، ونحللها تحليلاً علمياً دقيقاً ، ونفككها الى إشارات وصور ورموز ، وننظر في التفاصيل ، ونسوق مجموعة من المبادئ الحديثة التي تميط اللثام عن بنية المقال الدلالية والتي تبين عمل الاشارات ونوعيتها . ويقوم المقال على مصطلح وتعريفات وموضوعات وأقوال تشكل العدّة التي يعتمدها الباحث ، وبخاصة على حدود دقيقة يطمئن اليها العقل ، وتبعده عن التصيّد الواهي والإلغاز التعليلي المرهق ،

وتقيّده بجوهر الكلمات ، وتتيح له أن ينظفها ممّا علق بها من الشوائب . وقد يبتدع البعض حدوداً خاصة تسمح للفكر الجوّاب بأن يتصرف بالمعاني والدلالات ، ففي هذا الأمر نفع محقق ، يؤدي الى توسيع شبكة مفردات لغة المقال المتخصص. ومن المعلوم ان كل تقدم علمي يتطلب المزيد من الحدود والمصطلحات ، الذي تدعو اليه حاجات التطور ودواعي الحضارة المتجددة ، وان كل تطور في المقال الجامعي وفي تحسين انتاجه بحاجة الى اصطلاحات جديدة ، تهضمها اللغة ، وتتحول الى نسغ عربي ، نحن بأشد الحاجة اليه .

ونرسم ، على سبيل المثال ، خطى المنهج الأدنى الذي يحقق تحليل المقال تحليلاً دلالياً نوعياً :

— تعيين نظام فك الترميز المعتمد والبرنامج الأدنى للمقال .

— تحديد بنية المقال الدلالية الكبرى ، ثم بناه الصغرى .

— احصاء كنز المقال وتكميم ذخيرته وإشاراته المعبرة (حساب تواتر المفردات والمصطلحات والحدود التي تسيطر على المقال أو قدر الكلمات المفاتيح التي تساعد على فهمه ...) .

— تعريف معامل الترابط والاتفاقات الاقترانية النموذجية والعلاقات الاقترانية الأفقية والعمودية .

— رسم الحقول الدلالية أو المفهومية .

وفي سبيل روز مقال المرشح ، نفصّل المبادئ الواردة أعلاه بالشروح الايضاحية والمعلومات الملائمة ، ونبرز خطوط المقال الدلالية الرئيسية ، ونتعلق بالثابت ، ونفك المعنى العميق ، ونستنطق المغزى ، ونستجلي الجوهر ، ونبرز الدلالات ، فنحصل على نتائج مقنعة .

٣ــ تبيان حقول المفاهيم الماثلة في اصطلاحاتها : يريد المناقش فهم مقالة المرشح فهماً حقيقياً ، ويبحث عن بنية منطقية تدخل الاصطلاحات في حقول مفهومية ، تنبع من طبيعة الإشارات الدلالية ، ويروز مضمار المقال ويتفحص أرضيته ، ويبعد الإشارات التي أقحمت اقحاماً ، ويسجل الرموز التي يعثر عليها ، ويجمعها في حقول متراصة المفردات وقوية البنيان ، تبين بالبرهان القاطع مدى ترابط مفرداتها وقوة صلاتها ووشائجها بجاراتها ، ضمن الحقل الواحد .

وأما الإشارات الدلالية الصغرى فهي تُعالج بالعودة الى طبيعة الاصطلاح أو المفردة ، اذ لا تشكل الكلمة وحدة مستقلة ، ولا يتم تحديد معناها النصوصي الابدخولها في حقل مفهومي . واذا انتقلت مفردة واحدة من حقل الى آخر أحدث انتقالها اضطراباً في حقل مفهومي واحد أو أكثر ، اذ تجد لها تارة حيزاً تشغله في الحقل الجديد الذي اجتاحته ، دون أن تلقى مقاومة ، وتجدُها طوراً كلمات تأبى أن تفسح لها مجال الدخول الى حيزها الحياتي . وتبتعد في كلتا الحالتين

الكلمة الجانحة عن معناها الأصلي ، وترضخ لدلالة سياقية تكتسبها من متن المقال .

وأما الاشارات الدلالية الكبرى فهي تعالج بالعودة الى بنية الحقول المفهومية الماثلة في المقال ، والتي تتمظهر بواسطتها ذهنية واضع المقال . وقد يقحم هذا الأخير مفردة في حقل متناسق ، وقد يبعدها عنه ، وقد يغير موقعها ، فيحصل في الحقول اضطرابات تؤثر في مجموعة المفردات . ويتعقب المناقش هذه الأحداث وهذه الاضطرابات ، ويتابعها ، وقد يرى أنه قد لا يطرأ تعديل على مساحة الحقل المفهومي ، فتجتاح المفردة الوافدة حيزاً مكانياً تكتسبه على حساب جاراتها ، وتجد لها مكاناً تحت شمس الحقل ، إن صحَّ التعبير ، وتتحول الى حلقة صغيرة من شبكة الحقل الذي رحّب بها وقبلها فيه . أو قد يرى أنه طرأ تعديل على مساحة الحقل المفهومي بكامله ، فيحوّر الحقل المفهومي ما يجاوره من حقول ، وتحدث انقلابات جذرية في معظم مفاهيم بعض الحقول . أو قد يرى ان حقولاً بكاملها أخذت تتحول ، وتنتقل مع جميع مفرداتها من حيّز الى حيّز آخر ، فتجتذبها حينئذ حقول أخرى ، تسيطر عليها وتتمثلها ، أو يقع التشويش في عدد كبير من الحقول ، بفعل الحقول المنتقلة والطارئة ، مما يؤدي الى اعادة النظر في تنسيق الحقول المفهومية الناتجة عن تلك الاقتحامات والاجتياحات ، والى تنظيمها تنظيماً جديداً .

ويتسنى للمناقش رسم لوحة كاملة للإشارات الدلالية الصغرى والكبرى وللحقول المفهومية ، بموجب المبادئ التالية :

— إن إشارات الدلالة الصغرى والكبرى والحقول المفهومية لا ترضخ لأشياء خارجية وبعيدة عن طبيعتها ونوعيتها .

— ان المفردات أو الكلمات لا تشكل وحدات مستقلة ، ولذا يجب اخضاعها ، بغية ابراز معانيها ، لعمليات الجمع والتجميل والتبويب والتصنيف .

— ان جمع المفردات في لوحات علمية وادراجها في حقول مفهومية ، حسب مبادئ علم التسمية والدلالة والمعاني ، يؤدي الى احترام معانيها الاشتقاقية والمفهومية والى تشكيل مصطلح متكامل ودستور بليغ وناطق ، لا موضع فيه للشك والريبة والالتباس .

ويتعرف المناقش على المعاني الماثلة في مقال المرشح ، ويرصد الحقل الذي تحرّك فيه لصياغة دراسته وكتابة بحثه . وقد يتمكن المناقش من وضع قاموس كامل ، يضمّنه منظومة المفاهيم ومجموعة الحقول التي عوّل عليها الباحث ، والتي تبرز أولاً العلاقات الحقيقية القائمة بين بنية معجمه وبنية مقاله ، والتي تبين ثانياً الوشائج الفعلية التي تربط بنية معجمه ومقاله بقوالب فكره وهيكلية ذهنيته . ويكون هذا القاموس الدستور العام الذي يروز به المناقش فقر المقال أو غناه ، والذي يكشف بوضوح فحوى البحث ومغزاه .

* * *

مقال المرشح قيد لغته وسجل فكره في آن واحد. ولئن كان معنى المقال ينكفئ على ذاته ، ويتبلور في سجل مغلق قائم بذاته ، فهو يشكل ملفاً ظاهراً أو مستمسكاً حسياً ، يُحال على هيئة تحكيمية ، تتصدى له ، وتستجوبه ، وتحلل إشاراته الدلالية الكبرى والصغرى ، لتكشف معناه. ولئلا تسيء فهمه ، تعتبره قضية ، لها قواعد تبيّن كيفية مطالعتها ، ولها أصول تتبع لاستنطاقها استنطاقاً تاماً. وتعالجها اللجنة المناقشة في ضوء ما تقدم ، وتتعمق لتفهم عناصرها المكونة ، وتسدد نظرها الثاقب ، لتكتشف ما خفي فيها ، ولتعثر على الاسباب الدفينة التي حرّكت القضية أو الدوافع التي حثت صاحبها على تبني نهج معين...

تمعن اللجنة النظر في المقال. وركائز مطالعاتها التجربة والمران والخبرة والممارسة والحجة والبرهان. وأداة مطالعاتها مقالات وخطابات وأحكام وفتاوى هي أيضاً من صنع اللغة ومن طبيعة المقال المحال اليها ، فتنقد المقال بالمقال والكلام بالكلام. ودستور عام مطالعاتها يتألف من بنود متعددة منها الموضوع والتقليد والتجديد والمنهج وعلوم الدلالة ... وتُحال مطالعات أعضاء اللجنة المناقشة على هيئتها المجتمعة بكامل أعضائها لتصدر الحكم المبرم أو التقييم النهائي.

الفصل الثالث

مغزى التقييم النهائي

يصل المرشح ، بعد مسيرة الألف ميل وميل الى مرحلة التقييم النهائي . وقد يتخاذل أثناء هذه المسيرة عدد كبير من الدارسين ، ولا يتابعون العمل لضيق نفَسِهم ، ويتخلون عن أبحاثهم . وتطرح الهيئة المناقشة ، في الميزان ، ما يبلغها من رسائل وأطروحات ، كما يفعل أوزيريس الذي يزن أعمال الناس ويدفع كلاً منهم الى الجزاء العادل . ولئلا نقسو في الحساب ، نحاول انتهاج الطريقة المتسامحة ، فهناك موقف المقيّم الصحفي ، وهو مرفوض في هذا النوع من الانتاج ، وهناك موقف المقيِّم المتشدّد ، ولكننا نذكّر أن المشرف والأساتذة المناقشين ما هم بالجلادين ، بل هم جماعة لينة العريكة ، طيبة القلب ، تراعي ظروف عصرنا الصعبة ، وتأخذ عادة بموقف المقيِّم الذي يعمل قارئاً في دار نشر ، والذي يفتش عن مخطوط

يدفعه الى آلات الطباعة التي تحول ورق المقال المعقول الى غذاء للروح.

ولا يجوز للمشرفين قيادة عمل الدارسين بيد متراخية، وتظهر عنجهية المشرف من قوة تسييره العمل، ومن مدّه بالعون من يسعى متابعة الجهود وتخطي الصعاب، ومن دفعه المتقدمين الى المزيد من الطلب، ومن تقييمه العمل بشكل عادل، فيقدر أن كفة الخير رجحت، وأن الإيجابيات تغلبت على السلبيات. وقد يتخلى المشرف عن الدارس الذي يلمس فيه أنه غير قادر على متابعة المسيرة، وعلى إنتاج المقال، ويقف موقف الديَّان، ويحكم على رداءة العمل، من حيث الشكل أو من حيث المضمون أو من حيث الشكل والمضمون في آن واحد.

يتقيّد المقال، **من حيث الشكل**، بمبدأ مراعاة كلامنا مقتضى الأحوال. وتتجلّى تلك المراعاة في لغة سليمة نلتزم بها في مقالاتنا الجامعية. وقد نتساهل مع المتقدم لنيل دكتوراه في علوم الإلهي والأوقاف والحُبُس والاجتماع والجغرافيا والسكان والأعراق والأجناس... ولا نحاسبه الحساب العسير، ونأخذ بعين الاعتبار طبيعة بحثه. وقد نتساهل بعض الشيء مع الباحث في الدراسات اللغوية والأدبية، وقد لا نطلب منه أن يكون قس بن ساعدة، وقد نكتفي معه أن يرقى بلغته الى حد أدنى، من الضروري أن يؤمنه شكل رسالته وصوغ تعبيرها.

وقد يلتمس المتقدم الأعذار ، وقد يقول إنه لم يحظَ بالقدر الكافي من الإشراف ، بيد أن هناك مسلّمات لا دخل لها بعملية الإشراف ، منها أن يجيد المتقدم اللغة العربية ، وأن يتمكن على الأقل من لغة التقرير والمقال. وقد يكون المتقدم قد تعلم اللغة العربية ولمّا يبلغ الحدّ الأدنى منها ، فينشئُ بلغة المحاولات الجنينية التي يتخطاها طالب المرحلة المتوسطة الإعدادية . وقد نطلب منه أن يجوّد لغة دراسته ، ويتبيّن لنا بعد محاولات متعددة ، أن صاحبنا يجهل اللغة السوية التي نكتب بها أبحاثنا ومحاضراتنا ودروسنا وأمالينا ، وأن لغته ركيكة في تراكيبها ، واهية في أدوات ربطها ، ضعيفة في معجمها ، عازفة عن احترام علامات الوقف والتنقيط ، عاجزة عن الإبانة وعن أداء المعنى ، وأنها تقع في شرك الأخطاء التي لا نعثر عليها في وظائف تلامذة الصفوف الابتدائية !

وقد نطلب أحياناً من صاحب البحث أن يزيل طابع العجمة عن رسالته ، لأنه سعى ، في دراسته ، الى نقل نظريات غريبة يريد أن يؤقلمها في الدراسات العربية . ولئن كانت محاولة الأقلمة ، في هذا المجال ، بحَسنة واحدة ، عندما نكتب البحث باللغة الأجنبية ، فهي بحسنتين ، عندما نكتب البحث باللغة العربية ، إذ يجب حينئذ أن نقطع صلات لغتنا العربية بالنصوص الأجنبية التي نترجمها ، لئلا تتصاعد منها رائحة العجمة . ومن قواعد النقل معرفة اللغة الفرنسية أو الانكليزية ، وفهم المادة المكتوبة باللغة الأجنبية ، ثم استيعاب المادة وصوغها بلغة عربية سليمة . وعلى من يودّ أن يقوم

بأقلمة النظريات الأجنبية ، أن ينظف الحرف مما علق به من الشوائب ويبرز الكلمة بأجلى معانيها بلسانٍ مبين ، وبلغة تتجه إلى قارئ ، قد يجهل اللغات الأجنبية جهلاً تاماً ، وقد لا يفهم إلا لغة المقال العربي .

وبما أن الرسالة أو الأطروحة تتألف من شكل ومن مضمون ، وبما أن شكل الدراسة التي بين يدينا يتألف مثلاً من مسودة (وكلنا يعرف أن الرسالة أو الأطروحة تأتي نتيجة عمليات إنشائية — صناعية نقوم بها عدداً كبيراً من المرات ، لنصل في نهاية المطاف الى صياغة نرضى عنها) نطلب من صاحب المسودة أن يعيد كتابتها ، وأن يضعها ، بالشكل المتعارف عليه في أدب الرسالة أو الأطروحة ، وأن يجري تعديلات جذرية على صناعة دراسته وإنشائها . وعندما لا يتأمن في الدراسة الحد الأدنى من الأسلوب التقريري الجافّ بعض الجفاف ، والقالب اللغوي الذي يؤدي الغذاء الفكري المجرد ، وعندما نجد أنفسنا تجاه حالات لا رجوَ منها ولا ينفع فيها الدواء ، نتخلى عن الإشراف أو نعتزل عضوية الهيئة المناقشة ، ونرفض العمل من حيث شكله ، قبل أن ننظر أحياناً في مضمونه .

ويصعب الحكم مبدئياً على الدراسة ، **من حيث المضمون** ، وقد يجتمع صاحبها بنا ، بشكل منظم ، وذلك لتحديد مستلزمات العمل وإقرار تفاصيل المضمون . وقد تساورنا الشكوك ، بخصوص قدرة الدارس على القيام بمهمته . وقد نقاسي بتعاملنا معه ما

نقاسي ، ونعاني ما نعاني . وبما أن المثل العامي يقول (الحمل على الجوقة خفيف) نلتمس العون ، في قضية المضمون الرهيفة والدقيقة ، ونستمد النجدة من الزملاء المشرفين ، ونطلب إحالة الدراسة على قارئ ثان فثالث ورابع حتى آخر المعزوفة ، لعلنا نستطيع بعدئذ عقد اجتماع مع الزملاء كافة ، نقنع على إثره المتقدم ، إمّا بالتقيّد بحد أدنى من المنهجيات لتحسين المضمون الذي ندخله الى غرفة العناية الفائقة ، إما بالكفّ عن متابعة التحصيل. وما يشفع بالمتقدم هو كونه يكتب اللغة بشكل سليم ، وتكون مشكلته منبثقة من صميم العلم ، وتأتي مثلاً مقالته :

— وصفية سطحية ، تتجاهل التصنيف ، وتبعثر الحالات ، وتنفلت من عقال المنطق ، وتتحلل من عامل الترابط .

— سردية استطرادية ، تسرد الآراء ، من غير التعليق عليها أو تحليلها ، وتستطرد في ما لا يصح فيه الاستطراد ، وتنقل ما ورد في كتب مبتذلة .

— ذات نبرة نضالية طائفية ، تثير مشكلات ومشاحنات نحن بغنى عنها .

— رديئة ، تحيد عن الموضوع ، وتنساب كالكمية القليلة من الزيت التي تلوث الصفحات الكثيرة ، وقد لا تتجاوز فيها الصفحات العميقة عدد أصابع اليد .

— رخصة ، لا تثير مشكلة أو قضية ، ولا تنبثق عن شمول عضوي في التنظير ، ولا تتوسل طرائق عملية في التطبيق.

— مجزومة ، لم تكتمل أجزاءها ولم تستوفِ أبوابها ، وتبقى مخرومة.

ويؤكّد الحكم العام بُعْدَها كل البعد عن معايير الدراسات الجامعية ، ويسعى القيّم الى إبعادها عن منصّة المناقشة ، معللاً ذلك بأنها وصفية سطحية ، سردية استطرادية ، ذات نبرة نضالية طائفية ، رديئة ، رخصة ، مجزومة ومخرومة...

وقد تُرفض الدراسة لقيام العلتين فيها أي **من حيث الشكل ومن حيث المضمون في آن واحد** ، وقد يتسلل صاحبها ، والحَكَم في غفلة ، وقد يتم الحصول بعمل رديء على المؤهل ، دون أن يستدرك الدارس ما فاته من التحصيل ، ولذا نذكره ، ولعلَّ الذكرى تنفع ، بأن العلم لا يزال منه أبعد من بيض الأنوق ، وأن محاولته الحصول على المؤهل هي من قبيل التسلل ، وأنها لن تبلغه إلا الغاية الرخيصة ، وليس إحراز الدرجة الجامعية غاية بحدّ ذاته ، والغاية من الحصول على المؤهل الإفادة بأن حامله يملك زمام الأمر في ما يقول ويكتب. وأنّى للمقصّر ذلك ، وكان يخاف من التنقيح والتعديل والتبديل والتقديم والتأخير ، وكان عمله يرتكز على مقالة رديئة ، ويتألف من بنيان يتداعى ، وينذربالتساقط ، كلما امتدت اليه يد الإصلاح : عمل سطحي في فلسفته ، واهٍ في أُسسه أي في مصادره ، ضعيف في مراجعه ، هزيل في بنيته وتركيبه وهيكليته.

وقد تجنح الدرجات التقييمية التي نمنحها عن سلمها، وقد تعبر مواقفنا الشخصية عن قيمة البحث أكثر مما تعبر عنه درجات مقبول وحسن وجيد جداً والشرف الثاني والشرف الأول والشرف الأول بالإجماع والشرف الأول مع ثناء اللجنة الفاحصة...

نسهم غالباً في إنقاذ الموقف، ونسعى، في جلسة المناقشة العلنية، الى أن نجد، في عمل المتقدم، بعض المحسنات وقسطاً من الجهود الطيبة وشيئاً من الرصيد العلمي، ونقف من الإنتاج موقف بين بين، لعلمنا أنه يقع بين المنزلتين. وهذه حالنا، في عصرنا الحاضر، مع معظم الرسائل والأطروحات.

وقد نشير الى الأدران والشوائب التي تخالط نص البحث، كالوقوع في شرك التعابير المبلبلة والبعيدة عن الوضوح والصور المبتذلة والمتقعرة، وكالاضطراب الذي يبدو في صياغة الجمل والذي يصيب لغة التقرير، ويسيىء اليها ويشوهها. لا شك في أن المتقدم قام بتعديل الكثير من شكل بحثه، دون أن يتوصل الى صياغة مقبولة. كما نشير الى هنات المضمون التي تنتج عن الاضطراب الذي يقع فيه الدارس، بخاصة في أول الأمر، ثم لا يلبث أحياناً أن يتملك زمام الأمر وأن يسيطر على مادة بحثه. وقد نؤاخذ الدارس على اتباعه منهجيات قديمة وبالية ومحدودة الجدوى، ونقوم حينئذ بإحصاء صفحات البحث الجيدة، ونوصيه بأن يعكف على المطالعة، وبأن يكفّ عن الكتابة الرخيصة، وبأن يكتسب شيئاً من المنهجيات الحديثة، ليتمكن من ملكة البحث.

وقد يحفل البحث بالقلق والاضطراب من ناحيتي التعبير والتفكير، وقد يتألف من خواطر متناثرة، تجتمع صدفة تحت أتيكيت أو رقعة تنبئ عن بضاعة، يكون البحث خالياً منها.

وقد نكافئ من يبتعد عن المواضيع الجميلة التي تستهوي أفئدة المبتدئين العاطفيين، ومن يخضع نفسه لتمرين شاقّ ومملّ وروتيني، ومن يخفض للحق جناح الطاعة، ومن يقوم بأعمال متواضعة، تتيح، بشكل أوضح من سواها من التمارين الجامعية، التعبير عن نصيبه الأكمل من الدقة والتحري والأمانة، وتشهد على صبره وجلَده وإخلاصه. وقد نكافئ من يقوم بمحاولة جدية ويفتح طريقاً جديداً، ولا نبخسه حقّه، بالرغم من أنه لم يوفِ الموضوع تمام حقه، ولكنه مهّد، لكي يسلكه آخرون بعده، ولكي يتابعوا المسيرة...

وقد نُجزي بالمكافأة العادلة صفات المتقدم الانسانية، وقد نُجْزِلُ العطاء لِمَنْ عمر قلبه بحسن القصد ونبل الغرض وشدّة الحرص على اكتساب العلم. وكم من حالة تبيّن أن الدّارس أراد أن يتزود بالمعارف زاداً وافراً، وأن يستدرك ما فاته من التحصيل، لذا يأخذ على عاتقه مهمة تحضير بعض الشهادات العالية، ويبذل قصارى جهده في الدرس والاستخلاص، ثم يشغله بحث الدكتوراه، سنين طِوالاً، عن كل متاع الدّنيا، فيستأثر بكل ما فيه من قوة وجلد وروح مثابرة، ومن الواضح أن حياته كباحث كانت صراعاً مريراً ضد القدر أو المرض، يتقلب فيها بين ربيع الأمل

وجحيم اليأس ، ونطرح حينئذ العمل وصاحبه في آن واحد ، بكفة القسطاس ، وترجحها ثمرات الصبر والأناة وطول البال ، ويبلغ الدّارس الغاية ، ويصيب الهدف ، وينال المرام ، بفضل صبر لا يتحلى به إلا الراهب المترهب والقابع في صومعته ، وبفضل طول بال ، لا نراه إلا في زوايا المناسك وفي خلايا المعابد ، وبفضل أناة قد نعثر نادراً على من يتجمل بها في حلقات المساجد والجوامع .

ونكافئ الرسائل الرصينة والأطروحات القيّمة التي تسهم في سدّ ثغرة علمية ، ونجزي أصحابها الذين يجعلون من دراساتهم وحدة متجانسة متآلفة ، والذين يدركون كنه المادة ويصلون الى لبابها ، بعمق التحليل وبموضوعية المسائل التي يثيرونها ، والذين يضمنونها مجموعة من الأفكار الإيجابية والمعلومات البناءة والتحاليل العميقة والمناقشات المعقولة . ونكافئ الدراسة المتينة التعبير ، الرفيعة الأسلوب ، الجيدة المنهجية ، المتناسقة التبويب ، الغزيرة المادة ، القيّمة المعلومات ، وتظهر هذه السمات ، بالبيان الصريح ، ما توصل اليه الدارس بالبحث الدائب والدراسة المستوعبة والفهم الثاقب والمنطق القاطع والاجتهاد العقلي البارع . ونهنئ المتقدم الذي توفرت فيه النزاهة والعدالة والذي ابتعد عن الهوى ، وسلك جادة المنطق القويم التي أوصلته الى طمأنينة العقل وسلامة الاستنتاج ، ونعترف له بنصيبه الأكمل من الدقة والتحري والضبط والأمانة ووفرة التحصيل وغزارة المعارف. وهذه المناقب تشهد ، بشكل قاطع ، على صبره وجلده وإخلاصه ، وتكفل له

بأنه أشبع موضوع دراسته بحثاً وتمحيصاً ، وتضمن ما قام به من مساعٍ مشكورة ومن جهود طيبة.

ونصنف في طبقة الروّاد هؤلاء الذين يحاولون القيام بنوع من المغامرة العلمية ، والذين يسيرون في طليعة العاملين المخلصين الذين أوكل إليهم أمر ريادة علوم جديدة ، والذين يؤلفون الرعيل الأول ، والذين لا يدعون الفرصة تفوتهم ، فيحطمون بفكرهم الجوّاب والمتحرك والمجدّد أصناماً جوفاء ، ويكسرون موازين عاطلة لا تصلح كقساطيس مستقيمة . ونذكر فضل دراساتهم التي تجلب لنا رصيداً وافراً من الأفكار الإيجابية الحديثة ومن الموازنات السليمة والمقارنات المقنعة والتحاليل الصائبة والتعميم المبني على الإحصاء والتكميم اللذين يطبقان في حديث البحوث اللغوية والأدبية ، فنصنفهم في أسمى طبقات الروّاد وفي الرعيل الأول من الفاتحين. وقد ندعو نحن عادة هؤلاء ، ويلبون الدعوة ، وهم من النخبة المختارة التي تذود عن قضاياها بنبرة نضالية ، لا تخلو من شيء من التحامل المبطن ، والتي تغمز من قناة المتمسكين بالقديم ، هؤلاء الذين لا يغامرون ولا يصلون الى النتائج التي توصلوا هم اليها. وتكون في المستقبل هذه النخبة المختارة صاحبة قضية.

وقد يقع المناقش ، من وقت الى آخر ، على بحث وفّاه صاحبه حقّه ، وخرج به على المبتذل التافه ، ونأى به عن النافلة ، فيغبط نفسه ، ويلهج بالثناء ، ويتابع قراءة البحث الشيّق ، ويتوسم من بين السطور قيافة السفر القابل الى أن يُطبع ويُنشر. وما رائد

الأستاذ الجامعي إلا ثراء المكتبة الأكاديمية وتزويدها بدراسات عامة رصينة وبمباحث متخصصة قيّمة.

ولا مانع من أن يبحث الدارس في مادّة تقليدية، بشرط أن يتصدّى لها بروح علمية، وأن يقاربها على شكل قضية، وأن يعالجها بمنهجيات مناسبة، وأن يبيّن أبعادها، معتمداً على ما استقر حولها من مبادئ، ومتوسلاً ما صُنِّفَ بصددها من مراجع قديمة وحديثة، وأن يسمها بسمة البحث العلمي الحق. ويكون العمل نتيجة الكدّ والجدّ والبذل والعطاء، في سبيل نشر العلم والمعرفة، وتجيء الدراسة لتدلنا على الوسيلة الصحيحة لبلوغ الأرب حتى في القديم، ولتبين لنا كيف أنها تصلح لأن تكون مرجعاً موثوقاً به، يفيد منه الاختصاصيون، ولأن تكون أداة لتحسين الدراسات ولتجديد الأبحاث. وقد ينتج غيره بحثاً، يتبع فيه تخطيطاً جديداً وتوجيهاً حديثاً، وقد يسهم الإنتاج في تثوير الدراسات مع ترسيخها على دعائم متينة، فتكلل مساعي الدارس المشكورة وجهوده الطيبة في سفر يقوم بدور الريادة في المكتبة العربية، ويكون مرجعاً موثوقاً به، جمّ الفائدة، ويبين لنا بالبرهان القاطع قيمة النظريات الحديثة.

وعلى كلّ، نحن معشر المشرفين والمناقشين، نتقبل جميع الدراسات، ونكبت أحياناً نوازع فينا، ونتذوق الدراسات الجيدة، مهما تعدّدت مشاربها، وتنوّعت الطرائق المتّبعة فيها، ونرى أنه لا فضل لمجدد على تقليديّ إلا بالجهود الطيبة التي تتبلور في

البحث. واللجنة الفاحصة لا تضيِّع، من ناحية أولى، كدّ المجتهدين، ولا تهدر جهد المثابرين الصابرين، ومن منّا يدعي أنه قال في القديم الكلام الفصل، وتوصّل الى الحقيقة العارية والمجردة؟ ولا نبخس، من ناحية ثانية، حقّ الروّاد المجلين والمبرزين. ولا يسعنا في هاتين الحالتين إلا أن ننهي المناقشة بمسك الختام، وأن نوصي بنشر الدراسات التي تخبرنا الخبر الصحيح عن علمنا، والتي تسدّ حاجة أكاديمية ماسة، فنطالب بأن يتم الطبع على نفقة الجامعة أولاً بأول. ويكون صاحب البحث استفاد وبدوره أفاد، وارتفع الى مصاف العلماء، أصحاب المؤلفات الجامعية المطبوعة.

* * *

الخاتمة

الباحث صانع ينتج مقالاً ، والصنيع مقاله ، ووضعنا مواصفات لتحسين صناعة المقال ، وبينا الطرق الايجابية التي يجب على الصانع أن يسلكها ، ورسمنا الخطوات الصائبة التي يجب أن يقوم بها ، ولفتنا نظره الى العقبات التي تعترضه والى كيفية تذليلها ، ووصفنا الصعوبات التي تصادفه والى كيفية تخطيها . واتخذ مقالنا شكل ارشاد وخط موجه ومنهج وطريقة عمل أو بالأحرى شكل وصفة

ومن المعلوم ان الوصفة شيء وان انجاحها شيء آخر . وهناك كتب في فن الصيد والانقلابات والثورات وشن الحروب والغارات ومؤلفات في وصفات الطبخ والطهي وقيادة السيارة* ...

* الغاية أن ننقل مثلاً ما نطلع عليه في فن الطهي وقيادة السيارة الى الحقل العملي . ورائدنا التطبيق الناجح ، فلا وصفة جيدة في فن الطبخ ، ولا طريقة عمل مقبولة في فن قيادة السيارة إلا بانجاحها في الحيّز العملي . وما الهدف من أن تطلع سيدة البيت على وصفة مطبخية ، وان تقدم طبق الطعام الى زوجها الذي اشترى لها كتاب فن الطهي ، والذي لا يستطيع أن يميز هل محتوى طبقه هو من اللحم المطبوخ أو من الحلوى الناضجة ! وما القصد من أن يطلع المرء على قيادة السيارة نظرياً فقط ، وان يرتطم بعدئذ ، في سوقها عملياً ، بأول عمود كهربائي يصادفه في طريقه ! ...

وقد يفيد من وصفتنا هذه الدارس الذي يتحلى بمزايا الحرفي الماهر، والباحث صناع اليدين الذي يحول المادة المحايدة الى عمل أدبي أو لغوي رائع.

وقد انتاب الوضع الحاضر، في غضون السنوات القليلة الماضية، تبدل جوهري أصاب جميع معالم البحث ومقوماته وعناصره. وقد تحوّلت صور البحث البسيطة الى صور معقدة ومركبة. ولا شك في أننا نفيد من البحوث التقليدية المجربة، ونعترف بفضل الذين مهدوا لنا الطريق، لكي نتجاوزها ونتخطاها، وما كنا لنتسلق بعض درجات سلم النشوء والارتقاء، لولا دراسات، كانت مقبولة في عصرها، وكان قد قام بها ابناء جيلها. ولكن لم تعد الحاجة اليوم الى بعض المبادئ العامة التي يكتنفها الكثير من الغموض، والتي تفتقر الى الكثير من الوضوح، أو الى اثبات البديهيات والأوليّات، بل الحاجة أصبحت تقتضي المبادئ الواضحة، والقوانين المكتملة شروط التنظير وأسباب التطبيق. ولا يجوز ان نقارن أوضاعنا المعقدة بأوضاع من سبقنا البسيطة، وأن نعتبر ما كان في عهدهم وافياً وجديراً بالتقدير، أصناماً نعبدها اليوم، وتماثيل نحرق لها البخور ونقدم لها القرابين.

ان جوهر البحث بالذات تعرّض، خلال السنوات الأخيرة، لتبدلات أساسية، وتمخض عن واقع جديد، باتت المفاهيم التي اعتدناها، حتى الأمس القريب، مفاهيم غير وافية، وأصبحت التصورات التي كنا ننظر، من خلالها الى مشاكل اللغة وقضايا

الأدب ، تصورات لا تتلاءم مع واقعنا الجديد ، ولا تتناسب مع مقتضيات عصرنا . واننا نعيش في وسط عالم متحرك ، ولا يجوز لنا أن ننظر الى عالمنا المعاصر المتبدل بعيون شاخصة الى الماضي أو مسمرة الى الجامد من الأوضاع والراكد من الحالات . **وانتقلنا ، بفترة وجيزة ، من جيل البحث اليدوي الحرفي الى جيل البحث الآلي الالكتروني** ، وهو جيل جديد يختلف تمام الاختلاف عن الجيل السابق ، تماماً كما تختلف ، بشكل متسارع ، أجيال الأدمغة الالكترونية التي تتبارى المعامل الكبرى في تصنيعها وانتاجها وطرحها في أسواق التداول .

ولا نعيش هذا التطور المتسارع إلا عندما نقوم بعملية فكرية جريئة ، تتوخى إعادة النظر في مفاهيمنا وتصوراتنا ، في مقاييسنا وقيمنا ، في اجوبتنا وردودنا . وقد طرح علينا هذا التطور مشكلات جديدة ، لم تطرحها الأجيال السابقة ، وقد وجّه الينا من التحديات ، ما لا عهد لنا به ، وما لا قدرة لنا على مجابهته ، الا بتخطيط منظم ، يرتكز على نظرة تحليلية وتشخيصية شاملة .

اننا لا نعاني أزمة فقر أو نقص في العناصر البشرية ، إن من ناحية الهيئات المنظرة ، وإن من ناحية الهيئات التي ترمي القيام بالعمل وتحقيقه وتنفيذه . وقد نشأت الازمة التي نعانيها من نظرتنا التقليدية الى الباحث والى التقنيات التي يسخرها البحث . ونعالج هذه الأزمة بوضوح ، ونخرج من حالة الارتباك والحيرة ، ونحن على عتبة عهد جديد ، عندما نبتدع نظرية جديدة في الإصلاح

والبناء ، وعندما نتناول العنصر البشري وعلاقته بالوسائل والتقنيات الحديثة . ولم يعد من مبرر اطلاقاً ، في عصر التكنولوجيا ، عزل الباحث عن وسائل البحث . ومن هنا تنشأ الأهمية التي يتصف بها اختيارنا لنظرية ، ستثبت حدوث تبدل شامل في مجموعة من العلاقات .

وهناك العلاقة الجديدة التي نريد منها أن تربط الباحث بفريقه المنظم ، والصلة الحميمة التي نأمل أن تشده إلى الأجهزة والاعتدة الحديثة . ويؤدي بالطبع العمل الفريقي وتسخير الآلة الى تبدل نوعي في الوشائج التي تصل المرشح بالذي يشرف على بحثه .

كانت الهيئات المشرفة على البحوث متفككة ومتخلخلة ، ولذا نفتقر الى العمل الفريقي ، لا سيما ان الباحثين والدارسين كانوا في مواضع غريبة وفي مواقع مشتتة . هنا المنزوي في برجه العاجي والمتنعم بنرجسيته ، أو القانع بالانتاج المتواضع والعمل الفردي الحرفي البسيط . وهناك المتذمر الناقم الذي يحمّل مسؤولية فشله للظروف والأقدار ، أو اليائس الحاقد على زميل له ، أصاب شيئاً من التوفيق والنجاح ، والمتململ الحائر الذي يتلمس طريق العمل ، دون أن يهتدي اليه ، أو الصارخ في البرية ولا حياة لمن ينادي . وهنالك غير المبالي الذي يهدف الوصول بالطرق الملتوية الى المؤهل العلمي ... وجميعهم مع الأسف مسؤولون كلياً أو جزئياً عن اداء رسالتهم بما تتطلبه من انضباط وتعاون واستمرار

ألمحنا سابقاً أننا من أنصار العمل الفريقي ومن محبذيه في جميع المضامير ، ثم أوصينا بهذا النوع من العمل في الصيغة الجديدة التي نقترحها الآن . ولا نعتبر تقدم البحوث منوطاً ببعض الباحثين الذين يصيبون شيئاً من التوفيق الشخصي والنجاح الفردي ، بل ننتظر الكثير من الذين ينتظمون في فريق عمل ، يؤدي الدور الذي يتناسب وأهمية البحث وخطورته . ومن المعلوم أن العمل الفريقي الحق لا يتطلب إلا الحد الأدنى من التنظيم . ونقصد بذلك ما هو لازم لتوزيع الأعمال ، ولضمان الاستمرار في تبادل الرأي ، ولإدارة الفريق في جوّ بعيد عن البلبلة والفوضى والاضطراب .

وبما أن للعمل الفريقي أسساً ثابتة ، فلا بدَّ من مشرف أو مرشد يقوم بدور الريادة ، ويضع المبادئ الرئيسية ، ويرسم خطوط العملية التوجيهية العريضة . ومن المعلوم ان الرائد يتمتع بصفاء الرؤية ووضوح التصميم وحسن تنظيم التخطيط ، ويقوم بمسؤولياته منزهاً عن الغرض . وقد حظي الرائد بالتخصص الوافي ، وهو يعرف قواعد عمله ، وقد اطلع على أفضل ما انتجه ، في حقله ، العقل الانساني ، وقد أضاف الى الأبحاث ما هو مفيد وما يتماشى مع العصر الحديث . ومن المعلوم ان المرشد ينظر في المشكلات ويحللها ويمنحها مداها ، ويتعمق بالتفكير في شؤون اختصاصه ، ويحدّد الأساليب والوسائل ، وبخاصة هو الرئيس الرشيد لورشة العمل ، وعليه ، ليؤمن حسن سيرها ، أن يحفّز أعضاء فريقه الى المساهمة في ما هم مؤهلون له من عمل فكري خلّاق وموجّه .

وينطلق أعضاء الفريق في عملهم من واقع مقتضيات العمل ، وتتعزز كفاءاتهم ، وتزداد مؤهلاتهم قوة ، من جراء تضافر جهودهم ، وتفاعل خبراتهم ، وتبادل المنفعة . وما ينقص بعضهم من شمول في النظر ، قد يُعالج ضمن نطاق التفاعل الذي تتيحه لهم مساهمتهم المشتركة ضمن الفريق الواحد ، ثم ان ما هم فيه من يأس رهيب يتبدد ، عن طريق تعاونهم في العمل ، ويندثر السبب الأوحد وتتلاشى العزلة الفكرية التي كانوا يعانون منها الكثير. ولا يعني العمل الفريقي انحلال جهد الباحث في الجماعة وضياع سمة بحثه وهويته ، بل يعني التعاون الخلّاق ، في سبيل تأدية عمل ينسجم مع كفاءة كل فرد وقدرة كل عضو في الفريق . ومن المعلوم ان المرشح يتقدم ، لنيل لقبه الجامعي ، ببحث شخصي لا جماعي ، وبدراسة فريدة وتفصيلية توكل اليه ويحقق ذاته فيها ، ويكون مسؤولاً عن تنفيذها ، وتأتي نتائجها ثمرة اختبار طويل ومعاناة شاقة في الحقل العام ، ودراية بالحقل الخاص وبشؤونه المختلفة . كما قد يساعده الانتظام في الفريق على توسل أساليب العمل الموحدة والأدوات المشتركة المتطورة والمرتفعة التكاليف التي لا يستطيع أن يقتنيها بمفرده ، والتي تكسبه خبرات في حقل التكنولوجيا الحديثة .

وعالم الطبيعة والبديهة هو عالم التقدم البطيء ، وعالم الآلة والاصطناع هو عالم التقدم السريع . وقد سبقنا العالم ، واستعان بالوسائل التكنولوجية والطرائق الميكانوغرافية ، والتمس منها المشورة في الشؤون الخطيرة كالحرب والسلم والفضاء الخارجي والاقتصاد

العالمي والدخل القومي ... وأصبحت الآلة المتطورة من سمات عالمنا الحديث البارزة. وأوصينا بإعمال الآلة في الأبحاث والدراسات، لا سيما اننا أخذنا نستمع الى موسيقا مصنّعة الكترونياً، ونصغي الى شعر مولّد ميكانوغرافياً. ودخلت الآلة في ميدان علوم اللغة، واهتمت باللغات الجامعية المتخصصة كلغة التقييم الجمالي ولغات العلوم البحتة والتجريبية، وتعهّدت جميع ضروب القول كلغة الصحف والجرائد والتجارة والصناعة والزراعة والحقوق والنقد الأدبي أو اللغوي ومقال المرشح ومقالات الأساتذة المشرفين والمناقشين...

وقد يأمل أنصار التكنولوجيا أن تنوب عنهم الآلة في توثيق بحوثهم الكترونياً، وأن تحل محلهم الأدمغة الالكترونية في كتابة أطروحاتهم ميكانوغرافياً. وتقوم بالفعل الآلة بالتوثيق والتكميم والاحصاء، وتسهم في عملية الدراسات النصوصية، وتستقرئ النص الأصل، وتتعرف على الشواهد، وتصنفها، وتحصيها، وتكمم نسبها المئوية، وتستلها من متونها وسياقاتها، وتعيدها الى متونها وتجملها... وترصد النموذج الأعلى والنماذج الثانوية، وتحصي تواترها... وتتقيد الآلة بالإرشادات التي نزودها بها، فتستطيع أن تتولى الروز الميكانيكي الروتيني، وأن تسيّره وتشرف عليه، وهي تؤدي عملاً مادياً خدمياً، لا سقط فيه.

ان إعمال الآلة في البحوث قصد نبيل. ولا قيمة للآلة العجماء، دون وجود انسان يبرمج، ويسيطر على الحديد أو

الخردة التي تفتقر الى الذكاء الفطري، والتي تحتاج الى روح المبادهة. والانسان القدير والمتمكن من علمه، لا يرزح تحت وطأة الآلة، فينوط بها القيام بالأعمال الروتينية الرتيبة التي كانت تستغرق الجزء الأكبر من وقته، ويتحرر من ربقة النشاطات الخدمية الميكانيكية، لينصرف الى اعمال البحث الحقة، وليتولّى أمر صوغ البرامج، وتنفيذها، ومراقبة عملها، ومعرفة مدى وصولها الى الأهداف المرسومة لها ونجاحها في الحصول على نتائج جيدة. ولا نفع محقق بدون برامج، ولا قيمة للبرامج بدون انسان يعرف كيف يغذي الآلة بالخطط اللازمة، فيسيطر على الآلة، وينفخ فيها الروح.

ان الباحثين يسخرون اليوم التقنيات المتطورة لأغراض الدراسات والأبحاث، وتقوم الآلة بدور الوسيط بين العالم والمتعلم، بين المشرف والمرشح، بين الاستاذ والتلميذ، بين الرائد والتابع. ونلحظ، في مواجهة هذا الوضع الجديد، مفارقة رئيسية بين وضع البحوث والباحثين في الأمس وبين واقعنا اليوم، وبين واجباتنا الفكرية والعلمية الماضية ومهماتنا الحالية الجديدة. ونرى اننا نلبي الحاجة الملحة، ونساير التبدل الذي طرأ على مشكلات البحث، في حال اعتمادنا نوعاً من التوجيه، يحترم العلاقة الجديدة التي نشأت، والتي تربط الآن المرشح بالمشرف.

ان المشاركة في العمل الفريقي لا تعني بالضرورة التكافؤ بين المشرف والمرشح والتساوي بينهما. ومن المفترض ان يكون علم

المشرف أوسع من علم الذي يستمد التوجيه منه . ولا يملك المشرف الا معرفته ، لكي يصحح معرفته بالذات ، واستطراداً معرفة الآخرين . ولا يزال عالمنا يفتقر الى نوع نادر من المرشدين ، يمتازون بفكر منظم وصافٍ وتقي ، لكي يروا في العلم بحد ذاته وسيلة وهدفاً في آن واحد ، ويتسمون بوجدان علمي مبني على المسؤولية والإدراك والمعرفة والخبرة ، ويخلصون للعلم ، ويقصدون من ورائه وجه الله ، ويبتعدون عن السيمونية ، وينشرون الهدى والمعرفة ، ويوجهون العباد الى ما هو نافع والى ما فيه خير مؤكد للناس عامة ، ويتحلون بروح ناقدة وجريئة ، وكأنها الراصد المرشد والمسؤول الموجّه ، ويقتنعون بعد تخصصهم العميق أنهم يجهلون اختصاصهم ، ويسعون دوماً بالاطلاع المستمر الى اعادة الاعتبار الى علمهم .

ويعرف الدارس الرصين موقعه تمام المعرفة ، ولا يخطئ الطريقة أو الوسيلة . وهو يدرك طريقة اكتساب المران والدراية والخبرة بتعامله مع زملائه في الفريق ، وبتنفيذه توجيهات مرشديه . وهو يعرف الوسيلة الفضلى التي تلبي ، بمحاورته الآلة العجماء ، مقتضيات عالمنا الحديث . وقد وصفنا مطولاً الدور الاستثنائي الذي ينبغي على كل باحث أن يؤديه اليوم ، ولا يظهر معدن الدارس الأصيل إلا من خلال وزن بحثه النوعي ، ولا غروَ فهو الذي اختار موضوعاً ، عاشه من الداخل ، ولا بدَّ من أن يحققه على أكمل وجه ، لا سيما ان البحث صنيع يعكس صورة الباحث بالذات .

إننا نؤمن بباحث ، بإنسان له شخصيته وكرامته ، وبأسمى ما في كيانه الانساني من قيم أصيلة . نؤمن بالفرادة والابداع والخلق الفني والعلمي والفلسفي واللغوي والأدبي . ونؤمن بباحث يلتزم لواجبه في كل آن واين ، وفي كل مكان وزمان ، وينتج مقالاً أصيلاً ، يفرده عن غيره ، ويفصله عن سواه من البشر، وينبثق من طبيعته ، ويتبلور بالكلمة ، وجميعنا نؤمن بأن الكلمة صارت جسداً ، وحلّت فينا ، ورأينا مجدها العظيم.

بيروت في ٥ آذار ١٩٨٤ .

البحوث — المدونة

لا يتحقق تصنيف البحوث التي عوّلنا عليها في مقالنا إلا بالمجرد ، والمعلوم ان البحث الواحد يصنف بموجب اعتبارات متعددة ، ويُدرج ، في مختلف مناحي أبواب المدونة الواحدة . وما أردنا من مدونة بحوثنا المغلقة إلا ترجمة اعتبارات عملية ، فاتخذناها كأداة عمل واستطلاع ، وأغفلنا ذكر اسماء الباحثين وحفظناها في طي الكتمان ، وصنفنا البحوث في حالات معبّرة واكتفينا بذكر عناوينها ، وقمنا بمسح أفقي ، اقتصر على المعالم البارزة والتلوينات الغالبة ، دون أن يثير حول البحوث وأصحابها الشكوك أو الشبهات .

التمسنا المدونة ، لمعالجة بعض قضايا مرحلة التأهب والاطلاع (الباب الأول) وركزنا على قضية اللسان والزمان والمكان ، ومسألة انتقال بعض الأعمال القريبة من الشغل المكتبي الى بحوث صالحة لنيل الشهادات الجامعية العليا ، ومشكلة المقاربات — المطارحات .

عرفنا اللسان ورسمنا له أطري الزمان والمكان ، وقصدنا باللسان اللغة العربية التي عالجت بعض مناحيها البحوث الآتية :

— دراسة معجم مقاييس اللغة .

— الأصول الثلاثية المشتركة باحرفها والمختلفة بمعناها .

— تطور المعجم العربي في لبنان حتى عام ١٩٥٠ .

— المجامع العلمية العربية والألفاظ المستحدثة والمصطلحات .

— التأثيل وظاهرة الدخيل في العربية .

— ظاهرة الأضداد في العربية .

— المجامع العلمية العربية والنظريات الجديدة في اللغة .

— الاتجاهات اللغوية الحديثة ...

— آراء حديثة في اللغة العربية .

— عاملا التشتت والتجمع واللغة العربية .

وحددنا الزمان بالعشرين سنة المنصرمة ، وقد قضينا معظمها في لبنان بعامة ، وفي بيروت بخاصة ، وقد عرّفت ملامحها البارزة الدراسة المعنونة :

— الحركة الأدبية الكوزموبوليتية في مدينة بيروت .

شاركنا على مضض في مناقشة مواضيع عالجت التراجم الوثائقية ، ونذكر منها :

— **تعريب الرواية الفرنسية منذ عام ١٩٠٠ لمؤلف فرنسي.**

— **تعريب كتاب الاسلام في عظمته الأولى لمؤرخ فرنسي.**

— **تعريب الدراسات المحمدية في الميزان لمستشرق فرنسي.**

....

ودفعنا عدداً من الباحثين صوب معالجة شؤون الأدب المكتبي وفن كتابته وتقنياته ومنهجياته ، وهي مواضيع مقبولة في الأبحاث الجامعية وصالحة لنيل الألقاب الأكاديمية ، ونذكر منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر:

— **المسعودي ، الأديب الموسوعي.**

— **منهجية الترجمة من خلال مقدمات بعض الكتب المنقولة الى العربية.**

— **الترجمة والمجتمع.**

— **الترجمة وبعض العلوم الموصلة أو المساعدة.**

....

من المعلوم اننا لا نطلب من المرشح ان يستبدل مقاربته بأخرى ، لئلا نزعزع أركان البحث ونهز أسسه ، ولذا وقفنا طويلاً أمام المقاربات والمطارحات التي تكشف الأسس السليمة التي روعيت في عملية وضع البحث ، والتي تمنع كل لبس وغموض ،

والتي تؤمن النتائج المقنعة . واستعنّا لدراسة المقاربات المطارحات بالأبحاث الآتية :

* المقاربة التاريخية :

— **عمر بن أبي ربيعة (حياته — شعره).**

— **ابن عقيل في ضوء شرحه لألفية ابن مالك.**

— **العلّامة الشيخ مصطفى الغلاييني.**

— **رشيد نخله.**

— **محمد عبد السلام كفافي في حياته وآثاره.**

— **النشاط الأدبي بالموصل في القرن الرابع الهجري.**

— **الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية.**

— **الشعر العربي في الخليج.**

— **حركة النقل والترجمة في العصر العباسي.**

— **حركة الترجمة (الفرنسية العربية) في فجر عصر النهضة.**

....

* المقاربة الوصفية ، ولا نذكر بخصوصها إلا الأبحاث التي اتبعت الوصفية العتيقة والمجربة :

— **الفعل في نحو ابن هشام.**

— نظريات عبّاس محمود العقّاد في اللغة.

— الشيخ عبد الله العلايلي (اللغوي الأديب والمفكر الناقد).

— آراء الدكتور أنيس فريحة في اللغة.

— الأقصوصة عند مارون عبود.

— مارون عبود (لغته — بيانه).

— اللغات الأساسية واللغة العربية.

— أصول تحقيق المخطوطات العربية.

* المقاربة المواضيعية:

— الإنسان بين القرية والمدينة في أدب ميخائيل نعيمة.

— الخوارق في روايات ميخائيل نعيمة وأقاصيصه.

....

* المقاربة المقارنة

— أصول الفقه وأصول النحو (دراسة مقارنة).

— الأسس البنيانية لوضع المفردات في العربية وفي الفرنسية.

— حروف الجرّ العربية والأدوات في الانكليزية (دراسة مقارنة).

ـ صورة أبي تمام بين شراحه وناقديه (حتى القرن الخامس الهجري).

ـ الرحلة في رسالة الغفران والكوميديا الالهية.

ـ اللقاءات في رسالة الغفران والكوميديا الإلهية.

ـ نبي جبران وزرادشت نيتشه.

ـ الياس أبو شبكة (التيارات الأجنبية في أدبه).

ـ نماذج بشرية غربية في ثلاثية نجيب محفوظ.

....

* المقاربة البنيانية:

ـ المرتكزات البنيانية لوضع الكلمات في اللغة العربية.

ـ بنية القصيدة العربية الحديثة.

ـ دراسة بنيانية لظاهرة الانحراف في شعر سعيد عقل الغزلي.

....

* المقاربة الصناعية:

ـ المعادل الموضوعي في مدح أبي تمام ووصيته.

ـ أسس علم البلاغة العربية (عند البلاغيين المتأخرين).

ـ التشابيه والاستعارات.

* المقاربة التكميمية الإحصائية :

— **الجملة في كتاب نجيب محفوظ (اللص والكلاب).**

— **قضايا السرد عند نجيب محفوظ.**

* المقاربات الأخرى :

— **الوقف وأثره الاجتماعي في المملكة العربية السعودية.**

— **مفاهيم دينية عند الجاهليين.**

— **الوجدية وأثرها في الأندلس.**

— **ابن كمونة وفلسفته في النبوة.**

اتبعنا في الباب الثاني الطريقة الوصفية، وعدنا الى جميع الدراسات، ولم نرَ من حاجة الى ذكر ما لم نذكره أو الى إعادة ذكر ما ثبتناه في موضع آخر. وأمر الأعمال التنفيذية الإجرائية معروف لدى الجميع، والبعض يصيب فيها الكثير من النجاح، لتقيده بخطط رشيدة ولمراجعته العمل، ولتنقيحه ولتجويده، والبعض الآخر يتهاون ويتسارع، ولا يصيب إلا القليل من التوفيق.

واستوقفتنا، في الباب الثالث، قضية الترميز وفك الترميز. وهي تساعد الدارس، من ناحية أولى، على إشباع مقاله بالمعاني والدلالات الدقيقة، وتتيح للمشرف، من ناحية ثانية، أن يعجم عود معايير القياس، وأن يطبقها للحكم على أهلية المرشح

ومقدرته ، دون أن يُتهم بأنه أساء فهم المقال . والتمسنا خطط الترميز وفكه من الأبحاث الآتية :

— **نظريات في الألسنية.**

— **الحقول المفهومية في مقدمة ابن خلدون.**

— **الحقول اللغوية عند القاضي الجرجاني.**

— **محاولة في لسان العرب والمعاني الفلسفية.**

— **نجعة الرائد وحقل الأدب المفهومي.**

— **دراسة معجمية تحليلية لثلاثة نصوص شعرية...**

ولا نطلب ، في الختام ، من الباحث الغرّ الذي يجهل المنهجيات والطرائق التقليدية بزجّ نفسه في خضم التكنولوجيات والتقنيات المتطورة. ومعرفة القديم شرط أساسي على من يتوسل إحدى التقنيات الحديثة ، وعلى من يودّ الوصول الى كشوفات هامة عصيّة على الوسائل التقليدية . وقد استوحينا بهذا الخصوص ، في صوغ خاتمة مقالنا ، البحوث الآتية :

— **إعمال الآلة في اللغة.**

— **مختبرات اللغات.**

— **معجم القانون الدولي في اللغة العربية.**

وكانت هذه البحوث مجتمعة وسيلة ، التقطنا منها ، بالانتقاء والاصطفاء ، خطة عمل ، رسمت بعض خطوط تطور الدراسات اللغوية والأدبية ، من خلال تجربتنا الخاصة التي نضعها تحت تصرف الغير.

* * *

أسس البحوث الجامعية اللغوية والأدبية

الباب الثاني : مرحلة الإجراء والتنفيذ

الباب الثالث : مرحلة نيل اللقب وزمن المقالات

- للمؤلف -

André Gide et l'Orient ,
Paris, Imprimerie Abécé, 1963.
Esthétique et Histoire de l'Art,
Damas, Imprimerie de l'Université de Damas, 1966.

* الأدب المقارن والأدب العام (طبعة مزيدة ومنقحة ١٩٨٣)
المكتبة الجامعية- دار الكتاب اللبناني بيروت

* الألسنية — ١ — **الألسنية العربية** (مقدمة — الأصوات — المعجم — الصرف) — المكتبة الجامعية — دار الكتاب اللبناني بيروت — الطبعة الثانية ، ١٩٨١ .
— ٢ — **الألسنية العربية** (النحو — الجملة — الأسلوب — خاتمة) — المكتبة الجامعية — دار الكتاب اللبناني بيروت — الطبعة الثانية ، ١٩٨١ .
* الألسنية ٨، ٩ **فنون التقعيد وعلوم الألسنية** — المكتبة الجامعية — دار الكتاب اللبناني — بيروت — ١٩٨٣ .

* الألسنية— ١٠، ١١— **اللغة العربية وتحديات العصر**— المكتبة الجامعية— دار الكتاب اللبناني— بيروت— ١٩٨٣.

* علم الانتقاد ١٢، ١٣— **مصطلح الأدب الانتقادي المعاصر**— المكتبة الجامعية— دار الكتاب اللبناني— بيروت— ١٩٨٤.

* * *

للمؤلفة

Bernardin de Saint-Pierre, Romancier,
Paris, 1970.

La Correspondance de Bernadin de Saint-Pierre, Inventaire critique,
Paris, 1970.

* الألسنية ٨ ، ٩ — **فنون التقعيد وعلوم الألسنية** — المكتبة الجامعية — دار الكتاب اللبناني — بيروت — ١٩٨٣.

* الألسنية — ١٠، ١١ — **اللغة العربية وتحديات العصر** — المكتبة الجامعية — دار الكتاب اللبناني — بيروت — ١٩٨٣.

* علم الانتقاد ١٢ ، ١٣ — **مصطلح الأدب الانتقادي المعاصر** — المكتبة الجامعية — دار الكتاب اللبناني — بيروت — ١٩٨٤.

المكتبة الجامعية

رقم العدد	العنوان	المؤلف
١	**الأدب المقارن والأدب العام** (طبعة مزيدة ومنقحة ١٩٨٣)	ريمون طحّان
٢ ـ ٣	**الألسنية العربية** (الطبعة الثانية ١٩٨١)	ريمون طحّان
٤	**نظريات في اللغة** (الطبعة الثانية ١٩٨١)	أنيس فريحة
٥ ـ ٦ ـ ٧	**في الشعر العربي القديم**	كمال اليازجي
٨ ـ ٩	**فنون التقعيد وعلوم الألسنية**	ريمون طحّان ودنيز بيطار طحّان
١٠ ـ ١١	**اللغة العربية وتحديات العصر**	ريمون طحّان ودنيز بيطار طحّان
١٢ ـ ١٣	**مصطلح الأدب الانتقادي المعاصر**	ريمون طحّان ودنيز بيطار طحّان
١٤ ـ ١٥	**أسس البحوث الجامعية اللغوية والأدبية**	ريمون طحّان ودنيز بيطار طحّان
١٦ ـ ١٧	**قضايا السرد عند نجيب محفوظ**	وليد النجّار

مؤسسة خليفة للطباعة
بولفار الدورة - البوشرية
تلفون: ٨٣٢٧٠ ٨٩٤

14/15

BIBLIOTHEQUE UNIVERSITAIRE

أسس البحوث الجامعية اللغوية والأدبية

* **وصفة** من أصول ومقاربات — مطارحات ومنهجيات ومجموعة من المبادئ والمفاهيم التي تتحكم بفرضية البحث، وتسجل جوامعها المشتركة، وترسم خطوطها العامة، وتحدد أبعادها، وتتعقب المشكلات الثانوية التي تتفرّع عنها...

* **منهج إجرائي** يطالب بالتحليل النصوصي المعرفي، ويوصي بتوسل طرائق الاستدلال المتطورة والتقنيات المتقدمة.

* **طريقة عمل** تحدد مراحل البحث الثلاث:
مرحلة التأهب والاطلاع
مرحلة الإجراء والتنفيذ.
مرحلة نيل اللقب وزمن المقالات.
خط عام يهدف إلى تحسين إنتاج المقال الجامعي والبحث الأكاديمي.


Bibliotheca Alexandrina
03267776

ريمون طحان

dar al-kitab allubnani

UNIVERSITY LIBRARY